



آسني سيپرستاد

بائع الكتب في كابول

هذا هو الكتاب الأول من سلسلة كتب «آسني سيپرستاد» التي ستعطي قارئها نظرة على
الحياة في كابول من خلال حياة بائعي الكتب في كابول. - سلسلة «آسني سيپرستاد»

مفتحة فرصتها لتبصرة، تقوم الكتابة الأسطورية بالحياة القلبية والتكامل من حزمها
 بتتبع حياة أخصاء، متشوقين من حكمة تلك الحياة أخصاء لترسيم مجموعها من
 الصور العاصفة للخيال، ومن خلال برقع العبادات (العبودية) التي فرضها
 الإسلاميون الأسوياريون، تكتب من أرض غراء يسريها الجفاف في الوقت الذي
 التراجع فيه عنها قبضة الأسوياريين الإسلاميين ويوجد أغلبها الضمير وسط أزمة
 غريبة... ولكن على خلفية من الحسني المشرقة بالقلم واليد العاطفة بالمشتر، فإن
 السيرة تأخذ منحى أعمق فالتاريخ يفسر في الحصة، ويحل بعضهم إلى البعض
 الآخر، ويكفون الملون، ويتوقون إلى حياة أفضل.



هذه الحياة اليومية لتسبح أفغانستان ولم تصورها عبر
 متبعها يومية لرجل شجاع الإيمان بنفسه. استطاع خلال
 ثلاثة عقر من الزمن، ولعب الأخصاء القديمة المعاصرة، أن
 يتعدى الأسطوري، يبرهنه في يومين الكتب التي في كتابه
 ما استمرى العباد العالم، وتحولت سيرة كتاباً استثنائياً
 بين الكتب الأكثر مبيعاً في العالم، دلت الكتب في كل يوم
 كتاباً مشغول في حبيبته، وفي قلمه سيرة - إنه كشف عن ملوك الإنسان في
 أفغانستان، وهو ما قبله على الإطلاق للخدمة العروبة اليومية في أفغانستان
 الحديثة.

لقد القى القلمي سيرة مستند العبد من الجوانب بسبب أساطير العصور، وكانت سجل
 دراسة من مناطق عراقلها المربوب من المشق المشق، والحقن وأفغانستان
 والبراق، وهي تتنقل بين تلك، وتعيش في الأرواح.

ISBN 9786034766558



منشورات الاختلاف

Editions El-Ikhtilaf

هاتف: 00961 2 8678379

50 شارع حسنة الزموني

البرازيل العاصمة - البرازيل

www.elikhtilaf.org



الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

بائع الكتب في كابول

تأليف

آمني سييرستاد

تعريب

المحامي حليم نصر

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والترجمة



منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilaf

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

The Bookseller of Kabul

حقوق الترجمة العربية مرمّض بها قانونياً

Published by agreement with Leonhardt & Høier Literary Agency A/S

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2002 by Åsne Seierstad

All rights reserved

This translation has been published with the financial support of NORLA

Arabic Copyright © 2008 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1430 هـ - 2009 م

ردمك 8-665-87-9953-978

جميع الحقوق محفوظة للنashرين

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

149 شارع حسية بن برطي

الجزائر العاصمة - الجزائر

هاتف/فاكس: 213 21676179

e-mail: editions. elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



عين التينة، شارع للمفتي توفيق خالقد، بداية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)

ص. ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: bechar@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

للتصديق وفوز الأكون: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+9611)

المحتويات

7	تصهيد
19	بلع الكتب في كابول
21	الخطوبة
29	إحراق الكتب
47	للجريمة والعقاب
64	الانتحار والأغنية
68	رحلة عمل
99	أتردين فعلاً أن تجعليني حزينا؟
114	نواهي طالبان
118	تماوج، رفرفة، ودوران
130	زواج من الدرجة الثالثة
144	الأم الرئيسة
164	إعراقت
175	لداء من علي
214	راقحة الغبار
237	المحاولة

- 253..... لأن الله خالد
263..... الغرفة للرهيبة
274..... النجار
310..... والدتي أسامة
334..... للقلب المكسور
354..... خاتمة

توهده

كان سلطان خان أول الناس الذين التفتهم عند وصولي إلى كابول في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 2001. وكنت قد أمضيت ستة أسابيع في أفغانستان بصحبة رجال الكومندوس التابعين لقوات التحالف الشمالي؛ أمضيتها في الصحراء المخاضية لحدود طاجيكستان، كما في جبال هندو كوش، كما في وادي بانشير، كما عند العتبة الشمالية لمدينة كابول. كنت أتبع هجوم هذه القوات ضد قوات طالبان. وكنت قد تعودت النوم على الأراضي الصخرية، وفي الأكواخ المبنية من الطين، وعلى نعط الجبهة. كما كنت قد اعتدت على التنقل في صناديق الشاحنات، وفي العربات العسكرية وعلى صهوات الخيول، بالإضافة إلى المشي على الأقدام.

وعندما سقطت قوات طالبان، اتخذت طريقي نحو كابول بصحبة القوات الشمالية المتحالفة. وفي دكان للكتب حدث لي أن التقيت رجلاً أنيقاً أشيب اللحية. ولأنه كان قد مضى عليّ بضعة أسابيع بين الركام وتحسب دحان البارود، حيث كانت الأحاديث تركز حول تكتيكات الحرب والتقدم العسكري، فقد رافقني ورقع معنوياتي قياسي أخيراً بتصفح أوراق الكتب؛ والتحدث مع شخص ما، في شؤون التاريخ والأدب.

كانت رفوف مكتبة سلطان نعان مثقلة بالكتب المكتوبة في لغات عديدة: فمن المجموعات الشعرية، إلى الأساطير الأفغانية، إلى كتب التاريخ، فإلى الروايات. لقد كان سلطان بائعاً جيداً؛ إذ إنني لم أغادر دكان كتبه إثر زيارتي الأولى له إلا وأنا أخرج متأبطاً سبعة كتب. وهكذا صار من عادي أن أعرج على مكتبته كلما وجدت متسعاً من الوقت كي أنظر في الكتب وأتجاذب أطراف الحديث مع صاحب المكتبة اللافت، وهو أفغاني محب لبلده حتى الشغف، ومع ذلك فإنه يشعر أن بلاده تقوم بإذلاله بين كل وقت وأوان.

"في سادئ الأمر، أقدم الشيوعيون على إحراق كتبتي، ثم جاء المجاهدون بعد ذلك لتخريب المكتبة ونهبها، وأخيراً أكملت جماعة طالبان إحراق ما تبقى مرة جديدة"، كان قد أخبرني.

وهكذا أنفقت ساعات وساعات فيما أنا أستمع إلى روايات بائع الكتب هذا، عن معاركه ضد الأنظمة السياسية، وما لديها من مراقبين لحرية الفكر، كيف عاض حربه الشخصية العتيدة، منفرداً وكيف كان يقوم بإخفاء كتبه عن أعين البوليس، وكيف كان يقوم بإعارتها للآخرين بغية إخفائها؛ وأخيراً، كيف أودع السجن بسبب كتبه هذه.

لقد كان دأب هذا الرجل محاولة إنقاذ آداب بلاده وفنونها في الوقت الذي تعاقبت فيه سلسلة من المستبدّين الذين لم يوفروا جهداً لتدمير هذا الأدب وذاك التراث. لقد أيقنت أن هذا البائع نفسه قطعة حية من تاريخ أفغانستان الثقافي. ولا أبالغ إذا قلت إنه كتاب تاريخ يسير على قدمين بشريتين.

في أحد الأيام حصل وأن دعاني الرجل إلى بيته لتناول وجبة عشاء. كان أفراد عائلته - إحدى زوجته، وأولاده، وبناته، وأخوه،

وأمه وبعض أبناء أخته - يجلسون على الأرض حول مائدة سخية. وكان سلطان يروي القصص وال نوادر؛ بينما أولاده يمزحون ويتصاحكون، وكان الجو رخيماً، غير متوتر، ولم يكن هنالك مجال لمقارنة هذه الوجبة بالوجبات البسيطة التي كنت أتناولها في رفقة رجال الكومندوس في الجبال. لكنني سرعان ما لاحظت أن النسوة كنَّ مقتصدات في الكلام. فزوجة سلطان الجميلة التي لم تكمل العشرين من عمرها جلست صامتة إلى جانب الباب تحمل طفلة بين ذراعيها. أما زوجته الأولى فلم تكن موجودة في ذلك المساء. أما بقية النسوة الحاضرات فقد كنَّ يكتفين بإجابة الأسئلة التي تلقى عليهن، ويتقبلن الثناء على وجبة الطعام، لكن واحدة منهن لم تبادئ أحداً بأي حديث. وعندما غادرت منزل هذه العائلة في تلك الليلة فقدت نفسي: "هذه هي أفغانستان. وكم سيكون الأمر ممتعاً لو تيسر لي أن أضع كتاباً عن هذه العائلة".

وفي اليوم التالي زرت سلطان في مكتبته، وفاتحته بالفكرة التي خطرت في بالي.

"فكرة لا بدّ من شكرك عليها". هكذا أجابني.

"لكن هذا يعني أنه لا بدّ لي من القلوم للعيش معكم".

"أهلاً بك ومرحباً".

"كما لا بدّ لي من التحوال في صحتكم، ومن العيش على

طريقتكم. أي معك، ومع زوجتيك وأخواتك، وأولادك".

"أهلاً وسهلاً بك". قال مرة ثانية.

* * *

وفي يوم غائم من أيام شهر شباط/فبراير انتقلت للعيش مع

أفراد تلك العائلة. وكانت مقتنياتي تقتصر على حاسوبي

الشخصي، وعلى بعض الأقلام والدفاتر، بالإضافة إلى هاتفني الخلوي وما كنت أضعه على بدني من ثياب. فقد كان كل شيء قد فقد معي على الطريق، في مكان ما في أوزبكستان. ولقد رحّب بي أفراد العائلة بالأحضان، ثم بدأت أشعر تدريجياً بالراحة في داخل الملابس الأفغانية التي أعبرت لي. كما كنت قد أعطيت فراشاً أمدته على الأرض لأستلقي عليه حينما أذهب للنوم، إلى جانب فراش ليلى، الأخت الصغرى لسلطان وكانت العائلة قد أوكلت إليها مهمة رعايتي والسهر على راحتي.

"إنك طفلي الصغيرة"، قالت لي هذه الفتاة التي لم تتعدّ التاسعة عشرة من عمرها في الليلة الأولى. "ويطيب لي أن أكون في خدمتك". هذا ما أكدته لي منذ البداية، وكانت تنب إلى قدميها في كل مرة حالما أفيق من نومي.

وكان سلطان قد وجّه أوامره إلى العائلة كي يقدموا لي كل ما أشاء وأريد، كما أنه كان قد أخبرني في وقت لاحق أن كل من لا ينصاع إلى هذا الطلب كان لا بدّ له من أن يلقى عقابه.

وكانت تقدّم لي وجبات الطعام، وأكواب الشاي، على امتداد يومي. وهكذا بدأت أندمج في حياة هذه العائلة شيئاً فشيئاً. وكان أفرادها يخبروني عن الأشياء عندما يشعرون أنهم مهياؤون لذلك، وليس عندما يطيب لي أن أسأل. إذ لم يكونوا بالضرورة في مزاج الكلام عندما يكون الحاسوب الشخصي جاهزاً بين يدي، بل ربما خلال رحلة إلى البازار، أو في الحافلة، أو في وقت متأخر من الليل بينما يستلقي كلٌّ على فراشه. وكانت معظم الإجابات تأتي تلقائية وفورية على شكل استجابات لأسئلة لم أكن أملك خيالاً واسعاً لطرحها.



وإذا كنت قد قمت بكتابة هذا الكتاب في حلة أدبية، فإنه رغم ذلك، مسبني على أحداث حقيقية أو على أحداث أُخبرني عنها أناس حقيقيون كالوا قد شاركوا فيها.

أما عندما أقوم بشرح الأفكار والمشاعر، فإن نقطة ابتعادي عن الحدث تكون هي المسافة التي أُخبرني أولئك الأشخاص بأنهم قد اعتقدوا الشعور بها في كل موقف بعينه. وقد يسألني القراء، "وكيف يمكنك أن تعرفي ما الذي يدور في رأس كل فرد من أفراد العائلة؟" والجواب، ليس لي أن أعرف ذلك بالطبع، فإنني لست كاتبة أملك قدرات خارقة قادرة على اختراق الأذهان والضمائر. أما الحوار الداخلي، والمشاعر، فهي مبنية بكاملها على ما أفصاه أفراد هذه العائلة إليّ.

ولم أكن مرة قد تمكنت من إتقان اللغة المحلية التي تتخاطب بها العائلة (داري) وهي لهجة محكية من اللغة الفارسية تنطق بها عائلة خان، لكن عدة أفراد من أبناء هذه العائلة كانوا قادرين على التخاطب باللغة الإنكليزية. هو أمر غير مألوف؟ نعم ولكن حكايتي هذه الآتية من كابول هي حكاية تخص معظم العائلات الأفغانية اللاعتيادية. فعائلة صاحب مكتبة لا بد لها من أن تكون عائلة متميزة في بلد لا يحسن ثلاثة أرباع مواطنيه لا الكتابة ولا القراءة.

وكان سلطان قد التقط صيغة مهيجة ومطربة في لفته الإنكليزية، وذلك من خلال قيامه بتعليم أحد الدبلوماسيين لهجته المحلية المذكورة من اللغة الفارسية. فلقد كان قادراً على الإفصاح لي عن مخاوفه، والتعبير لي عن تجاربه في الحب. لقد شرح لي كيف أنه أراد أن يلقي بكل ذاته في عملية تطهر دينية، فسمح لي مراراً بمرافقته في زيارته إلى

"المرار"، كرفيقة رابعة متكررة الهوية كما جرى ديجي في رحلة عمل إلى كل من بيشاور، ولاهور، وفي رحلات للبحث عن أسرار "القاعدة" كما في رحلات التسوق في البازار، وإلى الحمام، وإلى حفلات الزواج ومناسبات إعداد الزواج، وذلك إلى جانب زيارات إلى المدرسة، وإلى وزارة التعليم، وإلى محطة البوليس، وإلى السجن.

وإنني لم أشارك في أي دور شخصي في مصر جميلة الدراماتيكي، ولا في قرارات رحيم الله. وكنت قد سمعت عن قيام سلطان بخطة صونيا من أولئك الذين تعنيهم القصة، أي: من سلطان نفسه، ومن صونيا، ومن والده سلطان، ومن أخواته، ومن أمه، ومن شريفة.

ولم يكن سلطان ليسمح لأي شخص آخر من خارج أفراد عائلته بأن يعيش في بيته، وهكذا فقد قام هو، ومنصور وليلى بلور المترجمين الشفهيين لي. وهذا الأمر بالطبع، قد أعطاهم تأثيراً يمكن أن يكون كبيراً في صياغة قصة عائلتهم، لكنني قمت بالاحتياط لذلك عن طريق المقارنة بين الروايات التي يرويها كل من المترجمين المذكورين، وكما كنت أطرح السؤال نفسه بواسطة كل منهم، وكان الثلاثة يمثلون التباين الكبير بين أفراد العائلة.

وقد عرفت العائلة بكاملها أن هدف وجودي بينهم هو لتأليف كتاب. لذلك فإنهم إذا وجدوا أن هنالك ما لا يريدوني أن أكتب عنه، فإنهم كانوا يخبروني بذلك. ومع ذلك، فإنني اخترت أن أترك عائلة عسان وغيرها من الأفراد الذين أستشهد بأقوالهم في حالة مغفلة ودونما ذكر لأسمائهم. ولم يكن أحد قد طلب مني اللجوء إلى هذا التدبير. وكل ما في الأمر أنني أرتيته مناسباً.

كانت أمامي هي دائماً أمام هذه العائلة. إذ كنت أفض عند فجر النهار على لفظ الأطفال كما على أوامر الرجال. وكنت أنتظر دوري

للدخول إلى الحمام، أو أتسلل إليه عندما يكون كل واحد قد فرغ من شأنه فيه. وفي الأيام السعيدة كنت أجد أن هالك بقية من الماء الساخن قد بقيت لي، لكنني سرعان ما تعلمت أن كوباً من الماء البارد يُلقى على الوجه يمكن أن يكون له تأثير منعش أيضاً. أما بشأن بقية بخاري، فإنني كنت أصرفه في البيت بين النساء، وفي زيارة أقارب العائلة، أو الذهاب إلى البازار، والآن فإنني كنت أرافق سلطان وأولاده إلى المحل، أو في جولات في المدينة أو في سفرات. أما في الأمسيات، فإنني كنت أشارك العائلة وجبة العشاء، ثم أشرب الشاي الأخضر حتى يحين موعد الإيواء إلى الفراش.

لقد كنت بمجرد ضيفة على العائلة، لكنني سرعان ما رأيت نفسي كأنني في بيتي. لقد عاملني الجميع معاملة حسنة لا تصدق. فكل العائلة كانت كريمة معي ومنفتحة. فلقد أمضينا الكثير من الأوقات الجميلة، لكنني نادراً ما شعرت بنفسي بأنني غاصبة مثلما كان حالي أثناء وجودي مع عائلة خان، فإنني نادراً ما تحدثت مع الآخرين إلى الحد الذي بلغته في منزلهم. ولم تتأبني مرة رغبة في الاشتباك بالأيدي مع أي شخص كان مثلما كانت تتأبني هذه الرغبة أثناء وجودي معهم في بعض الأحيان. فالأمر نفسه كان يستثيرني على الدوام: طريقة معاملة الرجال للنساء. فالتسليم بسيادة الذكور على الإناث كان أمراً مفروضاً في أنفس الجميع بحيث إنه كان نادراً ما يتوقف أحد عنده بتساؤل أو نقاش.

ولأنني لأتحيل ألهم كانوا قد اعتروني من المخلوقات مزدوجة الجنس. فكأنسانة آية من الغرب كنت أستطيع أن أمزج مع كل من الرجال والنساء. أما لو كنت رجلاً، فلم يكن ليسمح لي أبداً أن أعيش إلى هذه الدرجة من الاقتراب من نساء البيت دون أن أستثير

بذلك موجهة من النيمة التي كانت لا شك سوف تطوف بها
الأسن. وفي الوقت نفسه لم يكن هنالك أي مانع من وجود امرأة
في عالم الرجال وعندما كانت تُقسم الموائد بين الرجال والنساء في
غرفتين مستقلتين، فإنني كنت المخلوق الوحيد القادر على الطواف
بحرية بين الجماعتين.

وقد كنت معفاة من الالتزام بالزي النسوي الأفغاني الصارم، كما
كان باستطاعتي الذهاب إلى حيث أشاء. ومع ذلك فإنني كنت في
العادة ألبس زي الـ: "بوركا" لأن ذلك يسمح لي بكل بساطة أن
أترك وشأني. فكل امرأة غريبة تسير في شوارع كابول كان لا بد لها
من أن تستثير اهتمامات غير مرغوب بها.

ومن تحت البوركا كنت أستطيع أن أهدق بنظرائي كما يرغب
قلبي ويشتهي دون أن يهدق إلي أحد بنظرات مقابلة. وكنت أستطيع
مراقبة أفراد العائلة الآخرين عندما يكونون خارج البيت دون أن يتوجه
انتباه كل منهم نحوي. فانهدام تمير الشخصية قد صار لي بمثابة انفكاك
من الإسار في أي مكان وجدت فيه نفسي. فالأماكن الهائلة والمعزولة
في كابول كانت قليلة الوجود. كما أنني كنت ألبس البوركا كي
أستطيع أن أختبر بنفسي كيف يمكن أن يكون حال المرأة الأفغانية.
كيف يكون شعورها مثلاً عندما تحشر في الصفوف الخلفية المكتظة،
التسروكة للنساء بينما تكون معظم المقاعد الأمامية لحافلة ماء، محالية.
وكيف يمكن أن يكون شعورهن عندما تحشر الواحدة منهن داخل
صندوق سيارة التاكسي لا لسبب سوى لأن رجلاً يجلس في المقعد
الخلفي للسيارة. وكيف يمكن أن يكون شعور المرأة التي تحملق الأعين
في عباها الطويلة الجذابة حيث تكون هذه النظرات هي الحاملة الأولى
التي تلقاها امرأة طويلة من الرجال عندما تلتقيهم في الشارع.

كما أنني ومع مرور الوقت، بدأت أكره البوركا، أكره طريقتها في التضيق على الرأس والتسبب بالصداع، وأكره الصعوبة التي تتسبب بها لي في رؤية أي شيء من خلال شبكة القماش المخروم المتروكة للنظر. فكم كان هذا الحجاب شديداً القيد وكم كان محصوراً بحال الرؤية، وكم كان مقدار الهواء الذي يسمح الحجاب بدخوله قليلاً، وكم كان المرء يشعر أنه قد بدأ يتعرق بسرعة، وكيف أن على واضحة الحجاب أن تبقى دائماً في حيلة من أمرها أهن يمكنها أن تمشي لأنها لا تستطيع أن ترى موطئ قدميها. وكم هي كبيرة كمية التراب التي تحتوئها العباءة، وكم ألها لا بد لها من أن تصبح متسخة بخبائر وأرجال الطريق. كما أنني لا أستطيع أن أنسى مقدار الشعور بالتححرر عندما تصل المرأة إلى البيت فتحرر من هذا الشاحور.

كما أنني كنت أعمد إلى التلغص بالبوركا كتدبير من تدابير الاحتياط والتحفظ، كان ذلك يتم كلما قمت بالسفر برفقة سلطان على الطريق غير الآمن إلى جلال أباد، حيث كان علينا قضاء الليل في محطة الحدود القذرة، عندما كنا لا ندرك تلك المحطة إلا في آخر الليل. فالتسوية الأفغانيات لا يسافرن عادة بصحبة حزمة من أوراق الدولار وكمبيوتر شخصي، لذلك فإن قطاع الطرقات كانوا في العادة يتركون النساء المحجبات في حالهن.

ولعله من المهم أن أؤكد للقارئ أن هذه القصة ليست سوى قصة عائلة أفغانية واحدة، وهناك ملايين من العائلات. ولم تكن عائلتي هذه بأي حال من الأحوال لتعتبر عائلة نموذجية. فهي نوع من عائلات الطبقة الوسطى إذا كان يسوغ للمرء أن يستعمل هذا التعبير في أفغانستان. فبعض أفراد هذه العائلة كانوا جيدي التعليم والعديد منهم

كانوا ممن يحسنون القراءة والكتابة. وكان يجري بين أيديهم ما يكفيهم من المال بحيث إنهم لم يتعرضوا للجوع مرة. ولو كان لي أن أختار العيش مع عائلة أفغانية نموذجية، لكنت سأعيش مع أفراد عائلة تقيم في الريف ولا بد لها من أن تكون عائلة كبيرة لا يحسن أي من أفرادها لا القراءة ولا الكتابة، ولم تكن حياتها في كل يوم سوى صراع مرير من أجل الاستمرار على قيد الحياة. ولم أكن والحال كذلك، لأختار العائلة التي أكتب الآن عنها، لأنني كنت سأفضل عائلة نموذجية تمثل عموم المجتمع الأفغاني إلا أنني كنت قد اعترت هذه العائلة بالذات، لأنها قد ألهمتني.

ولقد قضيت في كابل فصل الربيع الذي أعقب فرار جماعة الطالبان منها. وفي ذلك الربيع كانت الآمال الضعيفة برحيل الطالبان قد ومضت وأورقت. ولقد قوبل سقوط طالبان بالترحاب، ولم يعد ثمة أحد يخشى من أن يلهجاً البوليس الديني إلى مضايقته في الشارع. فهكذا عاد بإمكان النسوة الذهاب إلى المدينة دون مرافقة أحد هن، كما عاد بمقدورهن الذهاب للتعليم، إذ صارت البنات قادرات على الذهاب إلى المدارس. لكن تلك الفترة كانت أيضاً موسومة بإحباطات العقود السالفة. فما الذي يدعو كل شيء إلى التغير الآن فجأة؟

ومع مرور أيام ذلك الربيع، وفي أعقاب فترة من الهدوء النسبي، صار بإمكان المرء أن يتبين وجود موجة من التفاؤل الحيوي. وهكذا وُضعت الخطط، وبدأ عدد من النساء بترك البوركا في منازلهن. كما اتخذت بعضهن أعمالاً ووظائف، وعاد اللاجئون إلى ديارهم.

لكن الحكومة كانت في تذبذب بين التقاليد القديمة، وبين الحداثة؛ بين أمراء الحرب، وبين مشايخ القبائل المحليين. وفي وسط هذه الفوضى

العارمة حاول القائد الجديد حامد كارضاي أن يمرر قانوناً متوازناً. كما حاول أن يشق لحكومته طريقاً سياسياً. لقد كان الرجل محبوباً من الناس لكنه لم يكن لا صاحب جيش، ولا صاحب حزب؛ كل ذلك في بلد يغمره السلاح والفتنات المتعاصمة.

ولقد كانت الظروف في كابول آمنة إلى درجة معقولة، كل ذلك بالرغم من اغتيال وزيرين من الحكومة، وحصول محاولة فاشلة لاغتيال وزير ثالث. ولقد استمر الناس في التعرض إلى التضيق. وقد وضع العديد من الناس ثقتهم بالجنود الأجانب الذين يسيرون دوريات في الشوارع. "لولا وجود هؤلاء فإنه لم يكن للحرب الأهلية بدء من أن تشتعل من جديد". هذا ما كانوا يتداولونه.

لقد كتبتُ في هذه القصة كل ما رأيت وسمعت، كما حاولتُ أن أجمع انطباعاتي عن ذلك الربيع في كابول، كما عن انطباعات أولئك الذين حاولوا أن ينفضوا الشتاء عنهم وأن ينشئوا النماء والازدهار، وانطباعات أولئك الذين شعروا بأنه من المقدر عليهم أن يستمروا في "أكل التراب" كما قالت لي ليلي مرة.

آسفي ميرصناد

أرسلو، الأول من آب/أغسطس 2002

بائع الكتب في كابول

المطلوبة

عندما وجد سلطان عمان أن الأوان قد آن له لاتخاذ زوجة جديدة، لم يكن ثمة أحد من المحيطين به يرغب في مساعدته على هذا الأمر، وكان أول الناس الذين التمس منهم المساعدة، والدته.

"عليك أن تكفي بالزوجة التي عندك، وأن تصلح الأمور معها"، هكذا أجابته، لكنه ما لبث أن التمس مساعدة أخيه الكبري. "إنني معجبة بزوجتك الأولى"، قالت له. كما أنه لقي إجابات مماثلة من بقية أخواته، وذهبت التماساته معهن هدرًا.

"إنه قرار يجلب الحرج والدل إلى شريفة"، أجابته عمته. لكن سلطان كن في حاجة إلى مساعدة يلقاها من شخص ما، في هذا الأمر. إذ إنه ليس من المألوف أن يقرم الخاطب بطلب يد خطيبته هو بالذات. والتقاليد الأفغانية تقضي بأن تقوم إحدى فريسات الخاطب بالكشف عن نية الخطوبة إلى العروس وبأن تلقي نظرة سريعة عليها كي تطمئن ألها كفو للعريس، وألها حسنة التربية ولديها مواصفات الزوجة الجيدة. لكن واحدة من النساء الوثيقات القربى مع سلطان لم تكن قد رضيت بأن يكون لها أي دور في تقديم عرض الزواج هذا.

وكان سلطان قد حصر أخباراته بين ثلاث فتيات يافعات، اعتقد أن مهر كل منهن قد يتناسب وإمكانياته على الإنفاق. وكن جميعهن متعافيات، وجميلات، وينتمين إلى قبيلته نفسها. ففي عائلة سلطان كان ينذر أن يتزوج أحد الرجال من خارج نساء القبيلة. فلقد كان الزواج من الأقارب يعتبر أكثر حصافة وأماناً، حتى إن أكثر الزيجات كانت تقع بين أبناء وبنات العمومة.

وكانت المرشحة المفضلة عند سلطان كي تكون زوجته، فتاة في السادسة عشرة من عمرها تدعى صونيا. وصونيا هذه ذات عيني فاحشي السواد، لوزيتين، ولها شعر أسود مرسل لماع. وهي جميلة الشكل ممشوقة القوام، وقد قبل عنها إلما فتاة غير كمولة. أما عائلتها، فعائلة فقيرة متماسكة العلاقات بشكل مقبول. وكانت جدتها لأُمها شقيقة لجدّة أم سلطان.

وبينما كان سلطان يتأمل في أمر تدبير مشكلته المتمثلة في كيفية السّمكن من طلب يد الفتاة التي احتارها قلبه دون مساعدة من أي من قريباته من النساء، فإن زوجته الأولى شريفة كانت لحسن الحظ غافلة تماماً عن تعلق قلب زوجها بمحرد فتاة نافهة كانت قد ولدت في السنة نفسها التي تم فيها زواجهما. ولقد كان العمر يتقدم بشريفة فعلاً فها هي، مثل سلطان، قد تحطّطت عتبة الخمسين ببضع سنوات، بعد أن أنجبت لزوجها ثلاثة صبيان وابنة واحدة. لكن الوقت كان قد حان لرجل في مثل حال سلطان، كي يبدأ التفتيش عن زوجة ثانية.

"عليك أن تقلّع أشواكك بيديك"، قال له أخوه في نهاية الأمر.

وبعد تقليب الأمر في ذهنه قليلاً، أدرك سلطان أن لا بدّ له من الأخذ بقول أخيه لأنه لم يعد أمامه أن يفعل سوى ذلك. وفي صبيحة مبكرة من أحد الأيام اتخذ طريقه في اتجاه منزل أهل فتاته البالغة

السادسة عشرة من عمرها. لاقاه أهلها بأذرع مرحبة مفتوحة. سلطان هذا، كان يعتبر في نظرهم رجلاً شهماً كريماً. وزيارته لهم لا بد لها من أن تكون موضع ترحاب في أي وقت. وانهمكت والدته صونيا بتحضير الشاي. وبعد أن استراح الجميع على المقاعد الوطنية اللينة في الكوخ؛ وفرغوا من تبادل المحادثات، آنس سلطان أن الوقت قد حان لمفاتيحة أهل العروس بأمر الخطوبة.

"لي صديق يرغب الزواج من صونيا"، قال لهم.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يفاتحهم أحد بخصوص طلب يد ابنتهم، فهي فتاة جميلة ودؤوبة، لكنهم كانوا يعتقدون أنها ما زالت صغيرة على الزواج قليلاً. ووالد صونيا لم يكن قادراً على العمل كأي وقت مضى. إذ إنه وأثناء نورطه في عراك بالسكاكين، كان قد خرج ببعض الأوتار العصبية المقطوعة في ظهره. لذلك فإن ابنة الجميلة يمكن أن تستعمل كورقة مساومة في بورصة الزواج، لذلك كان هو وزوجته في انتظار دائم للعريس الذي يعرض عليهما مهراً أعلى من الذي عرضه كل الذين سبقوه.

"إنه رجل غني"، قال سلطان "وهو يعمل في حقل العمل نفسه، الذي أعمل فيه أنا. كما أنه متعلم، وله ثلاثة أطفال. لكن زوجته قد بدأت تتقدم فما السن".

"وكيف هو حال أسنانه؟" سأله الأهل على الفور، ملصحين إلى

عمر هذا الصديق.

"إنه في مثل حالي"، قال سلطان "ولكن أن نحكما".

إنه كبير، هذا ما خطر في بال الزوجين. ولكن هذا الأمر لم يكن بالضرورة أمراً بالغ السوء. إذ كلما ارتقى عمر الرجل، فلا بد من أن يرتقي معه مقدار مهر ابنتهما. فسعر كل زوجة يحتمسب وفقاً لفارق

العمر، ومعدل العمل، إضافة إلى المهارات، وإلى الوضع الاجتماعي للعائلة.

وعندما أكمل سلطان إيصال رسالته، قال له الأهل، مثلما كان متوقعاً، "إن ابننا لا تزال في عمر صغير للزواج".

فكل شيء يمكن بيعه في سرعة مثل هذا الخاطب الثري المجهول الذي يصح به سلطان يمثل هذه الحرارة. لكن الأصول تقضي بالأب يدو الأهل شديدي الاستعجال. فهما يعرفان جيداً أن سلطان سوف يعود ثانية، فابتهما صونيا صغيرة وجميلة.

وفد عاد سلطان فعلاً في اليوم التالي ليكرّر عرضه الأول. ودارت الحادثة نفسها. وتلقى الإجابات ذاتها، لكنه في هذه المرة كان عليه أن يقابل صونيا، التي لم يكن قد رآها مرة منذ كانت لا تزال فتاة شديدة الصغر.

قامت صونيا بتقبيل يده كما تقضي تقاليد الاحترام بذلك لقريب كبير في السن، كما قام هو بمباركة أعلى رأسها بقبلة منه. كانت صونيا تمسّ بالجلو المشحون، لذلك فإنها أحفلت تحت النظرات العاصفة التي كان يلقيها عليها العم سلطان.

"لقد وجدت لك رجلاً غنياً، ما هو رأيك في ذلك؟" سألتها. أطرفت صونيا في الأرض، فتاة صغيرة في مثل عمرها لا يحق لها أن تعطي رأيها حول الخاطب.

وعاد سلطان لليوم الثالث، وفي هذه المرة كان قد أفصح عن تقدم الخطيب للخطبة رسمياً: إذ أحضر معه خاتماً وعقداً، وقرطين، وإسواره، وكلها من الذهب الأحمر، كما أحضر معه من الملابس كل ما تريد العروس وتشتهي، إضافة إلى ستمئة رطل من الأرز، وثلاثمئة رطل من زيت الطهو، وبقرة، وقطيع صغير من الأغنام،

وخمسة عشر مليون قطعة نقد أفعابية، وهي تعادل في قيمتها خمسمئة دولار أمريكي تقريباً.

وكان والد صونيا أكثر من مكتفٍ بالمهر، وسأل أن يتمكن من مقابلة الرجل العامض الذي هو على استعداد لدفع هذا المهر الغالي لقاء الزواج بابنته. فوفقاً لما كان قد ذكره عمه سلطان، فإنه كان حتى من عشرينه دائماً، وذلك رغم عدم استطاعة الأهل تعديد هويته، أو التذكر أنهما كانا قد لقياه مرة من قبل.

"غداً"، قال سلطان. "سوف أطلعكما على صورته".

وفي اليوم التالي، بعد أن تم إغراؤها بـ "حنوتية"، وافقت عمه سلطان على القيام بكشف هوية الخاطب. لقد أخذت صورة شمسية معها - ولم تكن تلك الصورة سوى صورة سلطان نفسه - ومع الصورة رسالة لا تقبل التفاوض مفادها أن الأهل ليس أمامهما سوى ساعة واحدة لاتخاذ القرار ورد الجواب الیهائي. فإذا كان الجواب بالإيجاب، فإن الخاطب سوف يكون حامداً شاكراً. أما إذا كان الجواب بالنفي، فلن يكون بين العائلتين حقد ولا ضعية. فإن الأمر الذي ما كان يريده، وبأي ثمن، هو أن يبدأ مساومة لا تنتهي يكون فيها موقفه ضائعاً بين القبول وبين الرفض.

وكان أن وافق الأهل ضمن الساعة المحددة. فقد كانا متمسكين بسلطان عمان، وبأمواله، وبمركزه الاجتماعي. أما صونيا فقد لبثت في العلية تنتظر. وبعدما انجلى الغموض حول شخصية الخاطب، فإن الوالدين قررا القبول به. وعند ذلك توجه عم العروس إلى العلية. "إن عمك سلطان هو الشخص الذي تقدم لصلب يدك"، قال لها، "فهل توافقين؟".

ولم تنبس صونيا بيتت شمة. فبعيتين دامتین ورأس منخفض اعتبات وراء لقاعها الطويل.

"إن والسديك قد قبلا بالخاطب"، قال لما عمها. "وها هي الآن فرصتك الوحيدة كي تعبري عن رأيك".

لقد كانت ذاهلة عن نفسها، ومشلولة في خوفها. فهي لم تكن ترغب في هذا الرجل، لكنها كانت تعرف أنه لا بد لها من إطاعة أهلها. فكزوجة لسلطان، لا بد من أن مركزها الاجتماعي في المجتمع الأفغاني سوف يرتفع إلى درجة مرموقة. أما نقود العريس فسوف تساعد أهلها على شراء زوجات جيدات لأبناء هذه العائلة، الذين هم إخوانها.

لذلك فقد أمسكت صونيا لسانها، وبهذا فقد ختمت على مصيرها. فسكوت الفتاة في مجتمعهم يعتبر علامة الرضى. لذلك، فإن العقد قد أبرم، وتحدد موعد الزواج.

وذهب سلطان إلى منزله ليخبر العائلة بما بات لديه من أخبار. وكانت زوجته شريفة، وأمه، وأخواته يجلسن حول طبق كبير من الأرز والسبانخ وقد حسبت شريفة في بداية الأمر أن زوجها يمزح، فضحكت وأطلقت بعض النكات في وجهه مقابلة.

أما أمه فقد ضحكت أيضاً على نكته. فهي لم تكن تصدق أنه قد حصل به الأمور إلى درجة الإقدام على الزواج دون أن يأخذ مباركتها أولاً. أما الأخوات فقد كنّ مذهولات عاهسات. فلم تصدقه إحداهن إلا بعد أن عرض عليهن المنديل والحلوى التي قدمها أهل العروس للخاطب كبرهان على قبولهم وعلى انعقاد الخطوبة.

ولقد انتحبت شريفة لعشرين يوماً "ما الذي جنيته؟ ما هذه الفضيحة؟ ما الذي يجعلك لا تشعر بالاكتماء معي؟" لكن سلطان طلب منها أن تعلم نفسها. ولم يكن واحد من أفراد العائلة قد شذّ إزره، حتى أولاده أنفسهم. ومع كل ذلك لم يجرؤ أحد على الوقوف بوجهه؛ فهو دائماً ينفذ ما يبلو له من رأي.

لكن شريفة لم تكن تشعر بأي عزاء. والذي اعتمل في نفسها، وزاد في غضبها فعلاً، هو أن الرجل قد انتفى لنفسه زوجة ثانية أمية. فتاة لم تكن حتى قد تحضت صفوف الحصانة. أما هي، شريفة، فكانت معلمة مؤهلة لتدريس اللغة الفارسية. "ما هو الشيء الذي تراه فيها ولا تجده عندي؟" قالت له منتحبة.

لكن سلطان ارتفع فوق دموع زوجته.

ولم يكن أحد يرغب في حضور حفل الزواج. لكن شريفة كان عليها أن تعصَّ على جراحها وأن تتزيّن لحضور هذه الحفلة.

"أريد أن يرى كل شخص أنك توافقيني وتؤيديني. وفي المستقبل سوف نعيش تحت سقف واحد، وعليك أن تُظهري لصونيا أنها شخص مرحّب به"، قال لها أمراً. وكانت شريفة على الدوام قد ساءرت زوجها ولا طفت خواطره، وها هي الآن أيضاً، تفعل ذلك في أصعب الظروف التي تتطلب منها إهداءه إلى واحدة سواها، لكنها أذعنت وخضعت. كما أنه كان قد أصرَّ على أن تقوم شريفة نفسها بوضع الخواتم في أصابع صونيا.

وبعد مرور عشرين يوماً على الخطوبة، أخذت مراسم الزفاف الرسمية طريقها إلى التنفيذ. استجمعت شريفة نفسها خلف رجه شجاع. وقامت السوة من قريباًها بكل ما في وسعهن لاستثارة قلقها. "كم هو أمر رهيب بالنسبة إليك"، كنَّ يقلن لها. "يا للمعاملة السيئة التي يعاملك بها. لا بدّ من أنك تحترقين من الداخل".

وقد تمّ الزواج بعد انقضاء شهرين على الخطوبة، كان ذلك عشية رأس السنة المحجرية. ولكن في هذه المرة فقد رقصت شريفة الحضور بالمرّة.

"إنني لا أستطيع ذلك"، قالت لزوجها.

وقام كل أفراد الأسرة من النساء بمساندتها. فلم ترضَ واحدة
منهن ابتاع أي فستان جديد، أو وضع أي شيء من الحُسُون
(الماكياج) الذي يقتضي وضعه في مثل مناسبات الزواج هذه. واكتفت
كل واحدة منهن بتسريحة شعر بسيطة، وبحمل ابتسامة جامدة على
وجهها، وذلك احتراماً للزوجة المتقاعدة التي لن تشارك بعد الآن
سلطان فراشه. فقد بات هذا الفراش مقتصرًا على العروس الصغيرة
المرغوبة، لكن الجميع سيكونون تحت سقف واحد إلى أن يفرق الموت
بينهم.

احراق الكتب

وفي أصل يوم جلدي من تشرين الثاني/نوفمبر 1999 أشعلت نار في الهواء الطلق فوق مستديرة المرور في شارع الصدارات في كابول. ولقد تجمع أطفال الشوارع يرقصون حول اللهب الذي كان يلقي ظلالاً مترقصة خلعهم غير وجوههم القنرة. لقد لعب الأطفال لعبة الشجاعة؛ مَنْ الذي يمكنه الوصول إلى مسافة أقرب من النار؟ أما الكبار فكانوا يسترقون نظرة إلى النار ثم يسارعون في طريقهم. فلقد كانت هذه هي أسلم الطرائق في مثل هذه المواقف؛ لقد كان من الواضح أن تلك النار لم تكن لتوقد على قارعة الطريق من أجل أن يصطلي الناس بتارها ويتقدمون إلى تلذذة أيديهم. لقد كانت ناراً قد تم إيقادها تقريباً إلى الله تعالى.

لقد تجعد فستان الملكة ثريا والترى تحت لهيب النار لتحول صورته إلى رماد، مثلما حصل أيضاً لصورة ذراعها ناصعتي البياض ولوجهها الجميل الرصين. كما احترقت صورة زوجها أمان الله أيضاً، واحترقت صورة جميع نياشينه وميدالياته معه. لقد فرقت صور كل السلالة الملكية في النار معاً إلى جانب صور الفتيات في اندلبس الأفغانية، كما احترقت صور الجنود المجاهدين وهم ينون على صهوات الليل، كما احترقت صور المزارعين في بارار قدهار أيضاً.

لقد تابع البوليس الديني عمله بكل وجدان على الكتب الموجودة في مكتبة سلطان خان في ذلك الأصيل البارد من تشرين الثاني/نوفمبر. فأي كتاب يحتوي على أي صور لأشياء حية، سواء أكانت تعود لإنسان أو حيوان، كانت تنتزع عن الرفوف ليلقى بها في لمب النار. أوراق جعلها الزمان صفراء، وبطاقات بريدية بريدية، وغلافات كتب جافة تعود إلى كتب مرجعية قديمة ذهبت كلها أضحية تلحسها السنة النيران.

وبين الأطفال المتحلقين حول النار الموقدة، وقف الجنود المشاة التابعون للبوليس الديني، وهم يحملون الأسواط والخيزران الطويلة، ورشيشات الكلاشينكوف. فهؤلاء الجنود كانوا يعتبرون أن كل من أحب الصور أو الكتب، أو التماثيل والمنحوتات والموسيقى، أو الرقص، أو الأفلام، أو الفكر الحر هم مجرد أعداء للمجتمع.

أما اليوم فقد كان كل اهتمامهم منصباً على الصور فقط، أما النصوص المرطوقية، حتى تلك الماثلة على الرفوف أمام أعينهم فقد كان يُشاح النظر عنها في الوقت الحاضر. فالجنود كانوا من الأميين الذين لا يحسنون التمييز بين الكتب الخيفة العائدة إلى عقيدة الطالبان وبين سواها ممن كتب القيل والقال. لكنهم كانوا بالطبع يستطيعون التمييز بين الصور وبين الأحرف، وبين صور المخلوقات الحية وصور المخلوقات الجامدة.

وفي نهاية الأمر، لم يبقَ شيء سوى الرماد، ذرات رماد التقطتها الرياح لتذروها ذرو الغبار والأتربة في شوارع كابول وبجاريها. أما بائع الكتب الذي بدا متحسراً على كتبه الحبيبة، فلقد أوثق وتم حشره في مؤنسر سيارة حيث جلس جندي من طالبان إلى كل من جانبيه. وقد قام الجنود بإقفال المكتبة ووضع الاختام عليها، أما صاحب المكتبة (سلطان) فقد سبق إلى السجن بسبب سلوكه المعادي للإسلام.

"لحسن الحظ إن الجنود المسلحين من ذوي أنصاف الأدمغة لم يفتشوا لينظروا إلى الأشياء الموجودة خلف رفوف المكتبة"، قال سلطان لنفسه. بينما هو في طريقه إلى المعتقل. فإن الكتب التي هي محظورة حظراً كاملاً إنما كان قد قام بإخفائها بطريقة حاذقة بارعة. فقد كان لا يُخرج تلك الكتب من مخابها سوى عندما يقوم شخص ما بسؤاله عنها خصيصاً، وإلا بعد أن يكون قد وثق تمام الثقة أن السائل هو شخص يمكن الركون إلى طلبه.

وكان سلطان قد توقع حصول ما حصل. فلقد كان يبيع الكتب غير القانونية، والصور، والرسومات لسنوات طويلة. وكان الجنود في العادة يقومون بتهديده ويتزعون منه القليل من الكتب، ثم يتركوه لحاله. وكانت تصدر إليه التهديدات من أعلى السلطات، حتى، لقد تم استدعاؤه مرة إلى مقابلة وزير الثقافة، وذلك في مساعٍ من الحكومة لكسب ودّ بائع الكتب الجريء هذا، وتحميده إلى جاب قضية طالبان. ولقد قام سلطان بحان بكل ممنونية يبيع بعض منشورات طالبان. فلقد كان رجلاً حرّ التفكير، ومن المؤيدين لمبدأ: إن كل ذي رأي يجب أن يكون قادراً على إسماع رأيه. ولكن إلى جانب المادة على آرائهم الظلامية، فإنه أراد أن يبيع كتب التاريخ أيضاً، والمنشورات العلمية، والأعمال الإيديولوجية التي كتبت عن الإسلام، هذا عدا عن الروايات، ودواوين الشعر. لقد كانت طالبان تعتبر أن النقاش ضرب من النسيمة. كما تعتبر أن الشك يساوي الخطيئة. فكل شيء يتعدى دراسة القرآن لم يكن له من ضرورة، بل كان يعتبر عملاً خطيئياً. فعندما جاءت طالبان إلى السلطة في كابول في خريف العام 1996، كانت الوزارات قد أفرغت من الاختصاصيين ليحل محلهم الملاي. فمن البنك المركزي إلى الجامعات، أصبح الملاي يسيطرون على جميع الشؤون. وكان

هدفهم إعادة تكوين مجتمع يشبه ذلك الذي كان سائداً أيام النبي الكرم محمد (ص)، أيام كان يعيش في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي. فحقق عندما كانت طالبان تجلس للتفاوض مع شركات النفط الأجنبية، فإن الملاي الجهلة هم الذين كانوا يجلسون حول طاوولات المفاوضات. أنلس تنقصهم أي خبرة تقنية أو عملية.

وكان سلطان مقتنعاً أنه ونحت حكم طالبان، فإن البلاد سوف تزدهر فقراً على فقر، كما سترداد غماً وكآبة، وعزلة عن الدنيا. لقد قاومت السلطات جميع أوجه الحداثة؛ ولم تكن عند مسؤوليها أي رغبة لا في فهم أفكار التقدم والتطوير الاقتصادي، ولا في التكيف معها. فكانوا يبنون الجدل العلمي سواء أكان منشأه دول الغرب أم العالم الإسلامي. فكان خطابهم الرسمي قبل كل شيء يتضمن مجادلات عاطفية مثيرة للشفقة حول كيف ينبغي للناس أن يلبسوا، وكيف أن عليهم أن يغطوا أنفسهم، وكيف أنه يتوجب على الرجال مراعاة أوقات الصلاة، وكيف أنه يتوجب على النساء عدم مخالطة الرجال، وكيف يفصلن أنفسهن عن المجتمع. ولم يكن رجال طالبان راسخين في التاريخ الإسلامي أو في تاريخ أفغانستان، كما لم تكن لديهم رغبة في تلك الأمور أيضاً. وهكذا قبع سلطان محشوراً بين جندبي طالبان الأميين، لاعتناً بلده لأنه سمح لنفسه بأن يحكمه إما المحاربون وإما الملاي. لقد كان سلطان مؤمناً، لكنه كان مسلماً معتدلاً في عقيدته. وكان يصلي لله كل صلاة فجر، لكنه كان يتجاهل دعوات الصلاة الأربع التي تليها ما لم يقده البوليس الديني إلى أقرب مسجد مع سواء من الرجال الذين يقتادهم من الشوارع. وكان لا يراعي صيام رمضان إلا مكرهاً، ولم يكن يأكل من مشرق الشمس حتى مغربها، أقله عندما لا يكون أحد يراقبه. ولقد كان مخلصاً لزوجتيه. وقام بتربية أطفاله

تربية صارمة. وعلمهم أن يكونوا مسلمين جيدين تأخذهم الخشية من الله. ولم يكن ليحتقر أكثر من جماعة الطالبان، الذين كان يعتبرهم كهنة أميين جهلة؛ فلقد نشأوا في أكثر أصقاع البلد فقراً ومحاطة، وحيث كانت نسبة الأمية على أشدها.

لقد كان قسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المعروف باسم وزارة الفصيلة، هو الجهة التي تقف وراء اعتقاله. وخلال التحقيق معه في السجن كان سلطان يشغل بنمسيه لحيته. فلقد كان يشغها حسب المقتضيات الطالبانية، أي بطول قبضة الكف. كما كان يشغل بتسوية قميصه واسع الأردان الذي يتطابق مع المواصفات الطالبانية أيضاً، كما كان يلبس إهاباً يتدلّى إلى ما تحت الركبتين، وسراويل تصل إلى مستوى الكاحلين. وقد كان يجيب عن الأسئلة بكل اعتزاز، "إن باستطاعتكم أن تحرقوا كتبتي، وأن تكذبوا حياتي، وحتى أن تقتلوني، لكنكم لن تستطيعوا محو التاريخ الأفغاني".

* * *

لقد كانت الكتب كل حياة سلطان. منذ أن أعطي له الكتاب الأول في المدرسة، أسرت الكتب والقصص لبه. لقد ولد في وسط عائلة فقيرة، وكبر في حفة الخمسينيات في قرية من قرى ديه غودايداد خارج كابول. وما كانت أمه لتقرأ وتكتب ولا كان أبوه، لكنهما استطاعا توفير ما استطاعاه من النفود التي تكفي لإرساله إلى المدرسة. فكل ما أمكنهما توفيره كان ينفق عليه بصفته ابنتهما البكر، أما أخته التي ولدت قبله فلم تظاً قدماها المدرسة أبداً، وهذا فلما لم تتعلم لا القراءة ولا الكتابة. وهي الآن تكاد لا تستطيع أن تقرأ عقارب الساعة إلاّ بجهد جهيد. فبعد كل شيء فإن مصير البنت ليس سوى الزواج.

أما سلطان فكانت تنشئه العائلة نحو العظمة. وكانت عقبته الأولى هي طريق المدرسة. فلقد كان سلطان يرفض الذهاب إلى المدرسة لأنه لا يملك نعلين. لذلك فقد صنعت له أمه حشوتين يحشو قدميه فيهما. "بالطبع يمكنك الذهاب، الآن، فأنت تستطيع أن ترى ما صنعته لك" قالت له بعد أن ضربته ضربة خفيفة بين كتفيه. ولكنه سرعان ما صار يحس من النقود ما يكفيه لشراء زوج من الأحذية. إذ إنه كان يعمل أيضاً أثناء دراسته. ففي الصباح قبل أن تبدأ الدروس، وكذلك في المساء بعد الانصراف من المدرسة، وقبل أن يدركه الظلام، كان يعمل في إضرام النار في أتون لصنع الفخار ليحصل على بعض المال لعائلته. وبعد ذلك حصل على وظيفة في دكان. لقد صرّح لوالديه عن نصف قيمة راتبه فقط. وكان يوفر النصف الباقي لينفقه في شراء الكتب. ثم شرع في بيع الكتب منذ أن كان في عمر المراهقة. ثم قبل كطالب هندسة لكنه لم يستطع أن يؤمن لنفسه الكتب الدراسية المقررة المناسبة. وخلال رحلة له مع عمه إلى طهران صادف له أن وجد كل العناوين اللازمة له في إحدى أسواق الكتب العديدة في تلك المدينة. لذلك فإنه اشترى عدة مجموعات من الكتب التي قام ببيعها لاحقاً في كابول لزملائه من الطلبة بضعف ثمنها. وهكذا ولد بائع الكتب في نفسه؛ حتى شق لنفسه لاحقاً طريقاً خاصاً في الحياة.

ولقد شارك سلطان في بناء مبين فقط في مدينة كابول قبل أن يتزعه شغفه الجنوني بالكتب من عالم الهندسة. ومرة جديدة كانت أسواق الكتب في طهران هي من شدّه وأغراه. وهكذا فقد تجوّل الولد القادم من الريف بين الكتب في عاصمة بلاد فارس التي يحيط بها القمم والجديد، ويتداخل فيها التاريخ مع الحداثة، وكان يقع هناك على كتب لم يدر حتى بوجودها أصلاً. وهكذا، فقد اشترى الكرتونة بعد الأخرى

من دواوين الشعر الفارسي، وكتب الفن، وكتب التاريخ، وكذلك، ومن أجل مهنته، كان يشتري كتب الهندسة أيضاً.

وعندما رجع إلى كابول افتتح مكتبته الأولى بين تجار الأفاوية، وبين الأكشاك التي تباع الكتب في وسط العاصمة. كان ذلك في فترة السبعينيات حيث كان المجتمع ممرقاً بين الحداثة والتقاليد، فمحاولات ظاهر شاه الملك الليبرالي الذي يميل إلى الكسل، قد كانت محاولات للتحديث ليست شديدة الانتقاد بالحماسة، إلا أن تلك المحاولات على ضيق هامشها قد استارت موجة من النقد العنيف من جانب الفئات الدينية. كان ذلك عندما احتج عدد من الملالي ضد قيام النساء في العائلة المالكة بالتكشف في العلن وبالخروج من منازلهن دون وضع الحجاب، ولم يهدأ الأمر إلا بعد أن تم زج أولئك النسوة المخالفات في السجن.

ولقد ازداد عدد الجامعات ومؤسسات التعليم، مع ما أعقب ذلك من خروج التظاهرات العنانية. وهذه التظاهرات كانت بدورها قد لقيت قمعاً وحشياً على يد السلطات، الأمر الذي تسبب بقتل عديد من الطلبة. كما نبئت ورة من الأحزاب والجماعات السياسية - رغم أنه لم يُدعَ الناس إلى الانتخابات ولو مرة واحدة - وكانت هذه الأحزاب والجماعات تنوزع من الجناح اليساري الراديكالي إلى اليمين الدينائي الأصولي المتعصب. وقد احتربت هذه الجماعات بعضها مع البعض الآخر، فانتشر في البلاد جو عاصف غير مستقر. أما الاقتصاد فقد واجه ركوداً لثلاث سنوات متتابة كما جاء الجفاف، وخلال مجاعة مأساوية كانت قد ضربت البلاد عام 1973، وبينما كان الملك ظاهر شاه موجوداً خارج البلاد لاستشارة طبيب في إيطاليا، فإن ابن عمه داود انتزع السلطة بعد انقلاب عسكري أطاح بالحكم الملكي.

لكن نظام داود كان أشد قسوة وقمعاً من نظام ابن عمه. لكن مكتبة سلطان انتعشت، فلقد كان يبيع الكتب والدوريات التي تنشرها مختلف الجماعات السياسية من الماركسية حتى الأصولية الدينية. وكان يعيش في منزله في القرية مع أهله ويفقد دراجته الهوائية إلى كشك الكتب العائد إليه في كابول مع كل صباح، ثم يعود أدراجه إلى بيته في المساء. كانت المشكلة الوحيدة التي تنغصه هي لجاجة والدته التي لا يسقط لساعها عن حثه على الزواج. وكانت لا تكف عن لفت نظره إلى مرشحات حديدات من ابنة عم هنا إلى ابنة للبحران هناك. لكن سلطان لم يكن بعد مستعداً للشروع في تأسيس عائلة، فلقد كان لديه عديد من الكاوي فوق النار، وهو لم يكن في عجلة من أمره. فلقد أراد أن يحتفظ لنفسه بحرية السفر حيث كان في العادة يقوم بزيارات إلى طهران، وطشقند، وموسكو. وفي موسكو هناك كان له حبيبة قلب روسية تدعى لودميلا.

وقبل أشهر قليلة من غزو السوفييات للبلاد عام 1979، كان قد ارتكب خطأه الأول. فلقد كان القائد الشيوعي العنيد نور محمد ترقى قد استطاع أن يستأثر بحكم البلاد. وهكذا فإن الأسرة الرئاسية بأكملها، كان قد حكم عليها بالموت ابتداء من داود، نزولاً حتى أصغر طفل في العائلة، لقد قتلوا جميعاً في انقلاب عسكري. وقد ضاقت السجون بعشرات الألوف من الأخصام السياسيين الذين تم اعتقالهم وتعذيبهم وإعدامهم.

لقد أراد الشيوعيون أن يشددوا قبضتهم على البلد بكامله، كما حاولوا سحق الجماعات الإسلامية. لذلك فقد لحض المحاربون الشفاعة، أي المجاهدون، إلى حمل السلاح ضد هذا النظام، فنشأ عن ذلك نزاع ما لبث أن تحول في وقت لاحق إلى حرب فدائية لا رحمة فيها ضد الاتحاد السوفياتي.

ولقد كان المجاهدون يمثلون فيضاً من الإيديولوجيات والميول الدينية. وهكذا فإن هذه الفئات المختلفة ما لبثت أن قامت بنشر الدوريات التي تدعم فكرة الجهاد - أي القتال ضد النظام الجاهلي الوثني الملحد - كما تدعو إلى حكم البلاد حكماً إسلامياً. ومن جهة فقد قام النظام بتشديد قبضته على كل شخص يشتبه بأنه متحالف مع المجاهدين، وكان من الموعوع معاً بأن القيام بطباعة نشراتهم الإيديولوجية أو توزيعها. وكان سلطان يقوم بنشر دوريات المجاهدين وبيعها حباً إلى حسب مع الشرائع الشيوعية. أكثر من ذلك، فإنه قد بدأ يعاني من هوس جمع المطبوعات والكتب ولم يكن يستطيع مقاومة شراء مجموعة قليلة من نسخ كل كتاب أو دورية تصادفه في طريقه، وكل ذلك من أجل بيعها من جديد مقابل بعض الأرباح. وكان رأي سلطان ينطوي على أنه يحجر على تدمير أي نشرة أو كتاب يطليه منه أي كان. وكان يقوم بإخفاء المنشورات الممنوعة تحت طاولته.

ولم يقتضي الأمر زمناً طويلاً حتى وشى به أحدهم. فلقد تم إلقاء القبض على زبون كان في حيازته كتب ممنوعة اشتراها من سلطان. وقد كشفت مداومة قام بها البوليس عن وجود العديد من المنشورات غير القانونية في حوزة سلطان. وبذلك أقيمت محرقة الكتب الأولى. كما أخذ سلطان وتعرض لصنوف من الضرب والإهانة قبل أن يثبته ويحكم عليه بالسجن لمدة سنة. ولقد صرف سلطان ذلك الوقت كله في قسم المعتقلين السياسيين، حيث كانت الكتب ومواد الكتابة ممنوعة ومحظورة. فكان عليه أن يقضي الشهر تلو الآخر عذفاً إلى الجدران. لكنه أخيراً نجح في رشوة أحد الحراس بفتح الطعام التي كانت قد أرسلتها إليه أمه، وبذلك بدأت الكتب قرَّب إليه في كل أسبوع. وفي داخل الجدران الصخرية الباردة الرطبة تمت اهتمامات سلطان بالتاريخ

الأفغاني والحضارة الأفغانية. كما كان يذهل عن نفسه في الأشعار الفارسية، وفي الماضي الدراماتيكي لبلده. وعندما سُمح له بالخروج من السجن، فإنه كان قد صار وثقاً بشكل أكيد من الأرضية الثقافية التي يقف عليها: لقد أراد أن يحارب من أجل ترقية المعرفة حول الثقافة الأفغانية، وحول التاريخ الأفغاني. لذلك فإنه استمر في بيع المنشورات غير القانونية الصادرة عن كل من الحركات القدائية الإسلامية، ومن المعارضة الشيوعية المتعاطفة مع الصين، لكنه صار في تعامله أكثر حيطة وحنراً من ذي قبل.

وقد أنهت السلطات عيونها عليه لمدة خمس سنوات قبل أن تعتقله مرة جديدة. وخلال هذه المرة أيضاً أعطيت له فرصة جديدة كي يتأمل في الفلسفة الفارسية داخل جدران السجن، ولكن هذه المرة كانت قد أضيفت تهمة جديدة إلى التهمة التي كانت موجهة إليه في السابق: إذ لقد وُسِّمَ هذه المرة بأنه برجوازي صغير، من أبناء الطبقة الوسطى، وهذه في القاموس الشيوعي هي أشنع أشكال التحقير. وأما التهمة فهي السعي لكسب النقود حسب النموذج الرأسمالي.

حدث كل هذا خلال فترة كان النظام الأفغاني الشيوعي، تحت وطأة المعاناة التي تسببت بها الحرب للناس، يحاول تصفية المجتمع القبلي في أفغانستان لتحلّ محله الشيوعية "السعيدة". فالحاولات لتجميع للزارع قد قادت إلى شقاقت قاسية بين السكان. وكثير من المزارعين الفقراء رفضوا قبول الأرض التي كان قد تمّ شرائها قهراً من ملاكيها العقارين الأثرياء، حيث إنهم كانوا يعتبرون أن الإسلام يمنعهم من الحراثة في أراضٍ منهوبة. وهكذا هُض الريف كله في حركة احتجاجية، وكسان من نتائج ذلك أن الخطط الشيوعية قلما لاقت أي نجاح. ومع الوقت أذعنّت السلطات واستسلمت. فقد استنزفت الحرب قوة

الجميع وبعد عشر سنوات من استمرارها كانت قد أرهقت حياة مليون ونصف المليون من أبناء الشعب الأفغاني.

وعندما أخرج هذا الرجوازي الصغير من السجن كان قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره. وكانت الحرب ضد الاتحاد السوفياتي تخاض على وجه العموم في الأرياف، أما كابول العاصمة فكانت قد بقيت على حالها سالمة بطريقة أو بأخرى. وقد كان الكدح اليومي في سبيل الحياة هو الشغل الشاغل لأهلها. وفي هذا الوقت نجحت والدته في إقناعه بفكرة الزواج. وكانت قد قلّمت له شريفة، وهي ابنة أحد الجنرالات، إلى جانب كونها فتاة جميلة وذكية. ولقد تزوجا وأنجبا ثلاثة أبناء وابنة واحدة، بمعدل طفل واحد كل سنتين.

وانسحبت القوات السوفياتية من أفغانستان في العام 1989، وتطلع السكان نحو استتباب السلام في نهاية هذا المطاف. ولكن بما أن نظام الحكم في كابول قد استمر في الاستعانة بالسوفييات، فإن المجاهدين رفضوا إلقاء أسلحتهم. ثم إنهم ما لبثوا أن سيطروا على كابول في شهر أيار/مايو من العام 1992، وبذلك انفجر أتون الحرب الأهلية. والشقة التي كانت العائلة قد اشترتها سابقاً في مجمع للأبنية بناء السوفييات، كانت تقع على محط النار تماماً، بين الفئات المتحاربة. وهكذا احترقت الصواريخ الجمدان، وحطّم الرصاص زجاج الشبايك، وعاثت الدبابات في أرض الحدائق. وبعد أن انتجحت العائلة إلى الطوابق الأرضية لمدة أسبوع، فإن وابل القذائف كان قد هدا مرة لبطع ساعات، الأمر الذي سمح لسلطان بأن ينقذ نفسه وينقذ أفراد أسرته بالسفر إلى باكستان.

وعندما كان في باكستان، فإن دكان كتبه تعرّض للنهب، الأمر نفسه الذي حصل للمكتبة العمومية. وهكذا ذهبت كتب باللغة القيمة

إلى بعض جامعي الكتب في مقابل أغنية. أو ألما كانت قد تمت مبادلتها بالدرجات والرتب، والقذائف. حتى إن سلطان نفسه كان قد ابتاع بعضاً من هذه الكتب المسروقة من المكتبة العمومية عندما عاد من باكستان لتفقد مكتبته. لقد تمكن من عقد بعض الصفقات الرائجة جداً. ففي مقابل حصة من الدولارات تمكن من شراء مئات من الكتب القديمة وكان بينها مخطوطة يعود تاريخها إلى خمسة مئة سنة مأخوذة من أوزبكستان وقد دفعت له الحكومة الأوزبكستانية مبلغاً قدره خمسة وعشرون ألف دولار أميركي ثمناً لها. كما أنه كان قد عثر على نسخة شخصية تعود إلى زاهر شاه عن كتابه المفضل الذي هو العمل الملحمي الشعري الكبير للشاعر الفردوسي تحت عنوان "شاهناما"، كما أنه كان قد اشترى العديد من الكتب بسعر التراب من سارقها الذين لم يكونوا قادرين حتى على قراءة عناوينها.

وبعد ما يقارب الخمس سنوات من الحرب الطاحنة بين المهاددين وبين زعماء الحرب، كانت نصف أبنية كابول قد تحولت إلى ركام، كما أزهقت أرواح خمسين ألف من سكانها. وعندما استفاق سكان كابول في صباح السابع والعشرين من أيلول/سبتمبر 1996 كانت المدينة هادئة تماماً. ففي المساء الذي سبق ذلك الصباح كان القائد الأسطوري للمجاهدين أحمد شاه مسعود وجيشه قد هربوا من العاصمة في اتجاه وادي بانشير.

وكان هنالك جسدان مشنوقان يتدليان من عمود خارج باحة القصر الرئاسي. كانت اللجنة الكبيرة مختفئة بالدماء من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين. وكان صاحب اللجنة قد تعرض للإخضاء، أما أنامله فقد سُحقت وأما جذعه ووجهه فقد أصابهما التهشيم، وكان لمة ثقب رصاصية في مقدمة الرأس. أما اللجنة الأخرى فقد اكتفى بإطلاق النار

عليها وتعليقها، وأما حيوب الحثتين، فقد كانت محشوة بالنقود الأفغانية المحلية كإشارة للازدراء والاحتقار. ولم يكن الجسدان سوى جسدي الرئيس السابق محمد نجيب الله، وأخيه. لقد كان نجيب الله رجلاً مكروهاً. فلقد كان رئيساً للبوليس السري إبان العزو السوفياتي، ويقال إنه كان قد أمر بإعدام ثمانية آلاف شخص من الذين كانوا قد أطلق عليهم لقب أعداء الشعب. ولقد كان رئيساً للبلاد بين العامين 1986-1992 وكان يلقي تأييد الروس أثناء حكمه. وبعد أن قام المجاهدون بانقلابهم صار مسعود وزيراً للدفاع، وصار صفة الله مجاهدي رئيساً، وذلك خلال الثلاثة أشهر الأولى، ليحل محله برهان الدين رباني. وقد التمس نجيب الله اللجوء من هيئة الأمم المتحدة بعد محاولة له للهروب عبر مطار كابول، كانت قد أحبطت فبقي هناك بعد ذلك في معتقل في مجمع تابع للأمم المتحدة في كابول.

وعندما شق الطالبان طريقهم خلال المناطق الشرقية من كابول وقررت حكومة المجاهدين الحرب، فإن مسعود قام بدعوة هذا الأسير البارز إلى مرافقة قوات المجاهدين وقد خاف نجيب الله على حياته خارج العاصمة وقرر البقاء متخلفاً مع الحراس الأمنيين الذين يقومون على حراسة المبنى التابع للأمم المتحدة. إلى جانب أنه، وبكونه من قبيلة الباشتون، فقد فكر أنه قد يستطيع التفاوض مع الطالبان الباشتون. وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي اختفى جميع الحراس، وعفقت الأعلام البيضاء - وهو اللون المقدس عند الطالبان - فوق المساجد.

وتجمع سكان كابول في غير تصديق حول العمود القائم في ساحة أريانا. كانوا يحدقون إلى الرجلين المعلقين هناك ثم يحدقون مهدوء إلى مساكنهم. لقد انتهت الحرب لكن حرباً جديدة سوف تبدأ حرباً سوف تدوس كل بارقة للفرج تحت المعال.

لقد فرضت قوات الطالبان القانون والنظام، لكنها في الوقت نفسه وجهت الضربة القاضية إلى الأفغان وإلى الثقافة الأفغانية. لقد أحرق النظام الجديد كتب سلطان ثم تحول رجال هذا النظام إلى المتحف في كابول وهم يحملون الفلوس ويحرون معهم كشاهد وزير ثقافتهم ذاته.

ولم يكن قد بقي الكثير من أشياء المتحف عند وصولهم إليه. فكل الأشياء المنفصلة كانت قد لحبت خلال الحرب الأهلية: قطعُ خزفية تعود إلى الزمن الذي تمكن فيه الإسكندر المقدوني الكبير من قهر البلاد، سيوف قد تكون شهدت المعارك التي دارت ضد جنكيز خان وحفائله المغولية، منمنمات فارسية وقطع نقود ذهبية، وكان جامعو تحف يجهولون من مختلف أقطار العالم قد تمكنوا من ابتياع معظم هذه التحف الأثرية المنهوبة. وقليلة هي التحف التي خلّفتها الإنسان كانت قد بقيت هناك قبل أن يصبح النهب حامياً. وكانت تماثيل قليلة ضخمة للملوك والأمراء الأفغان لا تزال منتصبة هناك. كما كان هنالك تماثيل وجداريات لبوذا يرجع تاريخها إلى ألف سنة. وقد شرع جنود المشاة في عملهم مظهرين الحمية نفسها التي كانوا قد أظهروها أثناء تدميرهم لمتجر الكتب المعاند إلى سلطان. لقد بكى حراس المتحف عندما شرع رجال الطالبان في تخطيم ما تبقى هنالك من فنون.

لقد قاموا بحرق التماثيل بالبلطات والفلوس حتى لم يبقَ منها سوى القواعد، وذلك في وسط كومة من الغبار والطين والكتل الحجرية. لقد استغرق الأمر منهم نصف غار فقط لتدمير تاريخ يمتد إلى ألف سنة. وكل ما تبقى بعد انتهاء موجة التخريب هذه اقتصر على لوحة شرقية تحمل اقتباساً من القرآن الكريم، اعتقد وزير الثقافة أنه من الأفضل أن تترك وحدها دون تدمير.

وعندما انصرف متغلبو حكم الإعدام بالفن الأفغاني، من رجال طالبان، فإن مبنى المتحف الذي رجم بالقذائف، ما لبث أن تحول في وقت لاحق إلى نخط جبهة أثناء الحرب الأهلية. فإن الحراس قد تركوا واقفين بين الأنقاض، وقد قام هؤلاء بمجهود جهيد لجمع الأجزاء وكنس الغبار. كما قاموا بوضع الأجزاء في صناديق كتبوا إشارات عليها. وكانت بعض القطع الأثرية التي بقيت قابلة للتمييز عن سواها: فلرا ع تمثال من هاء وقطعة شعر مواجهة من تمثال آخر هناك. لقد أودعت تلك الصناديق في قبو المتحف على أمل أن هذه التماثيل يمكن أن تستعاد وأن ترمم في وقت لاحق.

وقبل ستة أشهر من سقوط نظام طالبان، كان قد تم نسف تماثيل بوذا العملاقة في باميان. وكان عمر هذه التماثيل يقارب الألفي سنة، وهي من أعظم ميراث الثقافة الأفغانية. لقد كانت نسفية الديناميت من القرة بحيث إنه لم يبقَ هناك أي قطع حطام يمكن جمعها.

* * *

وعلى خلفية هذا النظام، حاول سلطان أن ينقذ أجزاء من الثقافة الأفغانية. فبعد محرق الكتب عند مستديرة المرور، قام برشوة أحدهم لإخراجه من السجن، وقام في اليوم ذاته بكسر خاتم الشمع الذي أقفل بموجه محله التجاري لبيع الكتب. وفيما هو واقف بين أنقاض كنزه، بكسى سلطان وقام برسم خطوط سوداء كبيرة وخريشات فوق صور المخلوقات الحية الواردة في الكتب التي غفل عنها الجنود. كان ذلك أفضل من التسبب بترك هذه الكتب لتذهب طعماً للنيران. ثم إنه فكر بفكرة قد تكون أفضل من الأولى إذ إنه قام بالصاق بطاقات الزيارة العائدة إليه جاعلاً منها أغصية لتلك الصور. وهذا تمكن من تغطية الصور بطريقة يسهل عليه فيها إزالة تلك الأغصية. وفي الوقت نفسه

فإنه قام بوضع عتمة الخاص على هذه الأعمال. فقد أصبح إزالة هذه البطاقات عن وجه الصور في يوم من الأيام أمراً ممكناً.

وهكذا تحول النظام بشكل لا يلبث إلى وضع أشد قسوة مما سلف. ومع مرور السنين زاد هذا النظام التصاقاً وتصلباً بالخط البيورقراطي المتشدد وبهدفه الرامي إلى جعل الحياة أكثر فأكثر التصاقاً مع قواعد الحياة التي كانت سائدة في عصر النبي محمد (ص). ومرة جديدة قام وزير الثقافة باستدعاء سلطان. "إن أحدهم موجود في الخارج لإلقاء القبض عليك"، قال له "وإنني لست قادراً على حمايتك".

كان ذلك عندما قرّر سلطان في صيف العام 2001 أن يغادر البلاد. قام بالتقدم للحصول على تأشيرة دخول لنفسه ولزوجته ولأبنته ولابنته، وذلك من أجل الاستقرار في كندا. وكانت زوجته وأطفاله في ذلك الوقت يعيشون في باكستان ويعافون الحياة كلاجئين. لكن سلطان كان يعرف أنه لا يستطيع أن يتغلب على كعبه. فهو الآن يملك ثلاث مكاتب في كابول. إحدى هذه المكاتب يديرها أخوه الأصغر، وأخرى يديرها ولده منصور البالغ السادسة عشرة من عمره، أما الثالثة فكان يديرها بنفسه.

ولم يكن معرض فوق الرفوف سوى معشار معشار الكتب التي هي في حوزته. أما أغلبية الكتب وهي تناهز العشرة آلاف، فقد كان يخفيها عن الأعين في العليات في مختلف أنحاء كابول. فلم يكن يوسعه أن يسمح بمجموعة الكتب التي أنفق ثلاثين سنة من عمره في تجميعها بسان تذهب هدرًا. وهو لا يستطيع أن يسمح لطلاب أو لسواها من الطغاة بأن يدمروا المزيد من الروح الأفغانية. ومع ذلك فقد كان لديه خطة سرية، بل حلم يحلم به بخصوص هذه المجموعة. فعندما رحلت حكومة الطالبان، وعادت حكومة جديدة إلى أفغانستان يمكن للمرء أن

يثق بها، فإنه وعد نفسه أن يقوم بمنح هذه المجموعة الكاملة من الكتب إلى المكتبة العامة في العاصمة التي كانت قد تعرضت سابقاً للتخريب والنهب، حيث كان مرة فيها الآلاف من الكتب التي تزين رفوف جدرانها.

وبفضل من تعرض سلطان وعائلته للتهديد بالقتل، فقد منحت لهم تأشيرة للدخول إلى كندا. لكنه لم يذهب إلى هناك أبداً. فبينما كانت زوجته تعدان الحقالب لرحيل، فإنه كان لا يفك بخطر جميع صنوف الأعداء لتأخير السفر، فهو إما أن يكون بانتظار وصول بعض الكتب، وإما أن تكون للمكتبة مهتدة بالخطر، وإما أن يموت أحد أقاربه. إذ كان دائماً يستطيع أن يجد شيئاً ما يعرض طريق هذه المعجزة.

ثم جاء الحادي عشر من أيلول/سبتمبر عندما بدأت القذائف تهطل فوق أفغانستان، وعندها ارتحل سلطان إلى باكستان ومن هناك أمر بونس، أحد إخوته الصغار غير المتزوجين بأن يتخلف عنهم ويتقي في كابول من أجل رعاية شؤون المكتبات.

وعندما سقط نظام طالبان بعد شهرين من حصول المحرم الإرهابي على الولايات المتحدة، فإن سلطان كان أحد أوائل الذين عادوا من جديد إلى كابول. وأخيراً لقد صار في وسعه أن يملأ رفوف مكتبته بجميع صنوف الكتب التي يرغب بها. فمن كتب التاريخ التي صار عليها خطوط سوداء وخربشات، والتي صار بإمكانه الآن أن يسيحها إلى الأجناب ككتب تنمير الفصول؛ إلى الكتب التي صار الآن قادراً على إزالة بطاقات الزيارة الملصقة فوق الصور التي تحملها للمخلوقات الحية. كما صار بإمكانه مرة أخرى أن يعرض صور الملكة ثرياً بما تظهره من أذرع بيضاء كما يستطيع أن يعرض صور صدر الملك أمان الله، الذي تزويه النياشين.

وفي صباح أحد الأيام كان سلطان في مكتبته يرتشف فنجاناً من
الشاي الساخن ويراقب بقطة مدينة كابول من رقادها. عندما قام
بوضع سطرته حول كيفية تحقيق حلمه، فكّر في مقطوعة شعرية مأخوذة
من شاعره المفضل الفردوسي تقول ما معناه:

"ومن أجل أن تعيش

ينبغي عليك

أن تكون

في بعض الأحيان ذليلاً

وأن تكون شاة

في بعضها الآخر".

الجريمة والعقاب

ومن جميع الجهات جاءت الحجارة تزلزل أرض البحر العمود الذي
أوتقت إليه المرأة، وكان معظمها موجهاً... ومع أن المرأة أبت
أن تنكسر، لكن هتافاً ارتفع فجأة من الجمهور إذ إن رجلاً قوياً
كان قد وجد حجراً مناسباً بشكل خاص، حجراً كبيراً ومستقلاً،
ثم قام بقلعه بقوة، مسنداً أياه بعناية إلى جسدها ولرطم ذلك
الحجر بعنف شديد يبطنها بحيث إنه أسال أول دم في تلك
الأصيل من تحت ثوبها. ولقد كان ذلك الحجر هو الذي
استدعى ابتهاج الجمهور... ثم جاء حجر آخر من فلبس مماثل
ليصطدم بكتف المرأة وهو أيضاً جنب الدم والهتاف معاً.
جايمس أ. ميشنير، القوافل

وكانت شريفة الزوجة المحالة على التقاعد، تنتظر في يشارور. ولم
تكن لتتوقع طعم السلام. وهي تعرف أن سلطان سوف يعود إليها في
يوم من هذه الأيام، لكنه لم يكلف نفسه مرة أمر إعلامها بالاضبط متى
سيغادر كابول، وهكذا، فإن شريفة صارت تتوقع حضوره في كل
ساعة، لأيام لا تنتهي. فكل وجبة طعام تحضر، كانت شريفة تقوم
بتحضيرها على أساس أن سلطان سيظهر فجأة ليشارك في تناولها؛ فمن
فسروج دجاج سمين، إلى وجبة السبانخ التي يحب الإقبال عليها، إلى

الشورية الخضراء الحارة البيئية. أما السرير فلم تفارقه المفارش النظيفة المكونة حديثاً، وأما الرسائل، فمتضلة بالترتيب في صندوقها. وتمرّ الساعات، ففروج الدجاج ملفوف، والسيانخ يمكن إعادة تسخينها، والصلصة الحارة أعيدت إلى الدرج. وشريحة تكس الأرض وتنظف السجاد وتشغل نفسها بنفض القبار، تلك المهمة التي ينقضي الزمان ولا تنقضي، ثم تجلس، تنهد وتذرف دموعاً قليلات. إذ ليست المسألة لتقتصر على كونها تفتقده. لكنها تفتقد أيضاً تلك الحياة التي كانت لها كزوجة لبائع كتب مشهور، له احترامه واعتباره، وهي أم أبنائه وابنته، المكرسة.

وهي في بعض الأحيان تكرهه لأنه قد دمر حياتها، وأبعد عنها أطفالها وتسبب لها بالخل والحنينة في أعين العالم أجمع. لقد مرت ثماني عشرة سنة منذ أن تزوجت شريفة من سلطان، كما مرت ستان على زواجه من زوجته الثانية. وها هي شريفة تعيش حياة امرأة مطلقة، لكن دون أن تكون لها الحرية الممنوحة للنساء المطلقات. فسلطان لا يزال بعلمها. وهو قد قرر أن عليها المكوث في باكستان من أجل أن تراعي المنزل الذي ينبغي فيه أغلى ما عنده من كتب. وهنا يوجد كومبيوتر وهاتف. ومن هذا العنوان يستطيع سلطان أن يرسل طرود الكتب إلى زبائنه، وأن يتلقى منهم الرسائل الإلكترونية؛ وكل شيء من هذه الأشياء لا يتوفر له في كابل حيث البريد والهاتف وأجهزة الكومبيوتر كلها معطلة ولا تعمل. وها هي تعيش في باكستان لأن هذا يناسب سلطان أكثر من سواء. كما أن الطلاق ليس احتمالاً مطروحاً. فإذا أقدمت امرأة على طلب الطلاق فإنها في الحقيقة تخسر جميع حقوقها وامتيازاتها. فالأطفال يذهبون في حصة والدهم، الذي قد يستطيع حتى منعها من مشاهدتهم. وهي سوف تكون نكبة على

عائلتها، فهي في العادة تكون منبوذة منهم، كما أن جميع الثروة الزوجية تبقى مع الزوج. ويقتضي علي شريعة أن تنتقل للعيش في منزل أحد إخواتها.

* * *

وبحلال الحرب الأهلية التي اشتعلت في بداية التسعينيات، ولعدة سنوات تحت حكم الطالبان، فإن العائلة بكاملها قد عاشت في بيشاور (باكستان) في مقاطعة تدعى حياة آباد، حيث تسعة من بين كل عشرة أنفار من سكانها هم من الأفغان. لكنهم عادوا واحداً تلو الآخر إلى كابول، نعمن الإخوة، إلى الأخوات، إلى سلطان، إلى صوب، إلى الأبناء: الابن مصور أولاً البالغ من العمر ستة عشر عاماً، ثم إيمان الولد البالغ الثانية عشرة من عمره. وأخيراً إقبال، الذي هو في الرابعة عشرة من عمره. ولم يبق سوى شريفة وأصغر أولادها، ابنتها شابهام، وهما الوحيدتان اللتان تحلفتا عن العائلة ببقائهما في باكستان. وقد بقيت المرأتان تعيشان على أمل أن يعيدهما سلطان إلى كابول، إلى العائلة والأصدقاء وهو لا يملك عن قلع الوعود لهما، إلا أن طارئاً يطرأ على السوام ويقطع عليهما طريق العودة. فالبقيت الآيل إلى السقوط في بيشاور، الذي كان بمثابة ملجأ مؤقت ضد الرصاص والقذائف المنهمرة في كابول، قد استحال الآن إلى سجن لها. إذ إنما لا تستطيع مغادرته دون إذن من زوجها.

وفي السنة الأولى التي أعقبت زواج سلطان الثاني، كانت شريفة تعيش مع ومع الزوجة الجديدة. وفي نظر شريفة، لم تكن صونيا مجرد فتاة غبية فقط، بل كسولة أيضاً. وربما إنما لم تكن كسولة بالفعل، لكن سلطان لم يكن يدعها تحرك إصبعاً. فشريفة هي التي تطبخ، وهي التي تقوم على خدمة العائلة، وهي التي تفعل، وهي التي تقوم بترتيب

الأسرة، وفي بداية الأمر كان سلطان يُقفل الباب على نفسه وعلى صونيا في غرفة النوم لعدة أيام فلا يفتح الباب إلا لماً لطلب الشاي أو الماء. وكانت شريفة تسمع المسمات والضحك المتمازج مع الأصوات التي تقطع أوصافها في الصميم.

لقد ابتلعت شريفة كبرياءها وظهرت بمظهر الزوجة النموجية. وكان أقاربها وصديقاتها يرشحوها لنيل الجائزة الكبرى في مباراة الزوجات الوفيات. فلم يسمع أحد منها شكوى في أي يوم، ولا شاهداً أحد تقوم بمخاصمة صونيا، أو تغتابها أو تفضح عنها سراً.

وعندما انقضى شهر العسل، وغادر سلطان غرفة النوم للاهتمام برزقه، أُلقيت كل من المرأتين إلى صحبة الأخرى. وكانت صونيا تقوم بتزيين وجهها وبتهريب فساتينها الجديدة. أما شريفة فكانت تحاول أن تتصرف كالدجاجة الأم الراعية لبقية الفراخ. إذ لقد احتفظت لنفسها بأصعب الأعمال اليومية وقامت شيئاً فشيئاً بتعليم صونيا كيف تظهر الأطباء المفضلة عند سلطان، كما يئنت لها كيف يجب أن يكون ترتيب ثيابه، وما هي درجة حرارة الماء الذي يجب أن يختسل به، وسوى ذلك من التفاصيل التي ينبغي للزوجة أن تعرفها عن زوجها.

ولكن بما للعار فإنه ورغم أنه ليس من غير المعتاد للرجل أن يتزوج من زوجة ثانية، وأحياناً ثالثة، فإن هذا الأمر يبقى مع كل ذلك مذبلاً. فالزوجة التي تُعامل بالإهمال لا بد لها من أن توصم دائماً بأنها زوجة غير نافعة ولا تقوم بالمقام. وفي كل حال، فإن هذا الشعور هو الذي كان يتأب شريفة لأن سلطان كان يفضل زوجته الثانية عليها في كل وضوح.

وكان من الضروري لشريفة أن تمر ظهور هذه الزوجة الثانية في حياة زوجها سلطان. كان عليها أن تخترع علراً يكون من شأنه أن

يُقنع الناس أنها لم تكن هي المسؤولة عن ذلك، بل إن المسؤول هو ظروف عارجية أدت إلى خلعها عن حرشها.

فلكل من يرغب في الإصغاء إليها، كانت تتظاهر بأنها تفشي سرّاً بأن ورمّاً كان قد نما في رحمها، وأنه قد أزيل، لكن الطبيب قد قام بتحذيرها أنها إذا كانت تريد البقاء على قيد الحياة فعلاً، فإنها يجب أن تمتنع عن مضاجعة زوجها. وأنها هي شريفة، كانت قد طلبت من زوجها أن يفتش له عن زوجة جديدة، بل إنها هي التي قامت باختيار صونيا له. فبعد كل شيء إنه رجل، وله حاجاته. هذا ما كانت تقوله.

ففي تصور شريفة كان هذا للمرض الوهمي أقل مدعاة للعار من الحقيقة التي تقول إنها هي، أم أولاده لم تعد تلبي حاجاته وتقوم بمقامه. فبعد كل شيء إنه لم يفعل أي شيء سوى اتباع نصائح الطبيب.

وعندما كانت شريفة تريد أن تبالغ في روايتها، فإنها كانت تروي بعينين مشرقيتين كم أنها تحب صونيا مثل شقيقة لها، وكيف أنها تحب طفلتها لطيفة وكأنها ابنتها هي بالذات.

وبالمقارنة مع سلطان، فإن الرجال الذين يتزوجون أكثر من امرأة واحدة كانوا في العادة يحافظون على توازن في علاقتهم مع نسايتهم، فإذا قضى الرجل ليلته مع زوجته الأولى قضى الأخرى مع زوجته الثانية، وذلك لمدة عقود من السنين. والزوجات يلدن الأطفال لينشأوا معاً كالإخوة الأشقاء تماماً. وتراقب الأمهات تعامل الأب مع أطفاله بعيني الباشق؛ بحيث تضمن ألا يتم تفضيل طفل على سواه. كذلك فإن النساء يحاولن التأكد من أن الواحدة منهن تحصل على نصيبها العادل من الملابس والهدايا مثل المرأة الأخرى. والعديد من هؤلاء الزوجات تكره الواحدة منهن الأخرى كرهاً عميقاً دون أن تفصح عن ذلك. أما

نسوة أخريات فيقبلن الواقع القاتل بأن هنا حق من حقوق الزوج في أن تكون له عدة زوجات، وبذلك يتصلحن ويكنّ صديقات على شيء من الود. فبعد كل شيء غالباً ما تكون الزوجة المنافسة قد دُفعت إلى القبول بالزوج دفْعاً بعد أن رتب أهلها مثل هذا الزواج بخلاف إرادتها. إذ إن قليلاً من الفتيات هن اللواتي يحملن بالاقتران من رجل متزوج أصلاً لتصبح الواحدة منهن زوجة ثانية لزوج متقدم في السن. فبينما تكون الزوجة الأولى قد استمتعت بشبابه، فإن الزوجة الثانية لا تحظى سوى بشيخوخته. وفي بعض الحالات يصبح وجود الرجل غير مرغوب به في فراش كل من الزوجتين في كل ليلة وتكون كل واحدة منهما مسرورة إذا أُركت في حالها.

* * *

أما عينا شريفة الجميلتان العسلتان اللتان قال عنهما سلطان يوماً أنهما أجمل عيين في كابل بأسرها، فهما الآن تحدقان إلى الفراغ. لقد عسرتا بريقهما، وصارتا عاظتين بمخفين ثقيلين، وتشبههما أعداد من خفيفة. وهي تغطي في كل حكمة جلدها المشرق المصاب ببعض البثور، بالمساحيق والمراهم. ولقد كان يياض بشرتها يعوضها دائماً عن قصر ساقها. فالطول الفارع وجمال البشرة هما مقياسا الجمال الأعلى في أفغانستان.

ولقد كانت تقاتل دائماً لتحافظ على مظهرها الأنيق وعلى شبابها؛ وهي تخفي عن سائر الناس حقيقة أنها أكبر من زوجها ببضع سنوات. فشيب الشعر تمكن مداراته باستعمال الصباغ الذي يُعمل في البيت. لكن ملامح الوجه الحزينة هي أمر لا تستطيع أن تعمل له شيئاً. وهي تقوم بالتنقل في أرضية البيت في تناقل. فلا أشياء كثيرة يكون عليها القيام بعملها طالما أن زوجها كان قد أخذ أبناءها الثلاثة

إلى كابول. فالسجادة قد تم كنسها، والطعام قد تم تحضيره وبات جاهزاً. وها هي تدير مفتاح التفتاح وتُشاهد فيلماً أمريكياً من أفلام الرعب، فيلماً خيالياً. أبطال جميلون يقومون بمقاتلة الشاين، والوحوش، والمهاكل العظمية، ويتغلبون على المخلوقات الشريرة. تُشاهد شريفة الفيلم في اهتمام رغم عدم استيعابها للغة الإنكليزية. وعندما ينتهي عرض الفيلم تقوم بالتحدث مع أخت زوجها عبر الهاتف، ثم تقوم ومشي إلى الشباك. ومن الطابق الثاني تستطيع رؤية كل شيء يحدث في الباحة الخلفية في أسفل العمارة. ولثة تصونيات من الطابوق يصل ارتفاعها إلى علو قامة الإنسان وهي تسور الدور. وهذه الدور مثل دارها هي، كلها مليئة بالثياب المعلقة من أجل تجفيفها.

ولكن في حياة أباد ليس من الضروري لك أن ترى بعينك حتى تعرف ما الذي يدور حولك. ففي داخل غرفة جلوسك، حتى وإن أنت أغمضت عينيك يمكنك أن تعرف أن حارك يستمع إلى موسيقى بوب على الطريقة الباكستانية الفارسة، وأن الأطفال يصيحون ويلعبون، وأن المرأة هناك تصبح صبيحات طويلة، وأن امرأة أخرى تقوم بتنظيف السجادة عن طريق بحبته، وأن أخرى تقوم بالاغتسال تحت الشمس، وأن طبخة أحد الجيران تحترق، وأن جاراً آخر يقوم بتفطير الثوم.

أما ما لا تستطيع الأصوات والروائح إفشاءه فتكفل به إمدادات القليل والقال التي لا تنضب. فالنعمة تنتشر انتشار النار المحترقة في المهشيم في جميع أرجاء الجوار، حيث يكون الشغل الشاغل لكل أحد هو السهر على حسن أخلاق جيرانه.

وشريفة تشترك في سكنى هذه العمارة القديمة المبنية من حجر الطابوق، والتي هي آيلة إلى السقوط، مع ما يتبعها من دار خارجية، مع ثلاث عائلات أخرى. وعندما يبدو لها أن سلطان ليس بقادم، فإنها

مُبط إلى حيراتها حيث تكون سيدة البيت وبعض النسوة القليلات المتحانسات الآتيات من الجوار مجتمعات معاً. وفي أصيل كل يوم خميس كنّ يجتمعن على "النازار"، وهذا يعني مادبة دينية تخصص للثرثرة كما للصلاة.

تقوم كل واحدة منهن بلفّ شالها بشدة حول رأسها، وتفرد سجادة خاصة بما لإقامة الصلاة، وتكون جميعهن متجهات في وجوههن شطر مكة المكرمة، ثم ينحنين، وبصلين، ويرفعن رؤوسهن ثم يخفضنها من جديد بين ركوع وسجود أربع مرات كاملة. ويقام هذا الانبهاال في صمت وهدوء، بحيث لا تتحرك سوى الشفاه. وعندما تصبح المساحيد فارغة تتقدم إليها جماعة أخرى من النساء.

لِيَسْمِعَ اللَّهُ لِلرُّفْعِ الرُّحِيمِ * أَلْحَمِّدُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِلَهِكَ تَعْبُدُ وَإِلَيْكَ تَسْتَعِينُ * اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

فلا تكاد النسوة يفرغن من صلاتهن، حتى يلحقنها بأصوات عالية متشظية. فهن يقمن بالجلوس على فرش وثيرة على طول الجدار، ثم تُمدّ سفرة من القماش المشمّع على الأرض توضع فوقها الفناجين والصحاف، ويقدم الشاي الطازج المنكّه بحبّ الهال، وتقدم معه حلوى مصنوعة من فتات البسكويت والسكر. وترفع كل واحدة منهن يدها إلى وجهها وتتلو صلاتها من جديد قبل أن تتقدم إلى الجوق المهمهم حول السفرة "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

وعند الانتهاء من الصلاة، تمرّر كل واحدة منهن يدها فوق وجهها. من الأنف حتى أعلى الجبهة، ثم تتجه بما نحو الأسفل إلى الخدين ثم إلى السلقن حتى تستقر الأصابع على الشفتين. كما لو أن

الواحدة منهم تقوم بالتهم الصلاة. فمن الأمهات حق البيات، يجري تقيينهن أمن إذا قمن بأداء الصلاة على هذه الشاكلة في حفلات "النازار"، فإن صلواتهن ستكون مقبولة، إذا كانت الواحدة منهن تستحق ذلك. وهذه الصلوات لا يحجبها عن الله حجاب، وهو الذي يقرر قبولها أو ردّها.

أما صلاة شريفة فتكون بأن سلطان سيقوم بردها وردها ابتهاجا شابنام إلى كابل حيث سيكون جميع أولادها مجتمعين حولها.

وعندما تكون كل واحدة قد فرغت من سؤال الله إجابة صلاتها، فإن شعائر الخميس الحقيقية يمكن لها أن تبدأ. فمن تناول الريات، إلى شرب الشاي لتكته بالهال، إلى التداول في آخر الأعياد. هنا ترطن شريفة ببعض الكلمات التي مفادها أنها تتوقع قدوم سلطان في أي لحظة، لكن أحداً لا يهتم بذلك. فأخبارها مع زوجها وضرتها لم تعد هي الحديث الخامس في الشارع 103 في مدينة حياة أباد. إذ إن الفساة سليقة البالغة السادسة عشرة من عمرها هي الآن بحمة القيل والقال. أما الفتاة موضوع هذا اللفظ، فهي محجورة الآن في غرفة خلوية في أعقاب ارتكابها لجريمة لا تقبل المغفرة كانت قد ارتكبتها قبل بضعة أيام. وهي تستلقي الآن على حصيرها مرضوضة مهانة، بوجه نازف، وظهر مخدّد بخطوط حمراء واردة. وأولئك اللواتي لا يعرفن الرواية بتفاصيلها يصغين الآن في جذل وطرب.

كانت جريمة سليقة قد ابتدأت فصلاً منذ ستة أشهر خلت. ففي أحد الأيام بعد الظهر، قامت شابنام، ابنة شريفة بتمرير قصاصة من الورق إلى سليقة.

"لقد عاهدتُ على عدم الإفصاح عن مرسل هذه الورقة لكنها آتية من صبي". قالت وهي تمشي على رؤوس أصابع قدميها انفعلاً

وفرحاً لفكرة نجاحها في مهمتها الكبيرة. "إنه لا يجرؤ على الكشف عن نفسه. لكنني أعرف من يكون".

وبقيت شائنام تداوم على إحضار الرسائل من الصبي، وكلها قصاصات من الورق عليها رسومات قلوب مخروقة بالسهم وكلمات من نوع "إتني أحبك" مكتوبة بأحرف مرتبكة، وكلمات أخرى من قبيل إخبارها كم هي جميلة. وهكذا، صارت سليقة ترى صورة كاتب هذه الرسائل المجهول في عيني كل صبي تصادفه. لقد باتت تزداد اهتماماً بمندمها، ويجعل شعرها لامعاً ومنسرحاً، وصارت تلحن عمها سراً لإرغامه إياها على وضع الحجاب.

وفي أحد الأيام كتب إليها الصبي أنه سيكون وافقاً إلى جانب عمود النور الذي يبعد مسافة بضعة بيوت عن بيتها، وأنه سوف يكون مرتدياً كنزة حمراء. ارتجفت سليقة من شدة الحماس والانفعال عندما غادرت منزلها. وكانت هي ترتدي لباساً مخملياً أزرق باهتاً، وتضع عليها حلبيها المفضلة، وهي عبارة عن أسلور بلون الذهب، وسلاسل عريضة الحلقات. لقد كانت مع صديقة لها وكادت ألا تستطيع المرور بالفق النحيل الذي يرتدي كنزة حمراء. وكان هو يمشي بوجهه ولم يتحرك عن وضع وقوفه.

أما الآن فقد أخذت هي المبادرة في كتابة الرسائل. "غداً عليك أن تستدير لأراك"، كتبت له دافعة الرسالة إلى شائنام، المحسنة الخيرة المستعدة دائماً للمساعدة كمبعوث بين الحبيبين. لكنه ولمرة جديدة لم يتحرك عن وضعه. ولكن في اليوم الثالث استدار نحوها. عند ذلك شمعت سليقة أن قلبها يهبط إلى معدنها، لكنها تابعت المسير. وعند هذه المرحلة حل الحب الجارف محل القلق والترقب. ولم يكن الولد سيماً على نحو ملفت، لكنه في النهاية كان هو، الحبيب الذي يكتب

الرسائل. ولمدة أشهر بقي الحبيبان يتبادلان قصاصات الأوراق والنظرات المختلصة.

والآن أضيفت جرائم جديدة إلى الجرائم القديمة، جرائم تظهر بأنها قد قبلت تسلّم رسائل مرسله إليها من شاب، وأنها، ليساعدها الله، قد قامت بالإجابة عليها. والآن ها هي قد وقعت في غرام شخص لم يختاره لها أهلها. وهي قد علمت أنهم قد لا يوافقون عليه، فهو غير متعلم، ولا مال لديه، وينتمي إلى عائلة وضيعة. ففي حياة أباد لا يعول سوى على إرادة الأهل. وكانت شقيقة سليقة لم تتزوج سوى بعد خمس سنوات من العراك مع والدها. فقد وقعت في غرام شخص هو سوى الذي اختاره لها أهلها. وقد رفضت التخلي عن أحب قلبها. ولقد انتهت المعركة عندما أفرغ كل من الحبيين قارورة من الحبوب في خوفه، وتمّ نقل كل منهما على جناح السرعة إلى المستشفى لفصل معدته. وعند ذلك فقط، أعطى أهل العروس موافقتهم.

وفي أحد الأيام جمعت الظروف بين سليقة وندم في مكان واحد. لقد كانت والدها تمضي نهاية الأسبوع عند أقارب لهم في إسلام أباد، كما كان العم غائبا عن المنزل طيلة النهار. ولم يكن في البيت سوى زوجته. وهكذا، قالت لها سليقة بأنها ذاهبة لزيارة بعض الصديقات.

"وهل حصلت على إذن بالخروج؟" سألتها زوجة عمها. كان عمها هو رئيس العائلة ما دام أن والدها يعيش في عيّم لاستقبال اللاجئين في هولندا. كان في انتظار صدور إذن له بالإقامة يسمح له بالحصول على عمل، وبالتالي إرسال بعض النقود إلى أهله أو في أفضل الأحوال استخدام عائلته بكاملها إليه.

"لقد قالت أمي إنه يمكنني الخروج بعد الانتهاء من واجباتي"، قالت سليقة كاذبة.

لكنها لم تذهب لزيارة صديقتها، بل للقاء ندم وجهاً لوجه.

"لا يمكننا أن نتحدث هنا"، قالت له في سرعة عندما بدا أنهما قد اتفقا صدفه عند منعطف الشارع. لذلك فهو يقوم بإيقاف سيارة تاكسي ويدفع بها إلى داخلها. ولم تكن سليقة قد ركبت من قبل في سيارة تاكسي بصحبة ولد من غير أهلها، وها هو قلبها الآن يقفز إلى حلقها. توقفاً بالقرب من حديقة عامة، حديقة في مدينة يشاور بمكن للرجال والنساء تبادل الحديث فيها.

جلسا على مقعد في المنتزه، وتكلما لمدة نصف ساعة سريعة من الزمن. ندم يضع خططاً كبيرة لمستقبلهما، إنه يريد أن يشتري دكاناً يبيع فيه السجاد. أما سليقة فتعيش لحظات رعب خيفة أن يصادفهما أحد ويشتي بهما. وبعد أقل من نصف ساعة على مغادرتها لمنزلها تعود إليه. لكن جهنم كانت قد فتحت أبوابها على مصراعها. فلقد رأهما شاهنام في سيارة التاكسي فذهبت وأخبرت والدتها شريفة بذلك، وشريفة لم تبطل في نقل الخبر إلى زوجة العم.

قامت زوجة العم بلطم سليقة على فمها فور عودتها، ثم أقفلت باب الغرفة عليها، واتصلت بوالدة الفتاة هاتفياً إلى إسلام آباد. وعندما عاد العم إلى منزله دخلت العائلة بكاملها إلى الغرفة طالبة معرفة كل الذي جرى مع الفتاة. انتفض العم في غضب عندما سمع برواية التاكسي، والمنتزه، والمقعد. التقط سلكاً كهربائياً وقام بضرب الفتاة تكراراً على ظهرها بينما كانت امرأة عمها تمسك بها ثم قام بلطم وجهها حتى نزفت من أنفها وفمها.

"ما الذي فعلته؟ ما الذي فعلته؟ أيها السافلة"، صاح العم. "إنك عار على هذه العائلة. إنك لطخة عار في شرفنا. إنك فرع عفن متسوس".

كان صوته يدوي في أرجاء البيت ليصل إلى مسامع الجيران عبر شبايكهم المفتوحة. وسرعان ما يعرف الجميع عن جريمة سليقة. الجريمة التي تسببت لها بالرقاد مغفلاً عليها في غرفتها، وهي تتضرع إلى الله أن يقوم ندم بالتحقق إلى خطتها، وأن يسمح لها أهلها بالزواج منه، وأن يتمكن ندم من فتح دكان لبيع السجاد، وأن تستطيع هي وإياه الخروج بما هما فيه.

"إذا كانت نمرؤ على الخروج مع شاب في سيارة تاكسي، فإني على ثقة أنها نمرؤ على عمل أشياء أخرى"، تقول نسرين، صديقة العمه، بينما هي تنظر في عتو نحو أم سليقة. تغترف نسرين بعض المربى إلى فمها بملعقة كبيرة منتظرة الجواب على حكمها القضائي الذي أصدرته.

"إنها لم تذهب إلى غير الحديقة العامة، ولم يكن هناك من حاجة إلى ضمها إلى درجة كادت أن تذهب بحياتها"، تقول شيرين، التي هي طبيبة.

"لو لم نردعه عنها، لكان علينا بعد ذلك أن نضطر إلى نقلها إلى المستشفى"، قالت شريفة. "لقد أمضت كل ليلتها في فناء الدار وهي تصلي"، تابعت قولها. ففي حالتها التي يهجرها فيها النوم، كانت قد لمحت الفتاة المسكينة. "بقيت في الفناء تصلي حتى نادى المؤذن على صلاة الفجر"، قالت مضيفة.

تهددت النسوة، وتمتعت إحداهن بالصلاة. ووافق الجميع على أن سليقة قد اقترفت خطأ كبيراً بمقابلتها ندم في الحديقة العامة، لكن آراءهن لم تتفق حول ما إذا كانت مجرد خارجة عن الطاعة أم أنها تعدت ذلك إلى ارتكاب جريمة نكراء.

"يا لهذا الذل والعار... يا للذل والعار"، تندب والدة سليقة حظها. "كيف يمكن لابنة من بناتي أن تعمل مثل هذه القملة؟".

وتنتقل النسوة إلى مناقشة الموضوع من وجهة مستقبلية. إذا تقدم الولد لطلب يدها، فإن العار يمكن أن يمتسي. لكن والدتها سليقة ليست شديدة الحرص على أن يصبح ندم صهراً لها. فعائلته فقيرة، وهو غير متعلم، وهو يقضي معظم أوقاته متجولاً في الشوارع. فالوظيفة الوحيدة التي نالها، ثم ما لبث أن فقدوها، هي العمل في معمل للسجاد. فإذا تزوجت سليقة منه فلا بد لها من الانتقال للعيش مع عائلته التي لا تكاد تستطيع تأمين مسكن لها.

"إن أمه ليست سيئة بيت جيدة"، تصرح إحدى النسوة. "فمنزلها يبقى وسعاً وغير مرتب على الدوام، كما أنها كسولة ولا تكاد تستقر في بيتها".

وتقوم إحدى النسوة باستذكار حادثة ندم. "عندما كانوا يعيشون في كابول كانوا لا يتورعون عن استضافة أي كان"، تقول قبل أن تضيف بمكر: "لقد كان الرجال يدخلون بيتها حتى عندما تكون فيه بمفردها، رغم أنهم لم يكونوا من أقربائها".

"مع كل احترامي"، تقول إحدى النسوة موجهة الكلام إلى والدتها سليقة، "عليّ أن أعترف أنني كنت أعتقد أن سليقة كانت دائماً تحب إبراز نفسها، فهي شديدة الحرص على هئامها. ولا ترتدي ثياباً سوى على آخر طراز. وكان عليك أن تنتهي إلى أنها تخفي أفكاراً قلدة".

وللعظة، لا تقول إحداهن شيئاً، مع أن الموافقة تبدو على وجوه الجميع، وإن كن لا يصرحن باعتقادهن هذا تعاطفاً مع عواطف والدتها سليقة. تسمح إحدى النسوة فمها؛ لقد آن الأوان للتفكير بأمر العشاء. فتتهض النساء الأخريات واحدة تلو أخرى. وترتقي شريفة الدرج إلى شقتها المولفة من غرف ثلاث. تمر قرب الغرفة الخلفية التي هي مغلفة

على سليقة. فهي ستبقى محبوبة هناك إلى أن تقرر العائلة ماذا عليها أن تفعل في شأنها.

تسند شريفة. تفكر في العقوبة التي نالها حارثاً جميلة. وجميلة هذه، كانت قد تخرت من عائلة ذات نفوذ، وكانت غنية وطاهرة وجميلة كالأزهار. وكان قريب لها قد وفر نقوداً اكتسبها من العمل خارج البلاد، وهكذا صار باستطاعته التقدم لطلب يد هذه الفتاة الجميلة البالغة الثامنة عشرة من عمرها. ولقد كانت حفلة الزفاف استثنائية، إذ حضرها خمسمئة من المدعوين، وكان الطعام سخياً ومترفاً، والعروس مشعة بجمالها. وكانت جميلة لم ينع نظرها على الرجل الذي كانت ستزوج منه، قبل الزواج، فلقد قام الأهل بترتيب جميع الأمور. والعريس رجل طويل نحيل في العقد الرابع من عمره، عاد من بلاد عربته البعيدة كي يتزوج على الطريقة الأفغانية. كان قد صرف مع جميلة أسبوعين معاً كزوجين حديثي العهد بالزواج قبل أن يعود الزوج أدراجه من أجل ترتيب الأوراق المتعلقة بتأشيرة سفر زوجته عليها لتلتحق به. وفي الوقت عينه، فإن جميلة بقيت تعيش مع أخوي زوجها ومع زوجتيهما.

وقد أمسكوا بها بعد ثلاثة أشهر. لقد كان البوليس قد وشى بها. فلقد تجسس البوليس على شخص شوهد يتسلل من خلال نافذتها.

ولم يتمكن أحد من الإمساك بالرجل، لكن أخ زوجها كان قد عشر على بعض أشيائه في غرفة جميلة. أشياء استعملت كدليل على علاقتهما. قامت أسرة العريس على الفور بفسخ الزواج وأرسلوا إليها جهازها. أقفل الباب عليها مدة يومين كان خلالها مجلس العائلة في حالة انعقاد.

وبعد ثلاثة أيام أشاع شقيق جميلة أمام الجيران أن أخته قد توفيت نتيجة لحادث صدمة بالتيار الكهربائي تسبب به عطل في مروحة كهربائية.

ثم أقسم لها ماتم في اليوم التالي: أحضرت فيه الكثير من الورود، وكانت الوجوه خلاله حزينة متجهمة. وكانت والدتها وشقيقاتها خارج نطاق أي تعزية. لقد كان الجميع يتفجعون بسبب العمر القصير المقدّر لجميلة.

"ومثلما قالوا عن يوم زواجها"، قالوا أيضاً، "لقد كان مأتماً رائعاً".

أما شرف العائلة فقد تمّ استنقاذه.

وكانت شريفة تحتفظ بشريط فيديو عن يوم الزفاف، لكن شقيق جميلة جاء يوماً لاستعارته منها. ولم يرجعه إليها أبداً. ولم يبقَ شيء مما يشير إلى أن هنالك حفلة زفاف قد جرت قط. لكن شريفة لا تزال تحتفظ بصور فوتوغرافية قليلة. يبدو فيها العروسان رسميان وجديان بينما هما يقومان بقطع كعكة العرس، لم يكن وجه جميلة ليشي بشيء، وهي تسيرو لطيفة في ثوب زفافها البريء الأبيض وفي طرحة العرس والشعر الأسود والشففتين الحمراءوين.

تسهدت شريفة. لقد ارتكبت جريمة لا تغفر، لكن بسبب الجهل أكثر مما هو بسبب خبث السريرة.

"لم تكن لتستحق الموت. لكن الله يحكم"، تتمتم بصلاة منقطعة الأنفاس.

ومع ذلك، فإن شيئاً ما، يشير انزعاجها: مؤتمر العائلة الذي استمر لمدة يومين إلى أن قامت والدة جميلة، والدتها بالذات، بالموافقة على قتلها. فلقد كانت هي، أمها، من أرسل الابنين لقتل الابنة. لقد

دخول الأخوان الغرفة معاً، ومعاً أطبقا بالوسادة على وجه أختيهما جميلة، ومعاً قاما بالضغط على الوسادة أكثر فأكثر، حتى أرمقا روح الفتاة.

ثم عادا أدراجهما إلى والدتهما.

الانحجار والأغنية

يعتبر توق النساء إلى الحب في أفغانستان أمراً محظوراً، فهو ممنوع بسبب مفهوم العائلات والقبائل للشرف كما أنه أمر يجرمه الملاي. ولا يحق للشباب والشابات أن يجتمعهم أي لقاء خلوة، مثلما لا يحق لهم أن يحبوا، ولا أن يختاروا، فالحب لا علاقة له لا بالزنا مانسية ولا بالغرام؛ بل على العكس فإن الحب قد يجري تفسيره على أساس أنه ارتكاب لجريمة خطيرة، يكون عقابها الموت. ومن لا يردع نفسه يقتل بكل قسوة. وإذا كان لا بدّ من قتل أحد الفريقين المذنبين، فلا خلاف على وجوب قتل المرأة.

فالنساء الشابات من قبل كل شيء أشياء لا بدّ من المقايضة عليهن أو بيعهن، فالزواج عقد يجري بين العائلات أو في داخل العائلات. فالقرارات تتخذ وفقاً للمنفعة التي يجلبها الزواج للعشيرة، أما المشاعر فننادراً ما تلوح في الحسبان. خلال مرور القرون كان على النسوة الأفغانيات أن يصبرن على هذه المظالم التي ترتكب في حقهن. ولكن الأغاني والأشعار النسائية كانت تشهد على حيائهن. وتلك الأغاني لم يكن المقصود بها الدبوع والاشتهار، ولكن رجع الصوت يتلث على الجبال وتردده الصغراء.

"فهن كن يلقمن احتجاجاتهن بالانتحار والأغاني" هذا ما كتبه الشاعر الأنغلي زياد بهاء الدين مجروح في ديوان عن أشعار النساء الباشتونيّات. وكان قد قام بجمع تلك الأشعار بمساعدة أخت زوجته. وكان مجروح نفسه قد اغتيل على يد الأصوليين في مدينة ييشاور عام 1988.

والقصائد والأشعار تعيش في الأقوال الشعبية ويجري تبادلها والتداول بها قرب البشر، أو على الطريق إلى الحقول، أو إلى جانب تنور الخبز. وهي تتحدث عن الحب الممنوع، وهي وبدون استثناء يكون فيها الحبيب شخصاً ما يختلف عن الشخص الذي تم تزويج المرأة منه؛ كما تتحدث هذه القصائد والأشعار عن العزوف عن الزوج (الذي يكون في العادة أكبر سناً بكثير من الزوجة). لكن هذا التراث أيضاً فيه تعبير عن الكرامة والشجاعة. وتلك الأشعار يطلق عليها محلياً لقب "لاندي"، الكلمة التي تعني القصير والمجزوء. فهي تقتصر على أسطر قليلة وتكون قصيرة وإيقاعية، "مثل صرخة أو طعنة سكين"، يكتب مجروح:

عليها الناس النساء
لنكم ترون ذلك للرجل العجوز
وهو يندب إلى أراشي
وتسألونني بعد تلك لماذا
أقوم بالبكاء وتقطيع شعري

آه يا إلهي
ها أنت تفكر علي من جديد
ليلة سوداء قاسية وها أنا مرة جديدة أرتجف
من قعة رأسى

إلى أخصص قلبي
لا عني بالميت
في فرائس لسته ولا أعبه.

لكن النساء في أشعارهن متمردات أيضاً، فهن يجازفن بحياتهن
على مديح الحب، في مجتمع يمنع فيه الشغف وتكون العقوبة لا
رحمة فيها.

"هات يدك يا حبيبتي
وسوف نخفي بين أحضان المروج
فلما أن نعيش حبيين
ولما أن نموت تحت طعن السكاكين".

"رمت نفسي في النهر
لكن تياره لم يأخذني معه
يا لعن حظ زوجي
فلنني أعود إليه كل مرة
بعد أن يلقى التيارات بي
إلى الشاطئ من جديد".

"عداً صباحاً
سيقتلونني من أجلك
فلا تقل
إنك لم تكن حبيبتي".

فهذه "الصراخات" تفصح كلها عن الخيبة، وعن الحياة الضائعة
التي لم تعيشها المرأة. وليس بين تلك القصائد قصيدة واحدة عن الأمل؛

بل على العكس، إن القوط يسودها. فالسقاء لم يعشن عيشاً كافياً، ولم يتفوقن ثمار حماهن، ولا شباهن، ولا لنائد الحب.

* * *

تقد كنت جميلة كأنني ورده
فحاولت تحتك إلى
شيء أصغر كأنه البرتقال
وإنني لم أعرف العذاب مرة
وعليه، فقد تموت عالياً
كأنني شجرة شربين.

رحلة عمل

كان الهواء لا يزال بارداً. إذ لم تكن الشمس قد أتمت إشرافها على الجرف الصخري للجبل شديد الانحدار. أما المنظر الطبيعي فملون بالغبار البني الضارب إلى الرمادي. ومنحدرات الجبال كلها من صخر؛ والجلاميد الصخرية تنذر دائماً بالانفكاك عن أمهاتها لتبدأ سلسلة من الانهيارات؛ بينما الحصى وقطع الصلصال تفرقع تحت حوافر الخيول، والأشواك النابتة بين الصخور تخدش أرجل المهريين، واللاحقين، والغارين الهاريين. ومتاهات متشابكة من الممرات تتقاطع وتنفق وراء الصخور وحلف التلال.

تلك هي الطريق التي اعتاد سلوكه مهربو السلاح، والأفيون، والسجائر، وعلب الكوكا كولا بين أفغانستان وباكستان، وتلك الممرات ما فتئت مطروقة عبر التاريخ وعلى امتداد القرون. فعلى هذه المسالك كانت قد مرّت عناصر الطالبان والمقاتلون العرب المنتسبون إلى القاعدة عندما أيقن الجميع أن معركة أفغانستان باتت نحاسرة فأنكفأوا جميعاً إلى مناطق القبائل في باكستان. وتلك هي الممرات ذاتها التي سيقومون باستعمالها عندما يرجعون لإيقاع الهزائم بالجنود الأميركيين الكافرين الذين قاموا باحتلال تراب المسلمين المقدس. فلا السلطات

الأفغانية، ولا الباكستانية، قادرة على السيطرة على تلك المساحة التي تحيط بالحدود بين البلدين. فقبائل الباشتون تستأثر بالإمرة على مقاطعاتها الخاصة بما على كل من جانبي الحدود.

والقوات غير الشرعية، المتمردة على كل قانون قد أوجدت لنفسها بشكل مناف للطبيعة طريقاً إلى القانون الباكستاني. فعلى الجانب الباكستاني يحق للسلطات أن تعمل على الطرقات المعبدة، وما يليها، بعشرين ياردة إلى الجانبين فقط. أما في ما يتعدى العشرين ياردة. فإن السلطة والسيادة تصبحان لقانون القبائل. وفي هذا الصباح يشق بائع الكتب سلطان خان طريقه عبر حراس الحدود الباكستانيين. وعلى مبعدة ما يقل عن مئة ياردة تقف قوات الشرطة الباكستانية. وما دام الأشخاص - والخيول والبغال المحملة - يحفظون مسافتهم، فليس باستطاعة البوليس أن يتعاطى معهم أو أن يفعل لهم شيئاً.

ولكن إذا كانت السلطات تعجز عن السيطرة على هذا السيل، فإن العديد من المسافرين يتم إيقافهم رغم كل ذلك لكي يجري "تفريغهم" وأخذ المكوس منهم على يد رجال مسلحين، لا يكونون في أحيان كثيرة سوى قرويين عاديين. وكان سلطان قد أعدّ لمثل هذا الأمر عدته؛ فقد كانت صونيا قد غيّطت أوراق العملة في داخل كمي قميصه، وهو يحمل ممتلكاته في شوال سكر شديد الانساخ. كما أنه يرتدي أقدم قميصه وسراويله محمية الطراز.

ومثلما هو الحال مع معظم الأفغانين، فإن الحدود الباكستانية يجب أن تكون مقفلة في وجه سلطان. ولا يقدم في الأمر شيئاً أو يؤخر، أن تكون له عائلة، ومنزل، وتجارة في تلك البلاد، ولا أن تكون له ابنة تذهب إلى المدارس فيها؛ فهو غير مرحّب به. ففي أعقاب الضغوط التي مارستها الأسرة الدولية، أقلت باكستان حدودها منعاً

لمرور الإرهابيين والمطالبان من أجل الاختباء في داخل البلاد. ولم تكن تلك سوى بادرة عاطفية عديدة الجنوى، فبعد كل شيء فإن الإرهابيين والمهاجرين لا يتقدمون إلى نقاط الحدود فيما يحمل الواحد منهم جواز سفره في يده؛ فهم يستعملون الممرات نفسها التي يستعملها سلطان عندما يسافر في رحلاته التجارية. وهناك ألوف من الأشخاص الذين يعبرون الحدود الباكستانية في كل يوم بهذه الطريقة.

وتكافح الخيول لشق طريقها فوق المنحدرات القاسية، ويجلس سلطان باتساع صدر، وثبات عزم، وهو منفرج الساقين فوق ظهر حصان ليس عليه بردعة. فحتى في أرث ملابسه، كان لا يزال يبدو جيداً المندام. ومثلما هو حاله دائماً، فإن لحيته كانت حديثة التشذيب، ويرسو طربوشه القصير بكفاءة وثبات فوق رأسه. فيها هو يبدو كرجل بارز يتخذ له رحلة للتنزه فوق الجبال والاستمتاع بمناظرها؛ وحتى عندما يكون جَزَعاً عائفاً، فإنه يمسك بيده أَعْتة الحصان بثبات، وهو يشعر بالتقليل، فخطوة عائرة واحدة كفيلة بالنهب به وبالحصان إلى قاع الهاوية. لكن الحصان يتسلق الدرب إلى الأعلى مهدوء متقبلاً المسالك التي هي مطروقة أكثر من سواها، وذلك دون جهد منه ودون تأثر بثقل الرجل الذي يحمله فوق ظهره. أما كيس السكر الثمين فهو يلتف التفافاً محكماً حول ذراع سلطان. فهو يحتوي على الكتب التي يرغب سلطان في طباعتها لمصلحة مكتبته، كما يحتوي على مسودة الورقة التي يأمل أن تصبح مشروع عمله الكبير في هذه الحياة.

وهما هو محاط بالرجال المشاة الأفغانيين، وكلهم يريدون العبور إلى البلد المنوع عليهم العبور إليه. كما كانت هنالك النسوة المتلفعات بعباءات البوركيا واللواتي يركبن على جانبي سروج الدواب وهن في طريقهن إلى زيارة الأقارب. ولا يخلو الجمع هذا من طلبة عائدين إلى

الجامعة في بيشاور بعد أن أمضوا احتفالات العيد الدينية مع عائلاتهم في أفغانستان. وقد يكون بين أفراد هذا الرعيل جماعة من المهريين، أو ربما من رجال الأعمال. لكن سلطان لا يسأل، فهو شديد التركيز على مهمته كما على لجام حصانه، وهو يلعب السلطات الباكستانية. فالיום الأول يقضيه مستعملاً السيارة من كابول إلى الحدود، ثم يمضي ليلته في محطة احتباء عند الحدود، ثم يمضي نهاراً كاملاً على مرج الحصان وسيراً على القدمين ثم في سيارة بيك آب. والرحلة عبر الطريق الرئيسي من نقطة الحدود إلى بيشاور لا تكاد تستغرق ساعة واحدة. فسلطان يشعر بالإهانة عندما يجبر نفسه مضطراً إلى الدخول لجلسة عبر الحدود إلى باكستان. فهو يشعر أنه يعامل مثل كلب من كلاب الطرقات. فباكستان كانت قد ساعدت نظام الطالبان سياسياً، كما أمنتهم بالمال والسلاح، وهو يعتقد أن السلطات الباكستانية تلبس الآن وجهين مختلفين، إذ هي تسدعن للأميركيين فجأة وتقفل الحدود في وجه الأفغانين.

فباكستان كانت هي الدولة الوحيدة، إلى جانب المملكة العربية السعودية، والإمارات العربية المتحدة، التي أقدمت على الاعتراف رسمياً بنظام طالبان. فالسلطات الباكستانية أرادت أن يقوم رجال قبيلة الباشتون بالسيطرة على أفغانستان. والباشتون هؤلاء يعيشون على جانبي الحدود وهم يتأثرون إلى درجة معينة بمواقف باكستان. وفي حقيقة الأمر، فإن جميع رجال طالبان كانوا من الباشتون. فهم يشكلون الجماعة الإثنية الكبرى في أفغانستان، وتصل نسبة عديدهم إلى أربعين بالمئة من مجموع سكانها. أما الطاجيك فإنهم أكثر المجموعات الإثنية في مناطق الشمال. ويتكوّن حوالي ربع الشعب الأفغاني من الطاجيك. وهؤلاء هم الذين يتشكل منهم تحالف الشمال الذي لقي بعد أحداث

الحادي عشر من أيلول/سبتمبر دعماً من الأميركيين، أي أن جميع قوات تحالف الشمال كانت تنسب إلى قبيلة الطاجيك. أما الباكستانيون فينظرون إلى قبائل الطاجيك بدرجة معينة من الشك والحذر. وحيث إن الطالبان قد سقطت، وأن الطاجيك قد أصبحوا القوة التي تراعيها الحكومة وتحسب لها حساباً، فإن العديد من الباكستانيين باتوا الآن يشعرون أنهم قد أصبحوا محاطين بالأعداء: الهند من الشرق، وأفغانستان من الغرب.

ولكن، وعلى وجه العموم، فإن هنالك القليل من الأحقاد القبلية بين الجماعات الأفغانية المختلفة. أما منشأ النزاعات فيعود إلى الصراع على السلطة بين زعماء الحرب المتعديدين الذين كان دأهم دائماً تشجيع الجماعات الإثنية على الاحتراب فيما بينها. فالطاجيك في عشية من أمرهم في أنه إذا زادت قوة الباشتون عن حلتها فإنهم قد يتعرضون للمذابح لو نشبت يوماً حرب أخرى. أما الباشتون فيعششون ازدياد قوة الطاجيك للسبب نفسه. والأمر ذاته يمكن أن يُقال عن قبلي الأوزبك والهازار اللتين تقطنان المناطق الشمالية الغربية من البلاد. كما أن الحسب قد أشعلت أيضاً بين زعماء العشائر في داخل كل جماعة إثنية بمحذ ذاتها.

ولم يكن سلطان بشديد الاهتمام حول نوع الدم الذي يجري في عروقه، أو حتى في عروق أي شخص آخر. فهو، مثله في ذلك مثل الكثير من الأفغانين، يحمل نسباً غليظاً: فأمه من قبيلة الباشتون، ووالده من الطاجيك، وزوجته الأولى من الباشتون. أما زوجته الثانية من الطاجيك. وهو يتنسب رسمياً إلى الطاجيك لأن العرقية يجري توارثها من جانب الأب. وهو يتكلم اللغتين، الـ: باشتو، والـ: داري؛ والأخيرة هي لهجة من اللغة الفارسية المحكية، التي يستعملها الطاجيك.

ويستجبه رأي سلطان إلى أن الوقت الذهبي للأفغانيين قد حان لكي يطرحوا كل الحروب وراء ظهورهم ويشرعوا في إعادة إعمار بلادهم. ومفاد الحلم هو أنهم قد يستطيعون يوماً أن يعوضوا عما عسروه بالتناسب مع جهلهم. لكن الأوضاع لا تبدو جيدة. وسلطان يشعر أن أبناء وطنه يحنون آماله.



شعر ومسح العرق عن جبينه. فالشمس الآن في ذروة وهجها. أخيراً يتجه الطريق أمامه نحو الانحدار نزولاً. وعن طريق العربات في واد صغير ثمة العديد من سيارات البيك آب التي تنتظر. هذه هي تكأسي "خيبر بلس" أما مالكو هذه السيارات فقد حققوا أرباحاً كبيرة عن طريق تسهيل دخول الضيوف غير المرحب بهم، إلى البلاد. وهذا الطريق كان يوماً جزءاً من طريق الحرير، وهو طريق تجاري كان يقوم بين الحضارات الكبيرة الشديدة القدم؛ طريق بين بلاد الصين وبين روما. كان الحرير يُحمل غرباً ليحري استبداله بالذهب والفضة والصوف.

وكان ممر خيبر ممراً يجتازه كل من هو غير مرغوب به منذ أكثر من ألفي سنة. لقد مرَّ عليه الفرس، والإغريق، والمغول، والمغول، والأفغان، والبريطانيون الذين حاولوا الاستيلاء على الهند عن طريق الوصول إليها عبر هذا المسلك. وفي القرن السادس قبل الميلاد تمكن الملك الفارسي داريوس من قهر أجزاء كبيرة من أفغانستان ثم زحف عبر ممر خيبر إلى الهند. وبعد ذلك بقرنين من الزمان، زحف جنرالات الإسكندر المقدوني الكبير بمجنودهم عبر هذا الممر. وعند أضيق نقاط هذا الممر فإنه لا يتسع سوى لمرور جمل واحد محمّل، أو لمرور حصانين في وقت واحد. وكان جنكيز خان قد رمى أنقاضاً عند بعض جوانب

طريق الحرير، بينما اكتفى بعض المسافرين المسلمين سواء من أمثال ماركو بولو بمجرد اقتناء آثار القوافل، والعبور إلى الشرق. ومنذ أيام الملك داريوس حتى تاريخ الغزو البريطاني لمرخير في العقد الأول من القرن التاسع عشر، فإن قبائل الباشتون الآتية من الجبال المحيطة قد قاومت بحماسة، وبشكل لا يلبس، جميع الجيوش الغازية. ومنذ الانسحاب البريطاني في العام 1947، فإن هذه القبائل شددت قبضتها وانتشارها حول هذا المر وعلى كل أراضي بيشاور. وكانت أقوى هذه الجماعات شكيمة هي قبيلة الأفريدي التي كانت تُحشى مهابة من مقاتليها الشرسين.

فلا تزال الأسلحة هي أول ما بلغت النظر بعد عبور الحدود. فعلى امتداد الجانب الباكستاني من الطريق الرئيسي، وعند مراحل منتظمة نُقِشت على جنبات صخور الجبل، أو طُليت، إشارات فوق علامات الطرقات الواسعة، اسم: "كتائب خيبر". وكاتب خيبر هذه، هي عبارة تعود في الأساس للدلالة على اسم شركة لتصنيع البنادق، فصارت الآن اسماً يطلق على جماعة الميليشيا التي تأخذ على عاتقها تأمين الأمن في هذه المنطقة. وهذه الميليشيا تحافظ على ثروة لا يستهان بها. فالقرية التي تقع مباشرة بعد عبور الحدود إلى باكستان مشهورة بآزارها الشهير المليء بالبضائع المهربة، والحشيش، والأسلحة التي يجري ترميرها في مقابل أغنية. فلا أحد هنا يسأل عن رخصة، بينما أي شخص يحمل أسلحة داخل باكستان يعرض نفسه لمحكومية طويلة يحضنها في السجن.

وبين الأكواخ الطينية تنتصب قصور ضخمة لافتة شُيّدت بأموال السوق السوداء. كما يوجد بعض الاستحكامات الصخرية الصغيرة وبعض البيوت الباشتونية التقليدية التي تُسورها جدران عالية وهي

تتوزع مرصعة مسطح الجبل. ومن وقت لآخر، تلوح جدران من الكونكريت في المنظر العام؛ وهذه يُطلق عليها تسمية أسنان التنين، وكان قد شيدتها البريطانيون الذين خشوا من هجوم للدهابات الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية. وفي مناسبات عديدة تعرض الأجناب لعملیات خطف في هذه المناطق القبلية النائية، ولذلك فإن السلطات اتخذت احتياطات صارمة جداً، فحقق على الطريق الدولي إلى ييشاور، التي تُسيّر عليه دوريات من القوات الباكستانية، فإن الأجناب غير مسموح لهم بقيادة سياراتهم دون أن يكونوا مصحوبين بحراس أمنيين، كما لا يحق لهم مغادرة ييشاور إلى الحدود الأفغانية دون أن تكون معهم الأوراق الثبوتية الصحيحة، ودون أن يكونوا مصحوبين بحراس مسلحين.

* * *

وبعد أن كان سلطان قد امتطى صهوة حصانه لمدة ساعتين على الطرقات الضيقة حيث يقف الجبل إلى أحد جانبي الطريق، وتقف الهاوية إلى الجانب الآخر منه، وهو لا تزال أمامه بعض الساعات الأخرى من امتطاء صهوة الحصان إلى أن يبدأ بالانحدار أخيراً إلى السهل ويصبح في إمكانه التطلع في اتجاه ييشاور. ومن هنا فإنه يأخذ سيارة أجرة إلى المدينة، وإلى الشارع 103 في منطقة حياة آباد.

وكان الظلام قد بدأ يخيّم عندما سمعت شريفة طرقات على البوابة. لقد عاد أخيراً. تخرج مـزولاً على الدرج لتفتح الباب. وهناك تجسده نعباً وعليه وعشاء السفر. يلقي إليها بشوال السكر، الذي تقوم بحمله على الدرج وهي تتفحصه.

"هل كانت رحلتك على ما يرام؟"

"مناظر جميلة"، يجيبها سلطان "وغروب شمس رائع".

وبينما هو يقتل تقوم هي بإعداد العشاء، وتفرش المَشْمَع على الأرض. ويسن العُرْش اللينة بلس سلطان نفسه بعد خروجه من الحمام نظيفاً وهو بلس ثيابه المكوّبة حديثاً. يلقي نظرة تمتعضة على الصحون الزجاجية التي أحضرها شريفة.

"لا احسب هذه الصحون الزجاجية، إنما تبدو تافهة ورخيصة"، يقول لها. "وتبدو كأنك قد قمتِ بشرائها من بازار وسخ".

وتقوم شريفة بتبديل صحون من البورسلان بالصحون الزجاجية. "هذه أفضل من سواها. فالطعام صار له طعم أطيب الآن"، يقول

لها.

ويسروي عليها سلطان آخر أخبار كابول، بينما تروي عليه شريفة آخر أخبار حياة آهاده. فلم يكونا قد التقيا منذ عدة أشهر. وهما هما يتحدثان عن الأولاد، وعن الأقارب، وعن برنامج الأيام القليلة القادمة. ففي كل مرة يقوم فيها سلطان بزيارة باكستان فإنه يحمل نفسه عناء بذل زيارات بحاملة إلى أولئك الأقارب الذين لم يرجعوا بعد إلى أفغانستان. والأفضلية الأولى تعود إلى تلك العائلات التي شهدت وفيات في أفرادها. تليها نوبة الأقارب المقربين، وهكذا دواليك، وبقدر استطاعته، وذلك يعتمد على عدد الأيام الباقية أمامه.

ويخاطب سلطان شعور بالقلق عندما يتعلق الأمر بزيارة أقارب شريفة، من أخواتها، إلى إخوانها، إلى أبناء عمها. إذ من المستحيل له أن يقي زيارته إلى باكستان سراً؛ فكل أهل هذه المدينة يعرفون عن كل شيء فيها. وذلك إلى جانب أن هذه الزيارات المحملة هي كل ما تبقى في حياة شريفة الزوجية. فكل ما تستطيع أن تطلبه منه الآن هو أن يكون ودوداً تجاه أقاربها، وأن يعاملها كزوجته خلال زيارته لهم.

وبعدما يستم ترتيب الرياضات التي تُعمل بدافع الواجب، تروي شريفة لزوجها آخر الأحبار الآتية من الطابق السفلي؛ أي مغامرات سليقة.

"يا لها من فاجرة"، يقول سلطان متراجعاً إلى وسادته وكأنه إمبراطور روماني. "هذا ما يمكن أن يُقال عنها بالضبط إنها مومس فاجرة". لكن شريفة تحتج. "إن سليقة لم تقتل حتى مرة واحدة مع الولد". "إنه أسلوها، إنه أسلوها"، يقول سلطان. "إذا كانت لم تصبح مومساً حتى الآن، فإنها قد نصير مومساً لأنها قد اختارت هذا الولد السافه الذي لن يستطيع أن يجد عملاً في حياته، فكيف سيكون عليها الحصول على النقود الكافية لتنفق على أشتائها وحاجاتها، من أمثال الخلي وأدوات الزينة والملابس؟ وعندما تغلي القدر بدون غطاء، فكل شيء لا يستبعد أن يسقط فيها، أوساح، تراب، غبار، حشرات، وأوراق عمنة ساقطة"، ويستمر في كلامه. "هكذا عاش أهل سليقة. عاشوا دون غطاء، وكل أنواع القذارات قد سقطت فوقهم. فالأب غائب، وحتى عندما كان يعيش مع عائلته فلم يكن مرة ليقى في البيت. وما هو الآن يعيش عيش اللاجئين في بلجيكا منذ ثلاث سنوات، ولم يستطع حتى الآن أن يرتب معاملات وأوراق استقدام أفراد عائلته ليأخذهم إليه". يقول سلطان شاحراً في ازدراء. "إنه فاشل. ومنذ صارت سليقة قادرة على المشي وهي تبحث عن شخص تتروجه. وبأي الحظ ليكون هذا الشخص هو الفقير النعيم السافه نديم. لقد حاولت أولاً أن تلعب على منصور، أتذكرين؟" يسألها سلطان. هنا صار بائع الكتب خاضعاً لمزاج القيل والقال، تماماً.

"إن لوالدته دخل في جميع ذلك"، تتذكر شريفة. "إنها لم تكف عن سؤالي ما إذا كان قد آن الألوان لإيجاد زوجة لمنصور. ولقد كنت

أحبها على الدوام، إن الوقت لم يحن بعد؛ فالولد لا بد له من إكمال دراسته أولاً. فبان آخر ما كنت أرغب به هو الحصول لولدي على زوجة معرورة ومثيرة للشفقة مثل سليقة. وعندما جاء أخوك يونس إلى يمشاور فإنه قد أمطر بالأسئلة نفسها، ولكنه لم يكن ليرضى بأن يأخذ لنفسه بنتاً رخيصة مثل سليقة لتكون زوجة له".

وهكذا تم قلب الأمر في جريمة سليقة حتى لم يبقَ عليه ذرة من الغبار. ولكن هذين الزوجين يبقَى لديهما الكثير من الأقارب الذين يمكنهم التدخل في شأنهم.

"وكيف هي ابنة عمك؟" يسألها سلطان متضحكاً.

فقد كانت إحدى بنات عم شريفة قد قضت حياتها وهي تقيم بشأن والديها. وعندما اختارها الله، قام إخوتها بتزويجها من رجل عجز يحتاج إلى أم لأطفاله. وسلطان لا يتعب من سماع هذه الرواية. "ولقد تغيرت هذه المرأة تغيراً كاملاً بعد الزواج. ففي آخر الأمر صارت امرأة لكنها لم تنجب أي أطفال، وهكذا من الواضح أنه كان عليها أن تفكر في أمر تغير حياتها قبل حصول هذا الزواج. إذ لا راحة للمتعب، وهو لا بد له من أن يعيش تعاسته في كل ليلة" يقول لها متضحكاً من جديد.

ربما تجازف شريفة بالقول: "أنا ذكر كم كانت تبدو نحيلة وعاقلة قبل الزواج لقد تغيرت الآن تغيراً كاملاً، تقول مقرفة. إلا أن شريفة تضع يدها على فمها وتطلق ضحكة خافتة بعد أن أفلتت منها هذه التهمة الطائشة. وبدا كما لو أن الحميمة قد عادت لتسرب بين الزوجين فيما هما يضطجعان على الفرش الوثيرة الممدودة حول بقايا المائدة.

فالآن، وحيث إن هذين الزوجين يعيشان منفصلين، فقلما تنهيا لهما فرصة اللقاء، بحيث يكونان بمفردهما، وذلك من أجل التذكر،

والحديث والدعابة. وهكذا صارت كل رواية تستدعي رواية أخرى. وشريفة وسلطان المضطجعين على الأرض مثل طفلين صغيرين يهدران بالمرح والضحك.

ليس في المظاهر الخارجية ما يدلّ على أن ثمة أي حياة جنسية في أفغانستان. فالنسوة يختبئن وراء البوركاء، كما أنهنّ يلبسن ثمت البوركاء ملابس كبيرة فضفاضة. فتحت تنانيرهن تلبس النسوة سراويل طويلة. وحتى بين حدران البيت الأربعة، فإن ارتداء العباءات الواسعة فتحة الرقبة، نادراً ما تلبس. والرجال والنساء الذين لا ينتمون إلى العائلة نفسها عليهم ألاّ يجلسوا معاً في غرفة واحدة. كما أن عليهم ألاّ يتخاطبوا معاً، ولا أن يتناولوا الطعام معاً. وفي الأرياف، فإنه حتى حفلات الزواج تشهد أيضاً الفصل بين الذكور والإناث؛ فالنساء يرقصن ويفرحن كما يفعل الرجال، ولكن في قاعات منفصلة. ولكن تحت هذا الغشاء المظلم. وبالرغم من المحازفة بتجرع عقوبة الموت، فإن الناس لهم عشاق وعشيقات في أفغانستان أيضاً. كما أن هنالك المومسات في المدن، مومسات يلجأ إليهن الشبان الصغار والرجال في الفترة التي يكونون فيها في مرحلة بحث عن زوجة.

كما أن الحياة الجنسية لها قصصها وأساطيرها وغرافاتها في التراث الأفغاني. وسلطان يهوى القصص الواردة في المأثورة الأدبية التي عنوانها "ماسنالي" التي كان قد كتبها الشاعر جلال الدين الرومي منذ حوالي ثمانية مئة. وهو يستعمل الكلام عن الجنس كأسلوب للتحذير من الاقتناء الأعمى لخطوات الآخرين.

وبعد أن يكون سلطان قد شبع دعابة وضحكاً، فإنه ينهض من بين الوسائد، ويسوي ثوبه الفضفاض ويذهب لقراءة بريده الإلكتروني. فالجامعات الأميركية تطلب منه دوريات تعود إلى السبعينيات، وثمانية

باحثون يسألون عن مخطوطات قديمة، وأصحاب المطابع الذين يتعامل معهم في لاهور أرسلوا إليه تقديراً للتكلفة التي سترقى إليها طباعة البطاقات البريدية وفقاً لأسعار الورق الجديدة، فأفضل مصدر لرزق سلطان هو البطاقات البريدية. فطباعة كل ستين بطاقة تكلفه دولاراً واحداً. وهو يقوم ببيع كل ثلاث بطاقات مقابل دولار واحد. كل شيء يذهب الآن في مصلحة سلطان. فالآن، وحيث إن طالبان قد رحلت: فإنه يستطيع أن يعمل كل ما يحلو له.

وفي اليوم التالي يقرأ أيضاً بريد الإلكتروني. ويقوم بزيارة المكتبات. ويذهب إلى مركز البريد، حيث يرسل بعض الطرود ويستقبل البعض الآخر، ثم يشرع في تنفيذ سلسلة زياراته الاجتماعية الهاملة التي لا يعرف كيف ينتهي منها. فزيارة تعزية إلى ابنة عم له كانت قد عصرت زوجها بعد إصابته بمرض السرطان، تلاها زيارة سارة لابن عم آخر كان قد رجع من تجارة تسليم فطائر البيتزا في ألمانيا، فابن عم سلطان، هذا الذي يدعى سعيداً، كان في يوم من الأيام مهندس طيران في شركة الطيران الأفغانية التي تدعى آريانا والتي كانت يوماً شركة طيران تفخر بنفسها. أما الآن، فإن سعيداً يفكر في العودة إلى كابول مع عائلته، ومحاولة التقدم هناك من جديد إلى وظيفته المسالفة. لكنه في حاجة إلى توفير بعض المال. فتوزيع شطائر البيتزا في ألمانيا هو أكثر ربحاً من العمل كمهندس طيران في الوطن. وهو لم يجد بعد حلاً للمشكلة التي تنتظره هنا. فإن له زوجة وأطفال في يشاور. كما أنه يعيش مع زوجته الثانية في ألمانيا. فإذا كان لا بد له من العودة إلى كابول، فإن زوجته ستلتقيان تحت سقف واحد. إلا أنه يرتعب من هذه الفكرة. فالزوجة الأولى تريد ألا تعرف شيئاً عن الزوجة الثانية. وهما لم تلتقيا مرة، ويقوم هو بإرسال الأموال لها كزوج يقوم بواجبه.

ولكن ماذا سيحصل إذا انتقل الجميع معاً إلى كايرو؟ فهو لا يستطيع حتى أن يتصور مثل هذه الفكرة. والأيام في بيشاور تفرض على سلطان واجبات مرهقة. فأحد أقربائه قد طُرد من مأجوره، والآخر يطلب معونة للبدء في عمل جديد، وثالث يطلب مه قرضاً. وسلطان نادراً ما يسمح الناس لأقاربه. فأنه هو شخصياً ناجح جداً، فإنه كان كثيراً ما يُطلب منه مساعدة الآخرين بينما هو يقوم بأداء زيارات الجمالة لهم. وعلى وجه العموم فإنه يحتلر، فهو يعتقد أن معظمهم كسالى وأنه ينبغي عليهم أن يساعدوا أنفسهم بأنفسهم. وفي أي حال، فإن عليهم أن يشتوا أنفسهم قبل أن يطرح هو عليهم دراهمه. وفي نظره، فإن قليلاً منهم تمكنوا من إقناعه ومن إثبات أنفسهم.

وعندما يكون الزوجان يؤدّيان زيارة اجتماعية، فإن شريفة هي التي تتكفل بإبقاء الحديث الدائر جارياً. فهي تقوم برواية القصص، وتوزيع الضحكات والابتسامات. أم سلطان فيفضل الاكتفاء بالجلوس والاستماع، ولكنه من وقت لآخر يتدخل بالحديث ليعطي بعض التعليقات حول أخلاقيات العمل، أو حول أشغاله. ولكن عندما ينطق سلطان بكلمة واحدة تعني أن الوقت قد حان للمفارقة، فإن الزوجان ينهضان للعودة إلى منزلهما فوراً، تتبعهما ابنتهما شاهنام. وتسير العائلة بأمان وسط الشوارع السوداء الوسخة المظلمة في حياة آباء وهم يطأون على قاذورات مملأ الصدر بالروائح الفزحة القادمة من الزواريب الخلفية.

* * *

وفي إحدى الأمسيات تخرج شريفة استعداداً لزيارة الأقرباء اللامباشرين. وفي العادة، فإن تلك العائلة لا ترتقي إلى مستوى واجب الزيارة، رغم أن أفرادها لا يعيشون سوى على مبعدة قليلة من شقتها. وهكذا، تمشي شريفة على كعبين عالين تتبعها سلطان وشاهنام يداً بيد.

وترحب بهم العائلة بذراعين مفتوحتين. ويقدم المضيفون لهم الفواكه المجففة، والحلويات، والمكسرات، والشاي. ويبدأ الحديث بالترسميات والمجاملات حول آخر الأخبار. ويصفي الأطفال إلى الكلام الفارغ الذي يسوقه الكبار. أما شابنام، فتكسر حبات الفستق وتصفى إلى الحديث بضحك. إحدى الفتيات تكون غائبة عن السهرة، وهي الطفلة بلقيس، البالغة الثالثة عشرة من عمرها. وهي تعرف أن عليها أن تتحي جانباً لأن الزيارة تتم بخصوصها.

وكانت شريفة قد قامت بهذه الزيارة مرة من قبل من أجل المهمة نفسها. أما هذه المرة فإن سلطان قد وافق على مضيض على مرافقتها من أجل أن يعطي للموقف مسحة من الجدية. فالعائلة تذهب إلى هناك نيابة عن يونس؛ وهو الأخ الأصغر لسلطان. إذ كان يونس قد أولع ببلقيس عندما كان يعيش لاحقاً في باكستان منذ سنوات قليلة. كان ذلك عندما لم تكن هي سوى مجرد طفلة. وكان قد طلب من شريفة أن تتقدم إلى خطبتها من أجله. أما هو نفسه فلم يكن قد تحدث مرة مع الفتاة.

وكان لا بدّ للحجاب من أن يكون هو نفسه: إنها لا تزال صغيرة جداً على الزواج، ومن جهة أخرى، فإنهم أحابوا: إنه إذا شاءت عائلة حسان عطية انتهزم الكبري التي هي في العشرين من عمرها، فإن الأمر يصبح مختلفاً. لكن يونس لا يريد شيرين. فهي لم تكن لتقارن بأختها في الجمال، وفي كل حال، فإنها كانت مفرطة في رغبتها في الزواج هكذا اعتقد، فعندما زارهم لم تكن شيرين تفارقه. وبالإضافة إلى ذلك، فإنها قد سمحت له بأن يمسك يدها بينما كان الجميع ينظرون، وهذا في رأي يونس ليس إشارة جيدة. فمن الواضح أنها ليست فتاة رفيعة الأخلاق.

لكن الأهل تمسكوا بترشيح ابنتهم الكبرى لأن يونس كان يعتبر عطيباً جيداً. وعندما كان يتقدم إلى شيرين عطيب جديد فإن أهلها كانوا يعربون من سلطان ويعرضون تزويجها من أخيه يونس كعرض آخر. لكن يونس لم يكن ليرضى بشيرين، فعيناه كانت على بلقيسة. وهكذا بقي الأمر يراوح مكانه.

ورغم أن طلب شريفة كان قد قوبل بالرفض، إلا أنها تكرر الآن رياراتها لتطلب يد بلقيسة من جديد. فلم يكن مثل هذا السلوك سلوكاً غير مألوف، بل على العكس، لأنه كان يشير إلى جدية العرض. والتقاليد تقول: إن والدة العريس ينبغي عليها أن تلتف نعالها من فرط التردد على أهل العروس حتى تصبح هذه النعال بسماكة قشرة الثوم. وحيث إن والدة يونس: بيبي غول كانت في كابل، فإن شريفة زوجة أخيه، هي من ينبغي عليها أخذ دور هذه الوسطة. وكانت تطلب في الحديث عن تميز يونس، وكيف أنه يتكلم اللغة الإنكليزية بطلاقة، وكيف أنه يعمل في المكتبة مع سلطان، وكيف أن ابنتهم لن ينقصها أي شيء. لكن يونس كان يناهر الثلاثين من عمره. إنه كبير السن بالنسبة إلى بلقيسة هذا ما اعتقده أهلها.

وكانت أم بلقيسة تلقي عيها على أحد أبناء عائلة نجان الآخرين الذين هم أصغر من يونس سناً؛ وبالذات فإنها كانت تلقي عيها على منصور ابن سلطان البالغ السادسة عشرة من عمره. "إذا تقدم لها منصور، فإننا سنوافق فوراً"، قالت الأم.

ولكن الآن قد جاء دور سلطان ليضرب قدميه بالأرض. فمتصور لم يكن أكبر من بلقيسة سوى بضع سنوات. وهو لم يُعرف عنه أنه قد ألقى يوماً نظرة واحدة في اتجاه بلقيسة. وشريفة تعتقد أن التفكير في تزويجها هو أمر سابق لأوانه. فهو لا بد له من السفر للدراسة ورؤية الدنيا.

"ومع كل ذلك، فإنها ليست في الثالثة عشرة من عمرها"، كانت شريفة قد قالت لصديقتهما في وقت لاحق. "فإنني على ثقة أن عمرها خمس عشرة سنة على الأقل".

وتدخل الآن بلبقيسة إلى غرفة العائلة للحظات قليلة بحيث يتمكن سلطان من إلقاء نظرة عليها. فهي فتاة طويلة ونحيلة وتبدو ألما قد تحطت الثالثة عشرة. وهي تلبس زياً من المخمل الأزرق الغامق وتجلس في ارتباك وتحمل قرب أمها. فلبقيسة تعرف تماماً كل تلك الحركات وهي تشعر بالارتباك.

"إنها تبكي، إنها لا تريد الزواج"، تقول أختها لسلطان وشريفة في حضور بلبقيسة. وتطرق بلبقيسة أرضاً.

لكن شريفة تتضحك. إنها علامة جيدة عندما تكون العروس غير رغبة، فإن ذلك يشير إلى قلبها النقي.

ثم تنهض بلبقيسة بعد دقائق قليلة لتواري. وتسمح لها والدتها بالخروج قائلة إن لديها اختبار في الرياضيات غداً. لكن الفتاة التي يقع الخيار عليها لا ينبغي عليها أن تكون حاضرة عندما تكون العائلتان تتفاوضان. ففي بداية الأمر يقوم الطرفان بحسن النبض قبل أن يدخلوا في تفاصيل المبالغ. كم هو نصيب الأهل، وما هو المبلغ الذي سيتم إنفاقه على حفلة الزواج، ومسألة الفستان، وتنسيق الأزهار. فعائلة العريس هي التي تدفع كل هذه النفقات. وأن يكون سلطان حاضراً هذا الاجتماع، فهذا يعني أنه يعطي للتقاش جدية وثقلاً؛ فهو الذي يحسك بكيس العملة.

وعندما تنقضي الزيارة دون تقرير شيء، فإنهم يخرجون في المساء السبارد لشهر آذار/مارس. وكانت الشوارع هادئة. "إنني لم أحب هذه العائلة"، يقول سلطان. "إنهم طماعون".

وهو يشعر بنفور تجاه أم بلقيسة بشكل خاص. فهي الزوجة الثانية لزوجها. إذ إنه عندما لم تحبل زوجته الأولى أبداً فإنه تزوج مرة ثانية، وقد قامت الزوجة الثانية بتعذيب الزوجة الأولى إلى درجة جعلتها لا تتحمل المزيد من التعذيب، فقررت الانتقال للسكن مع أخيها. وهناك حكايات قديمة يتم تداولها، وهي تناول والدته بلقيسة. فهي جشعة، انتهازية، شديدة الغيرة، وبخيلة، وكانت ابنتها الكبرى قد تزوجت من أحد أقرباء سلطان، الذي وصف والدته زوجته بأنها كابوس مرعب. وقد جاء هذا التصريح أثناء حفلة الزواج. فهي لم تكف عن التلمع حول قلة الطعام، وقر الزينة. "كما تكون الأم، فلا بد من أن تكون الفتاة. وبلقيسة هي قطعة من الصخرة القديمة المعروفة نفسها"، هذا ما يصرح به سلطان.

لكنه يضيف على مضمّن بأنه إذا كان يونس يرغب في هذه الفتاة، فإنه سيبدل في هذا الأمر جهد استطاعته "ولسوء الحظ فإنهم سيمنهون في نهاية الأمر إلى الموافقة. فعائلتنا عائلة ذات سمعة جيدة بحيث لا يُرد لها طلب".



وبعد أن أنهى سلطان واجباته مع العائلة، فإنه أخيراً يشرع بفعل ما كان قد قدم حقيقة من أجله إلى باكستان؛ فهو كان قد جاء آملاً في طباعة الكتب. وفي صباح مبكر من أحد الأيام يشرع في تنفيذ الخطوة الثانية من رحلته، حيث يأخذ طريقه إلى مدينة لاهور وهي عاصمة الطباعة والنشر والتجليد.

لذلك فهو يحشو حقيبته بستة كتب، وبروزنامة، ويبدل نظيف من الثياب. ومثل عادته كلما سافر، فإن نقوده لا بد من أن تخطأ إلى كمي قصيصه. ويبدو النهار كما لو أنه سوف يكون دافئاً وموقف

الباصات في يشارور يجمع بالناس وشركات السفر، وأصحاب الباصات، يتصارعون في ما بينهم لجعل كلمة كل واحد منهم مسموعة في هذا الضحيج. "إسلام آباد، كراتشي، لاهورا" فبحالب كل حافلة كان يقف رجل بصيح. ولم يكن هناك جدول لانطلاق الحافلات. فهي تعادر حالما تمتلئ بالركاب. أما قبل المغادرة، فإن الرجال ينهمكون ببيع المكسرات، وبيع الأقماع الورقية المحشوة ببنور دوار الشمس، والبسكويت، والفشار، كما يبيع الجرائد والمجلات، داخل الحافلة. أما المتسولون فكانوا يكتفون بمد الأيدي من خلال الشبابيك المفتوحة.

وكان سلطان يتجاهلهم جميعاً. فهو يتبع بذلك وصية النبي محمد (ص) فيما يختص بالزكاة وهو يفسرها كما يلي: أولاً عليك أن تهتم بشؤون نفسك، ثم بأقرب أفراد عائلتك إليك، ثم بالأقارب الذين هم أبعد من ذلك، ثم بجمراتك، وأخيراً يأتي دور الفقراء والمجهولين. وقد يصدق له أن يمنع بعض النقود القليلة إلى متسول أفغاني في كابول، أما المتسولون الباكستانيون، فيأتون في أسفل اللائحة، إذ على باكستان أن تهتم بشؤون فرائها.

ويجلس سلطان على المقعد الخلفي للحافلة، محشوراً بين مسافرين، أما حقيقته فتستريح تحت قدميه. وفي داخل الحقيبة يوجد مشروع عمره، وهو مكتوب في قصاصة ورق. فهو يرغب بطباعة الكتب المدرسية الجديدة لأفغانستان. فعندما تفتح المدارس أبوابها في هذا الربيع، فسوف لا يكاد يجد أحد أي كتب صالحة للتدريس. فالكتب التي قامت بطباعتها حكومة المجاهدين والطالبان لا نفع فيها. فهذه هي الطريقة التي يبدأ فيها تعليم الأحرف المحفائية للأطفال في السنة الأولى كما يلي: "الحرف أ" يرمز إلى إسرائيل التي هي عدوتنا؛ والحرف "ج" يرمز إلى الجهاد، غابتنا في هذه الحياة؛ والحرف "ك" يرمز إلى كلمة

كلاشينكوف، سبيلنا إلى الانتصار... والحرف "م" يرمز إلى المجاهدين، قهرنا وأبطالنا... والحرف "ط" يرمز إلى حركة طالبان...".

وكانت الحرب تشكل الموضوع الأساسي لكاتب الرياضيات أيضاً. فقد كان طلبة المدارس - وبسبب الكتب التي قامت طالبان بطباعتها خصيصاً من أجل الصبيان - لم تكن تحسب الأشياء بعدد التفاحات أو عدد الكعكات، بل بعدد الرصاصات والكلاشينكوفات، وأشياء من هذا القبيل: "يملك عمر الصغير بدقية كلاشينكوف لها ثلاثة مخازن. وهناك عشرون خرطوشة في كل مخزن. وهو يستعمل ثلثي هذه الخرطوشات فيقتل بها ستين عائناً. فكم هو عدد الخونة الذين قتلهم في كل رصاصة؟".

أما الكتب التي تعود إلى العهد الشيوعي. فلا يمكن استعمالها هي الأخرى أيضاً، فالمسائل الحسابية فيها تتعاطى مع توزيع الأراضي، ومع المثل المتعلقة بالمساواة. كما تتعلق بالرايات الحمراء والمزارعين السعداء في المزارع الجماعية، وهي جميعها أمور لا بد من أن توجه عقول الأطفال نحو الشيوعية.

وقد أراد سلطان أن يعود إلى الكتب التي كانت راحة أيام زاهر شاه، الملك الذي استمر حكمه حوالي أربعين سنة سادها الخلو والسلام، إلا أنه قد تم خلعه في العام 1973. وقد عثر سلطان على الكتب القديمة، ولذلك فإنه يستطيع إعادة طباعتها: ففيها الحكايات والخرافات حول دروس اللغة الفارسية، أما كتب الرياضيات، فلم تكن تتعدى كلاماً من نوع واحد + واحد = اثنان. وأما كتب التاريخ، فكان مضمونها عالياً من الإيديولوجيات بخلا ما يتعلق منها بالروح الوطنية غير المبالغة.

وكانت منظمة اليونسكو قد تعهدت بتمويل طباعة الكتب المدرسية في البلاد. وبصفته أحد أكبر الناشرين في كابول، فإن سلطان

عقد اجتماعات مع مسؤولي هذه المنظمة وهو عازم على التقدم منهم
بمعرض لالتزام طباعة هذه الكتب حالما يعود من رحلته إلى لاهور.
وعلى قصاصة من الورق وضعها في جيب معطفه، كان قد دَوّن على
نحو أولي عدد الصفحات والقياسات لمئة وثلاثة عشر من الكتب
للمدرسية. أما الميزانية فقد احتسبت في حدود المليون دولار. وفي لاهور
ينوي أن يستفسر عن أي من المطابع هي التي يمكن لها أن تقدّم له
أفضل العروض. ثم إنه سوف يعود إلى كابل ليتبارى على تقديم
العروض حول هذا العقد الممتاز. ويتأمل سلطان بنوع من القناعة كم
يمكن أن يبلغ صافي أرباحه من هذا المبلغ الذي يناهز المليون دولار.
وهو يقرّر ألا يكون شديد اللطمع. فإذا فاز بالعقد، فإن هذا سيضمن له
استمرار العمل لعدة سنوات قادمة؛ سيعود ذلك من إعادة طباعة بعض
الكتب، كما من طباعة كتب جديدة. فهو يفكر ويتأمل بينما يمر بقربه
للمناظر والسهوب على جانبي الطريق مروراً سريعاً، هذا الطريق هو
الطريق الأساسي بين كابل وكالكوتا. وكلما اقترب به الطريق من
لاهور ازداد شعوره بالحرارة، فهذا هو يتضح الآن عرقاً في ثيابه
المنسوجة لتناسب المناطق الباردة من أفغانستان. ويقوم بتمسيد شعر
رأسه الذي لم يبقَ منه سوى القليل، ثم يمسح العرق عن وجهه بالمندبل.
وبالإضافة إلى قصاصة الورق التي تحتوي على لائحة بمئة وثلاثة عشر
كتاباً مدرسياً، فإن لدى سلطان أيضاً كتباً أخرى يريد القيام بطباعتها
على حسابه الخاص. ففي أعقاب ذلك الشلال من رجال الصحافة،
والعاملين في مجالات الإغاثة والعون، بالإضافة إلى الدبلوماسيين الأجانب
السدين وفدوا جميعاً إلى أفغانستان، فقد تنامي هناك طلب على كتب
اللغة الإنكليزية التي تتحدث عن البلد، فسلطان لا يستورد الكتب من
ناشرين أجانب بل يقوم هو بطباعتها بنفسه.

فباكستان هي ملاذ قراصنة الطباعة، إذ إنه لا توجد هناك أي رقابة. وقليلون هم الذين يحترمون حقوق المؤلفين. وسلطان الذي يدفع دولاراً واحداً لطباعة نسخة من كتاب يستطيع أن يعيد بيعها مقابل عشرين أو ثلاثين دولاراً. وبخصوص الكتاب الذي كان قد حقق انتشاراً واسعاً، وهو بعنوان "طالبان" لكتابه أحمد راشد، فإن سلطان كان قد تمكن من إعادة طباعته في عدة إصدارات. أما الكتاب المفصل لدى الجيود الأجنب فهو بعنوان "حربي السرية"، وهو كتاب كان قد ألّفه مراسل صحافي روسي حول الاحتلال السوفييتي المدمر لأفغانستان بين العامين 1979-1989. وقد كان حقيقة مناقضة تماماً لما يصادفه جنود القوة الدولية لحفظ السلام اليوم الذين يسيرون دوريات في كابول، والذين يقوم بعضهم من وقت لآخر بالمرور على مكتبة سلطان لشراء البطاقات البريدية، والكتب التي تحكي عن الحرب القديمة في أفغانستان.

وتدخل الخافلة إلى داخل مرأب للباصات في لاهور. فتصله حرارة الجو وإذا بالمكان عوج بالناس. فمدينة لاهور هي المعقل الثقافي والفني لباكستان. وهي مدينة محيرة، نشيطة الحركة، شديدة التلوث. فظراً إلى وقوعها في وسط سهل فسيح، فإن هذا الأمر قد أفقدها جميع الوسائل الدفاعية العسكرية الطبيعية، لذلك فإن هذه المدينة كانت قد قُهرت ودُمّرت، وأعيد بناؤها، ثم قُهرت، ودُمّرت وأعيد بناؤها مرة تلو أخرى. لكن بين تلك الفتوحات وما رافقها من دمار فإن العديد من المحكام كانوا قد قاموا باستضافة كبار الشعراء والكتاب وقدموا لهم الرعاية، وبذلك أصبحت لاهور عاصمة الفن والكتب رغم أن القصور التي التحا إليها الكتاب والشعراء والفنانون كانت تسوّى دائماً في وقت لاحق بالأرض.

وسلطان يعشق أسواق الكتب في لاهور وكان قد نجح رغم المصاعب في تحقيق نجاحات عديدة غير متوقعة في هذا المكان. إذ لا شيء يدفع شغاف قلب سلطان أكثر من العثور على كتاب قيم في سوق قدرة، والقيام بشرائه لقاء لمن زهيد جداً. ويعتقد سلطان عن نفسه أنه يملك أوسع مجموعة من الكتب حول أفغانستان، مجموعة تزيد عن ثمانية إلى تسعة آلاف مجلد. وكل شيء يشد انتباه سلطان: فمن القصص والحرفات القديمة، إلى الشعر القديم، إلى الروايات، إلى كتب السيرة، إلى الأدب السياسي المتأخر، إلى المعاجم والموسوعات. فإن وجهه ليشرق كلما عثر على كتاب لم يمتلكه من قبل، أو لم يره قبل ذلك.

لكنه الآن لا يملك وقتاً كافياً لاصطياد الكتب النادرة في أسواق الكتب. فهو ينهض عند طلوع الفجر، ويضع على حنطه ثياباً نظيفة، ثم يترتب شأن لحيته، ويركز طربوشه فوق رأسه. فهو أمام مسؤولية مقدسة؛ مسؤولية طباعة كتب مدرسية جديدة لأطفال أفغانستان. وينهب سلطان مباشرة إلى المطابع التي اعتاد أن يتعامل معها أكثر من سواها. وهناك يتقابل مع طلحة. وهذا الرجل الشاب هو أحد أفراد الجيل الثالث من العاملين في صناعة المطابع وهو ليس متحمساً لمشروع سلطان إلا قليلاً. فالمشروع بكل بساطة هو بالغ الضخامة. ويدعو طلحة سلطان إلى فنجان شاي ممزوج بالحليب المركز، ثم يسمح فمه وينظر في قلبي.

"ليس عندي مانع من التعهد بطباعة عدد قليل من هذه الكتب، أما مئة وثلاثة عشر عنواناً؟ فإن ذلك يتطلب منا عمل سنة كاملة". وسلطان لديه مهلة شهرين كحد أقصى. وبينما يترجّع صدى صوت آلات الطباعة من خلال الجدران الرقيقة في المكتب الصغير، يتابع سلطان محاولة إقناعه لطلحة بأن ينحني جميع الأعمال الأخرى جانباً.

"لكن هذا أمر مستحيل"، يقول طلحة، فقد يكون سلطان زبوناً هاماً، كما قد تكون مهمة طباعة الكتب المدرسية للأطفال الأفغان مهمة ذات قداسة أيضاً، لكن له التزامات أخرى عليه أن يفي بها. ومع ذلك، فإنه يقوم بعملية حساب سريعة ويقدر أن الكتب يمكن أن تطبع بتكلفة زهيدة قد لا تزيد عن الخمسة سنتات للنسخة الواحدة، فالسعر سيعتمد على نوعية الورق ونوعية الألوان، ونوعية التجليد. ويقوم طلحة باحتساب هذا الخليط من النوعية والحجم وينتهي إلى الخروج بلائحة طويلة. وتَضيقُ حديقنا سلطان. فيقوم بعمل حسابات بالروبيات، والدولارات وبالأيام، وبالأسابيع، ويضع تاريخاً تخمينياً ليجعل طلحة يسرع بالعمل ويلجأ للتعهدات الأخرى.

"عليك ألا تنسى، أن المهلة هي شهران فقط". يقول له: "إذا كنت لا تقدر على الانتهاء من العمل بحلول هذه المهلة، فإنك ستخرب بيتي وتدمر تجارتني هل تفهم؟" وعندما ينتهي الرجال من الحديث حول الكتب المدرسية، فإنهما يقومان بمناقشة الكتب التي يريد سلطان القيام بطاعتها لمصلحة مكتبته الخاصة.

ومرة جديدة يقومان بمناقشة الأسعار، والأرقام، والتواريخ، فالكتب التي جلبها سلطان معه، قد استنسخت مباشرة عن الكتب الأصلية. فالصفحات كانت قد أفردت واستنسخت. والطابعات قد قامت بختمها على ألواح معدنية. وعندما يقومون بطباعة غلافات بحارجية ملونة، فإن محلول الزنك يسكب فوق الصحائف. ثم تُلقى الصحائف بالخارج تحت أشعة الشمس بحيث إن هذه الأشعة تخرج اللون الصحيح. فإذا كانت صفحة ذات ألوان متعددة فإن تلك الألواح ينبغي أن يتم تعريضها للشمس في مرة واحدة مستقلة عند إدخال كل لون. ثم يوضع اللوح على المطبعة ويجري تشغيله. فكل شيء هنا يعمل

على ماكنات قديمة هي نصف أوتوماتيكية. فأحد العاملين يغذي المطبعة بالورق والثاني يجلس القرفصاء عند الطرف المقابل ويقوم بتلقف كل ما يخرج من المطبعة حيث يقوم بترتيبه. هذا فيما جهاز الراديو يوطى في السباحة الخلفية عن مباراة في الكريكت بين سريلنكا وباكستان. وعلى الجدار تدل الصورة التي لا بد منها لمكة المكرمة، ولمة مصباح كهربائي يتدلى من السقف وتجتمع عليه بعوضات ميتة. وهناك جداول صغيرة من الأسيد الأصفر تنساب على الأرض قبل أن تختفي في المجارير.

وبعد جولة تفتيشية يجلس طلحة وسلطان على الأرض ويفكران في أمر غلافات الكتب. وكان سلطان قد اختار العناوين والشعارات من بطاقاته البريدية. وهناك بعض الخطوط على هوامش الصفحات يحبها هو. ويقومان بتسوية شكل الصفحات، وبعد خمس دقائق يكون الرجلان قد انتها من الاتفاق على شكل ستة غلافات كتب.

* * *

وفي زاوية جلس بعض الرجال يشربون الشاي. إنهم ناشرون وأصحاب مطابع باكستانيون، وجميعهم يعملون في سوق القرصنة المظلمة ذاقا مثل سلطان. يتبادلون التحية ويتداولون في الحديث عن آخر الأنباء القادمة من أفغانستان حيث يمشي حامد كارضاي على حبل مشدود بين أمراء الحرب المختلفين، بينما مجموعات من جنود القاعدة تشن هجوماً في شمال البلاد، وتنب القوات الأميركية الخاصة للوحدة، فتقوم بقصف الكهوف الواقعة عند الحدود الباكستانية بقتال الطائرات. ويقول أحد الرجال الجالسين على السجادة "يا للبوس، فقد هزم على يد جماعة الطالبان في أفغانستان".

"إننا نحتاج إلى قليل من الطالبان في باكستان أيضاً وذلك ليقوموا ببعض التنظيفات هنا". يقول الرجل.

"هذا ما تقوله، لأنك لم تعرف الطالبان. فباكستان قد تنهار إذا تسلّم رجال الطالبان السلطة فيها، لا تصدّق أي شيء غير ذلك"، يقول سلطان بصوت راعد. "تصوّر فقط: إن جميع الإعلانات التجارية سوف يجري إنزاعها، وهناك منها ما يزيد عن ألف في هذا الشارع وحده. وجميع الكتب التي تحتوي صفحاتها على صور سوف تحرق، وسيحدث الأمر نفسه لأرشيف الأفلام الكامل عن باكستان، وكذلك أرشيف الموسيقى؛ فكل الآلات الموسيقية سوف تُدمّر. ولن يعود بوسعكم أبداً سماع الموسيقى، ولا أن ترقصوا مرة ثانية. وجميع مقاهي الإنترنت ستغدو مغلقة. أما أجهزة التلفاز فسوف تُصادر وتغدو ممنوعة، أما ما ستستمعون إليه من الراديو، فلن يتعدى البرامج الدينية. وسيتم إخراج جميع البنات من المدارس؛ وستسرح جميع النساء من أعمالهن ووظائفهن لينهجن جميعاً إلى البيوت. ما الذي سيحدث بعد ذلك لباكستان؟ ستفقد البلاد مئات الألاف من أماكن العمل ثم ستغرق في بؤرة عميقة من الركود الاقتصادي والبأس، وما الذي سوف يحدث لجميع الناس الذين سيخسرون وظائفهم بعد أن يصبحوا عمالة زائدة عندما تتوقف باكستان عن أن تكون دولة حديثة؟ ربما إنهم سيتحولون إلى مقاتلين؟" صارت لمحة سلطان حادة.

هزّ الرجل كتفيه في لامبالاة قائلاً: "حسناً، ربما إننا لا نحتاج إلى جميع رجال الطالبان، بل إلى أنفار قلائل منهم فقط". وكان طلحة يناصر الطالبان عن طريق تصوير وطباعة كراريسهم. ولمنوعات قليلة كان قد قام بطباعة كتبهم الدراسية الإسلامية. وفي نهاية الأمر قام بمساعدتهم على تأسيس مطبعتهم الخاصة في كابل فإنه كان قد استحصل لهم على مطبعة مستعملة من إيطاليا ومكّتهم من شرائها بسعر رخيص. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه كان يمدّهم بالورق وغير ذلك

من الأجهزة التقنية. ومثل معظم الباكستانيين الآخرين، فإنه كان يجد من المطمئن لباكستان أن يكون نظام الباشتون هو الذي يحكم أفغانستان التي تقع على تخوم بلده.

"إنك رجل عدم الضمير والمبادئ"، يقول سلطان بمضايقته عن طيب قلب، والآن وبعد أن نفّس عن غيظه بالهجوم على الطالبان.

ويستلوي طلحة لكنه لا يحيد عن موقفه. "إن مبادئ طالبان لا تعارض مع ثقافتنا. فهم يجلّون قرآننا، ونبينا، وتقاليدنا. وإنني لم أكن لأقوم بطباعة أي شيء يتعارض مع الإسلام".

"مثل ماذا؟" يقول سلطان ضاحكاً.

هنا يقوم الرجل الآخر الجالس على السجادة بالإدلاء بدلوه عندما يبدأون الحديث عن كتاب "آيات شيطانية" وهو كتاب لم يكن أي منهم قد اطلع عليه.

"لكنه دائماً ينحو بجلده. وكل من يطبع كتبه أو يقدم له أي مساعدة يجب أن تحمد أنفاسه"، يقول طلحة. "وإنني لن أرضى بطباعة كلامه حتى لو أقيمت أموال الدنيا في أحضان. فإنه قد دلس على الإسلام".

"لقد أهاننا، وطعن بنا"، أكمل رجل آخر.

ويوافق سلطان على الكلام "إنه يحاول تدمير روحنا ويجب إيقافه عند حدّه قبل أن يفسد الآخرين أيضاً. فحتى الشبوعيون لم يذهبوا بعيداً إلى هذا الحد؟ لقد كانوا يتصرفون بمحدّ أدنى من الاحترام ولم يحاولوا أن يلطخوا ديننا. ثم نقع على ذلك السخام الذي يطلقه شخص يُطلق على نفسه رغم ذلك، لقب مسلم".

ثم يجلس الرجال صامتين، كما لو أنهم غير قادرين على إزاحة ظل هذا الخائن رشدي، ولا شروعه التي قد طرحها عليهم. "سوف

يضعون يدهم عليه، سوف ترى، إن شاء الله، وعمشية الله"، يقول طلحة.

* * *

وفي اليوم التالي يتحول سلطان حول لاهور ذاهباً إلى جميع أنواع المشتغلين بالطباعة، وبلتقيهم في الردهات الخلفية، وفي الأقبية، وفي الأزقة. إذ من أجل أن يتمكن من طباعة هذا العدد الكبير من الكتب، فإن عليه أن يقوم بتوزيع طلبيته على أكثر من عشر مطابع، وهو يقوم بشرح مهمته، ويحصل على لوائح أسعار، ويضع ملاحظات وتقديرات. وتستمع عيناه عندما يحصل بشكل خاص على سعر مناسب، فتتجف شفاته قليلاً، فيلحسهما بلسانه، ويقوم ببعض الحسابات الذهنية، ويقوم بتقدير هامش الربح. وبعد أسبوعين كان قد أوصى على طلبياته بخصوص جميع الكتب المدرسية، وقطع وعوداً بالعودة إلى أصحاب المطابع.

وأخيراً صار بإمكانه العودة إلى كابل. وهذه المرة لم يكن عليه أن يشق طريقه مكافحاً عبر الحدود على ظهر الحصان. فالأفغانيون غير مسموح لهم بالدخول إلى باكستان، لكن ليس هنالك من ضبط لجوازات السفر عند رحلة العودة، لذلك، فإن بائع الكتب هذا يستطيع أن يعاد باكستان من الباب المفتوح.

ويحشر سلطان نفسه في حافلة قديمة في الطريق المتوي الخطر بين جلال آباد وكابل. وعلى أحد جانبي الطريق ثمة جلايد صخرية تهدد بالانحيار عن الجبل في أي لحظة. ومرة رأى حافلتين متقابلتين بالإضافة إلى عربة مقطورة، كانت قد انحرفت عن الطريق، وكان هنالك العديد من الموتى الذين يجري انتشالهم من ذلك الحادث، وكان في جملتهم صبيان. وهنا يصلي سلطان لراحة أنفس الموتى كما من أجل

الوصول إلى بيته بالسلامة. فلم تكن الجلاميد الصخرية هي وحدها التي تهدد ذلك الطريق، بل من المعروف أنه طريق يكثر فيه قطاع الطرقات بحيث إنه معروف بكونه أقل الطرقات أماناً في أفغانستان. فعلى هذا الطريق كان الصحفيون الأجانب، والعاملون في مجالات الإغاثة، والأفغانيون المحليون، قد فقدوا أرواحهم إما بسبب حادث ما مفاجئ، وإما بعد اصطدامهم بقطاع الطرقات. فبعد سقوط نظام طالبان مباشرة قُتل على هذا الطريق أربعة من رجال الصحافة. أما سائقهم فقد نجا لأنه تمكن من تسميع بعض النصوص الإسلامية. ولكن بعد ذلك تم توقيف حافلة مليئة بالركاب الأفغان. وكل من وجد من ركاب تلك الحافلة حليق الوجه قد قُطعت أذناه وجُدع أنفه؛ وتلك إشارة من قطاع الطرقات إلى الكيفية التي يريدون لبلادهم أن تكون محكومة بها. ويقوم سلطان بتلاوة صلاة في البقعة التي قُتل فيها الصحفيون. ومن أجل أن يبقى على الجانب السليم، فإنه كان قد حافظ على لحيته طليقة، ولبس الشياح التقليدية. إلا أن العمامة وحدها، كانت قد استُبلت بطربوش قصير.

وها هو الآن يقترب من كابل. "لا بد من أن صونيا غاضبة منه"، يفكر في نفسه ويتنسم. فلقد كان قطع لها وعداً بالعودة بعد أسبوع واحد. وكم حاول أن يشرح لها أنه قد لا يتمكن من إلغاء عمله في كل من بيشاور ولاهور في أسبوع واحد. لكنها لم تكن تريد الإصغاء إلى كلامه. "إذا، سوف أمتنع عن شرب الحليب"، قالت له، وضحك سلطان. إنه يتطلع إلى لقائهما. فصونيا لا تحب شرب الحليب، ولكن ربما ألما تقوم بإرضاع طفلتهما لطيفة، فإن سلطان كان قد أرغمها على شرب كأس من الحليب كل صباح. وكأس الحليب هذه صارت الورقة التي تستعملها صونيا للتفاوض.

وهي تفتقد سلطان بشدة عندما يكون خارج البيت. فأفراد العائلة الآخرون لا يعاملونها بالطريقة الجيدة نفسها مثلما يكون عليه الحال في حضور زوجها. ففي غيابه لا تعود هي سيدة البيت، بل تصبح أشبه بشخص ذي وجود عابر في ذلك المكان، وفجأة تنتقل السلطة في البيت لآخرين وهم يقومون بعمل ما يحلو لهم عندما يكون سلطان غائبا. ففي غيابه يطلقون عليها ألقاباً من نوع "الفتاة القروية"، أو يقولون عنها إنها "غبية كالحمارة" لكنهم لا يبرؤون أبداً على مضايقتها كثيراً، لأنهم يخافون أن تقوم بالشكوى عنهم إلى سلطان، ولا أحد في العائلة يشتبه أن يجعل سلطان عدواً له.

وسلطان يفتقد إلى صونيا أيضاً، يفتقد إليها بطريقة لم يفتقد لها شريفة مرة. وفي بعض الأحيان يخالجه شعور بأنها صغيرة جداً لتكون زوجة له، وأنها أشبه ما تكون بطفلة صغيرة، وأن عليه أن يعتني بها، وبأخذها بالحنينة والمحادثة، حتى يفتتها بشرب كأس الحليب، كما أن عليه أن يلمسها أحياناً بالهدايا الصغيرة.

وهو يتأمل ويعجب بالفرق الكبير بين زوجته. فعندما يكون مع شريفة، فإنها تقوم بالاهتمام بكل شيء، فتذكره بالمواعيد وتقوم بأعمال التنظيم والترتيب. فشريفة تضع سلطان في المقام الأول عندها، فتراعي حاجاته وطلباته. أما صونيا فإنها تفعل ما يطلب منها، لكنها لا تتخذ المبادرة أبداً.

لكن شيئاً واحداً لا يستطيع سلطان أن يمتزج عنه، إذا الساعات المختلفة التي يقضيها مع كل من المرأتين. فسلطان يهض باكراً عند الساعة الخامسة ليؤدي صلاة الفجر، وهي الصلاة الوحيدة التي يلتزم بها. فبينما تنهض شريفة معه وتقوم بتسخين الماء وإعداد الشاي وتقديم الثياب النظيفة إليه، فإن صونيا تكون أشبه بطفلة من المستحيل إيقاظها.

وفي أحيان يعتقد سلطان بأن هذا ليس عدلاً بالنسبة إلى صونيا، فهو كبير جداً بالنسبة إليها، لكنه عندئذ يقوم بتذكير نفسه أنها لم تكن لتستطيع أن تجد لنفسها بعلًا أفضل منه، فلو أنها تزوجت من شخص ما، في مثل عمرها، فإنه لم يكن ليتيسر لها الحصول على مستوى الحياة اللائقة التي تستمتع بها الآن. فلا بدّ ساعتها من أن تكون زوجة لشاب معدم فقير، ذلك أن جميع الشبان في قريتها هم من المعدمين الفقراء. لا يزال أمانا عشر إلى عشرين سنة من الحياة السعيدة، يفكر سلطان، فيستعيد وجهه تعبيراً قانعاً، ويشعر نفسه أنه شخص محظوظ وسعيد.

ويضحك سلطان. ويرتجش قليلاً إنه يقترب الآن من مايكرورايون ومن زوجته الطفلة الشهية.

الربيع فعلن أن تجعليني حبيباً؟

لقد انتهت الوليمة. فعظام الضأن، وأرجل الدجاج، تتناثر على الأرض. وكتل الأرز قد جرى تحريكها بلطف إلى ما فوق مفروش الطاولة، الذي بات ملطخاً بلون الصلصة الحارة ذات اللون الأحمر الغامق، بما يمازجها من بقع من اللبن الرقيق الأبيض. وكذلك فتات من الخبز، وقشور البرتقال المتناثر في الغرفة، كما لو أن هذه الأشياء قد جرى نثرها هناك في اللحظات الأخيرة بعد تناول الوجبة. وعلى الفرش الممدودة إلى جانب الجدران يجلس ثلاثة رجال وامرأة، وعند الزاوية القريبة من الباب تجلس امرأتان القرفصاء معاً أيضاً. فإلهما لم تشاركاً في الوجبة لكنهما تحدقان مباشرة تحت لفافيهما حيث تلتقي أبصارهما معاً.

فالأربعة الجالسون إلى جانب الجدار يستمتعون بالشاي الذي يرتشفونه مهدوء وإنعام تفكيراً بل بضجر وملل. فالنقاط الأساسية قد تمت تسويتها وجرى الاتفاق عليها. وكيل يتزوج شاكيبا، ورسول يتزوج بلبله. ولم يبق سوى تحديد المهور ومواعيد الزواج. فعلى الشاي واللوز المقشر تم تحديد مهر شاكيبا عند مئة دولاراً أما بلبله فليس لها مهر. ووكيل يحتفظ بالمبلغ جاهزاً فهو يسحب ورقة عملة من جيبه

ويعدها إلى سلطان. يتقبل سلطان ورقة النقد التي هي مهر أخته، بشيء من العجرفة، ويعبر بخالطه ميل إلى عدم المبالاة؛ إنه ليس بالمهر الكبير الذي يناله عن أخته. ومن جهة أخرى، فإن رسول يستحضر تهيلة تنم عن الاطمئنان والراحة. فلم يكن له بد من الكدح لمدة سنة على الأقل لجمع ما يكفيه من النقود من أجل شراء زوجة ودفع نفقات الزفاف.

وسلطان مستاء، ممعنض من ناحية أخته، إذ هو يعتقد أن مساكندهما قد أحصرهما كثيراً من عروض الزواج التي جاءتهما من عايطين متلهفين. فمنذ خمس عشرة سنة نزلت كان بإمكان كل منهما أن تحصل على عريس يكون أوفر مالا وشباباً.

"لقد كانتا نكدتين مشاكستين".

* * *

ومع كل ذلك، فلم يكن سلطان هو الذي ختم على مصيرهما، بل هي أمه بيسي غول، المتوجة على مقعد الشرف. وهي تجلس متريعة، قانعة بنفسها، متمايلة من ورك لآخر. ومصباح زيت الكاز يلقي وهجاً أنيساً على وجهها المتفخض. أما يداها فتستلقيان بثقل في حضنها بينما هي تبتسم بسعادة. ويبدو أنها لم تعد تصغي إلى الحديث الجاري. فهي نفسها كان قد زوّجها أهلها وهي لا تزال في الحادية عشرة من عمرها إلى رجل يكبرها بعشرين سنة. لقد أعطيت كجزء لتسوية فرق عقد زواج كان قد جرى بين عائلتين. إذ قد كان أهلها طلبوا يد إحدى بنات عائلة مجاورة لهم لابنهم، وعليه فقد قبلوا الشرط بأن تُرمى ابنتهم لتكون زوجة لابن تلك العائلة الأكبر غير المتزوج. كان العريس وكأنه قد عثر عليها صدفة في الحديقة الخلفية.

وبعد زواج طويل شهد ثلاثة حروب، وخمسة انقلابات عسكرية، وتخلله إنجاب ثلاثة عشر طفلاً، فإن هذه الأرملة كانت في نهاية الأمر قد أعطت الوعد بابتها الثالثة، وكذلك بابتها التي هي أكبر من أصغرها؛ وبذلك تبقى عندها ابنة واحدة. وكانت قد تمسكت بماتين البتين لوقت طويل، ولكن ما هما الآن وقد غطت كل منهما عامها الثلاثين، كما أنهما ليستا بشديدي الرغبة في سوق الزواج. ولكن زوجيهما هما أيضاً كبيرين متعيين. فالرجل الذي يخرج ذلك المساء من بيتها على أساس أنه قد بات خطيباً لابنتها شاكلاً، يزيد عمره عن الخمسين سنة، وهو أرمِل ذو عشرة أطفال. أما الزوج الذي انعقدت النية على تزويج بلبلة منه فهو أيضاً أرمِل، لكنه دون أطفال.

وقد كان لبيبي غول أسبابها الخاصة لتمسكها بابتها كل تلك المدة الطويلة، فبالرغم من أن الكثيرين يعتقدون أنها قد جارت عليهما. فإلها نصف بلبلة بأنها ليست شديدة الذكاء، بل إنها عديمة الحيلة والتفكير. وبيبي غول تصرّح بهذه المعلومة علناً، ودون محجل حق في حضور ابنتها. فإحدى يدي بلبلة شلاء وقليلة القوة، كما أنها تمشي بشيء من العرج. "إلها لن تستطيع أبداً إدارة عائلة كبيرة"، يقول عنها أمها.

وكان قد أصاب بلبلة مرض مفاجئ شديد عندما كانت في السادسة من عمرها، وعندما استعادت عافيتها، صار عندها صعوبة في التحول. ويقول أخواها إن ذلك كان شلل الأطفال، ولم يدر الأطباء بذلك، لكن بيبي غول تعتقد أن الطفلة قد عانت بسبب الحزن. فكل ما تعرفه هو أن بلبلة قد سقطت مريضة، ملقاة مسؤولية ذلك على دخول والد الطفلة إلى السجن إذ كان قد تم اعتقاله واتهامه باختلاس بعض المال من مستودع كان يعمل فيه. وتدعي بيبي غول بأن

زوجها كان بريئاً. ولقد جرى إخلاء سبيله بعد مرور بضعة أشهر لكن بلبلة لم تستعد عافيتها أبداً. "لقد نالت عقاباً بجميرة والدها"، تقول بيبي غول.

ولم تذهب بلبلة مرة إلى المدرسة، فلقد تسَلَّ المرض إلى داخل رأسها، ولم تعد قادرة على التفكير بوضوح، هذا ما احتج به والدها. وبقيت بلبلة تحوم حول والدها خلال أيام طفولتها. فلم يظهر منها الشيء الكثير نظراً إلى مرضها الغامض. ولكن في وقت لاحق فإن الحياة قلقتها إلى الهامش. فلم يعد لأحد أي عمل يعمل مع بلبلة؛ فلم يلعب معها أحد، ولم يطلب أحد منها أي مساعدة.

وقليلون هم الناس الذين عندهم أي شيء يقولونه لبلبلة، فهذه المرأة البالغة الثلاثين من عمرها لديها شيء من التواني والخمول الذين يحومان حولها، بينما هي تجر نفسها جراً في هذه الحياة، أو على هامش الحياة، فلها عينان واسعتان، فارغتان، وهي تجلس على وجه العموم بقم نصف مفتوح. فالشفة السفلى تتدلى قليلاً كما لو أن الفتاة على وشك الدخول في النوم. وفي أحسن الظروف تستطيع بلبلة الإصغاء إلى أحاديث الآخرين، وإلى حياة الآخرين، ولكن دون كثير من الحماس. وقد صارت بيبي غول مقتنعة أن بلبلة سوف تتحجر في أرجاء البيت وتنام على بساط بالقرب منها طيلة حياتها الباقية. لكن شيئاً ما، قد حصل، مما جعلها تقوم بتغيير رأيها. ففي أحد الأيام أرادت بيبي غول أن تزور أختها في القرية، فما كان منها سوى أن للممت تعباً لها (البوركا) وجرت ابنتها بلبلة خلفها ثم نادى على سيارة تاكسي. وهي في العادة تذهب مشياً على الأقدام، لكنها كانت قد زاد وزنها وشعرت بتثاقل في السنتين الأخيرتين حتى صارت ركبناها عاجزين عن حملها كما يجب، كما أنها لم تعد تملك تلك الطاقة على المشي. وحيث إنها

كانت قد خجرت الجوع في شبابه، كما خجرت الفقر والكدح عندما كانت زوجة شابة، فإن بيبي غول قد صار لديها شرة كبيرة على الطعام، بل ولع به؛ حتى صارت لا تستطيع التوقف عن الأكل إلا بعد أن تفرغ جميع الصحون.

أما السائق الذي توقف عند البوركا السمينة وابتها فلم يكن سوى قريبهما البعيد رسول. وكان قد فقد زوجته منذ سنوات قليلة؛ لقد ماتت أثناء الوضع.

"هل وجدت لك زوجة جديدة؟" وجهت بيبي غول سؤالها إلى سائق التاكسي.

"لا، ليس بعد" أجابها.

"هذا محزن، إن شاء الله سوف يكون لك زوجة جديدة في القريب العاجل"، قالت بيبي غول قبل أن تروي عليه آخر الأخبار عن عائلتها، وعن أبنائها، وبناتها وأحفادها.

وهما التقط رسول إشارتهما. وبعد بضعة أسابيع جاءت أخته إليهم طالبة يد بليلة. من المؤكد أنها تستطيع أن تقيم به كزوجة جاء في ذهن بيبي غول.

وهكذا وافقت بيبي غول دون تردد، وكان هذا أمراً غير معتاد أبداً. فلكي تقطع وعداً فوراً بزواج ابنة، فإن هذا يعني أنها لا تساوي شيئاً، وأن أهلها سيكونون في غابة السعادة للتخلص منها. بينما التريث والتلبث يعنيان زيادة في قيمة البنت؛ يتوجب على عائلة العريس أن يأتوا عدة مرات للترجي والإقناع وإحضار الهدايا. أما بالنسبة إلى بليلة فلم يكن هنالك خطوات كثيرة، ولم تقدم أي هدايا.

وفي الوقت الذي كانت فيه بليلة تحدى في الفضاء كما لو أن هذه المصادفة لا تعنيها بشيء، فإن أختها شاكيلا كانت تصغي إلى الحديث بعناية. فهاتان الأختان أشبه بالطيشور والجبن. فشاكيبلا سريعة وعالية النبرة، وهي في وسط انتباه العائلة. ومحبته للحياة متطورة جيداً. وهي لطيفة وممتلئة الجسم، كما يجدر بالمرأة الأفغانية أن تكون.

وكان قد تقدم إلى شاكيلا العديد من الخطابين على امتداد السنوات الخمس عشرة الماضية، منذ الوقت الذي كانت فيه لا تزال مراعاة نحلة إلى أن صارت الآن امرأة مبهجة لتظر الرجال، فهي هي تجلس في الزاوية خلف المدفأة تصغي بصمت إلى حديث أمها وأخيها وهما يساومان.

فلقد كانت شاكيلا ذاتها نيفة. فعندما كانت أمهات خطابها يتقدمن لطلب يدها من والدتها يبيي غول، فإن الأخيرة لم تكن لتسال السؤال المعتاد حول ما إذا كان الخطاب غنياً أم لا.

"هل ستسمحون لها بمتابعة تعليمها؟" كان هذا سؤال يبيي غول الأول.

لكن الجواب كان دائماً بآني بالنفي. وبناءً على ذلك، فإن الزواج كان يلو بخارج نطاق البحث. خاصة وأن كثيراً من الخطابين كانوا هم أنفسهم أميين. وهكذا أكملت شاكيلا تعليمها حتى صارت أستاذة رياضيات وعلوم طبيعية. ومع ذلك عندما جاءت المزيد من أمهات العرسان لخطبتها لأبنائهن، فإن يبيي غول صارت تسال السؤال التالي "هل ستسمحون لها بالاستمرار في عملها؟".

كلا لن يسمحوا لها. وهكذا بقيت شاكيلا عانساً.

وحصلت شاكيلا على وظيفتها التعليمية الأولى بينما كانت الحرب ضد الاتحاد السوفياتي مشتعلة. وفي كل صباح كانت تترنح

فوق كعبها العالي وتناورها التي لا تتجاوز الركبة، كما كانت موضحة الثمانينيات، وتتحه إلى قرية ديه غودايداد الواقعة خارج كابول. لم يكن هناك لا قذائف الرصاص، ولا القنابل، قرية من ذلك المكان. والشيء الوحيد الذي انتهب كان شاكيلا ذاتها؛ لقد وقعت في الغرام.

ولسوء الحظ، فإن محمود كان متزوجاً. وكان زواجه زوجاً رتبته عائلته ولا يقوم على حب. كان أكبر منها بضع سنوات، وهو أب لثلاثة أطفال صغار. وكان جيهما حباً من النظرة الأولى فور التقاء هذين الزميلين معاً. ولم يدرك أحد من الناس عن شعور الواحد منهما تجاه الآخر؛ كانا يجتبان عن مرأى الآخرين، أو يتحدثان عبر الهاتف هامسين بتفاهات جميلة في سماعة التلفون. ولم يتيسر لهما أي لقاء أبداً خارج المدرسة. وخلال واحد من لقاءاتهما المختلطة قاما بوضع الخطط لمستقبلها؛ سيقوم محمود باتخاذ شاكيلا كزوجة ثانية له.

ولكن محموداً لم يكن يستطيع الذهاب بكل بساطة إلى أهل شاكيلا ليطالب بدها. فلا بد له من أن يعتمد في ذلك على أمه وأخواته.

"إنهم لن يفعلن ذلك أبداً"، قال لها. "وأهلي لن يقولوا نعم أبداً"،

تنهدت شاكيلا.

وكان رأي محمود أن شاكيلا وحدها تستطيع أن تقنع أمه بالتقدم إلى عطيبتها من أهلها. فلقد اقترح عليها أن تنصرف تنصرف المحزون، واليأس وأن تهدد بالإقدام على الانتحار إذا لم تتزوج من محمود؛ وأن ترمي نفسها أمام أهلها؛ وأن تقول بأن الحب يستغرقها ويلتهمها، وعند ذلك فقط، فإن أهلها قد يرأفون بها، ويستقنون حياتها.

لكن شاكيلا لم تكن تمتلك الشجاعة كي تصرخ وتنادي،

ومحمود لم يكن يملك الشجاعة ليسأل نساء عائلته الذهاب إلى منزل

أهل شاكيلا. فهو لم يستطع حتى أن يذكر اسم شاكيلا مرة أمام زوجته. وعبثاً حاولت شاكيلا أن تفتح أمها بالأمر. فقد اعتقدت ببسب غول أن هذه هي مجرد نكتة، وعلى كل حال فهي قد اختارت أن تفسر هذه المفاتحة أنها مجرد نكتة كلما قالت لها شاكيلا إنها تحب أن تتزوج من زميل لها لديه ثلاثة أطفال.

وقد بقي محمود وشاكيلا يدور الواحد منهما حول الآخر في مدرسة القرية لمدة أربع سنوات. ثم حصل محمود على ترقية. وتغيرت مدرسته. ولم يستطع أن يرفض الترقية، والآن باتت الاتصالات بينهما تقتصر على المكالمات الهاتفية. وصارت شاكيلا حزينة إلى أعمق أعماقها، وبأخذها شوق إلى محبوبها، ولكن كان عليها ألا تدع أحداً يتنبه إلى حالها. ولقد كان وقوعها في غرام رجل لا يستطيع أن تحظى به، أمراً مذللاً.

ثم نشبت الحرب الأهلية، وأُغلقت المدرسة. وهربت شاكيلا إلى باكستان. وبعد أربع سنوات وصلت قوات الطالبان، ورغم أن الصواريخ قد هدأت، وأن الهدوء قد عاد إلى كابول، فإن مدرستها القديمة لم تُفتح مجدداً. وبقيت مدارس البنات مغلقة، ومثل جميع النساء في كابول، فقدت شاكيلا فرصتها بين ليلة وضحاها في الحصول على وظيفة جديدة. فخلنا معلمي كابول كانوا قد اختفوا معها. وعدد من مدارس الصبيان أيضاً كان قد أُجبر على الإغلاق، حيث إن عدداً كبيراً من المعلمين كان من النساء. ولم يكن يوجد عدد كافٍ من المعلمين للذكور لفتح كل المدارس. ومضت السنوات، واتصّلتها السري مع محمود كان قد انقطع بانقطاع خطوط الهاتف خلال الحرب الأهلية. هكذا جلست شاكيلا في منزلها مع نسوة البيت، فهي لا تستطيع أن تعمل ولا أن تخرج بمفردها، وصار عليها أن تتغنى وأن تتحجب. فقدت الحياة جميع ألوانها. وعندما بلغت الثلاثين من عمرها توقفت الخاطبون عن المجيء لخطبتها.

وفي أحد الأيام، وبعد أن كانت طالبان قد أوصلت شاكيلا إلى المستشفى لمدة خمس سنوات تقريباً، فإن أخت قريبهم البعيد وكيل جاءت أخيراً إلى ييسي غول لتطلب يداه.

"فزوجة وكيل كانت قد توفيت فجأة. والأطفال في حاجة إلى أم. وهو رجل طيب. كما أن لديه بعض المال. وهو لم يكن مرة مقساتلاً، كما أنه لم يقم بأي أعمال مخالفة للاستقامة، وهو مخلص وبصحة جيدة"، قالت عنه أخته. "لقد ماتت زوجته فجأة بعد أن أصيبت بشيء من العته"، قالت بصوت خفيض. "لقد بدأت تهذي، ولم تعد تميز أيّاً منا. كان ذلك فظيماً بالنسبة إلى الأطفال".

وولد عشرة أطفال يحتاج إلى زوجة على وجه السرعة. ففي الوقت الحاضر يقوم الكبير منهم بالاهتمام بالذي يليه، بينما البيت يعيش حالة تشتت وخراب. قالت ييسي غول إنها ستفكر في هذا الأمر وقامت بإجراء تحريات عن الرجل من أصدقائه وأقربائه. وقد استنتجت أنه كان رجلاً جاداً وأميناً.

وفي كل حال، لقد صارت المسألة لا تقبل التأجيل خاصة إذا كانت شاكيلا ترغب بأن يكون لها أولاد تقوم هي بإيجابهم.

"لقد كُتب على جبينها أن يكون هذا هو أوان خروجها من البيت"، قالت ييسي غول لكل من كان يرغب بالإصفاء إليها. وحيث إن طالبان لم تكن لتسمح للنساء بالعمل أبداً، فإنها لم تجد داعياً لطرح السؤال عليه إذا كان يقبل السماح لابنتها بالعمل.

لقد طلبت ييسي غول أن يأتي وكيل إلى بيتهم شخصياً. وفي العادة يقوم الأهل بإجراء ترتيبات الخطوبة والزواج، وحيث إن هذا الزوج كان يشارف على الخمسين، فإنها أرادت أن تنظر إليه هي مباشرة بعينها. وكان من عادة وكيل أن يفود عربة زراعية مقطورة ويخرج من بيته علة

أيسام في كل مرة. وهو قد أوفد أخته مرة ثانية، ثم أخيه، ثم أخته مرة جديدة. وهكذا فإن الإحرايات للخطوبة قد تخرجت وقتاً طويلاً. ثم جاء الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، ونقل سلطان أخواته وأطفاله مرة جديدة إلى باكستان ليأويهم بعيداً عن القنابل التي عرف أن لا بد لها من أن تسقط. وكان هذا عندما وصل وكيل. "سوف نتحدث في هذه الشؤون عندما تعود الأحوال إلى طبيعتها"، قال سلطان. وبعد أن تم طرد الطالبان من كابول بعد شهرين من ذلك، فإن وكيل قد عاد من جديد. ولم تكن المدارس قد فتحت بعد. وهكذا، ولمرة جديدة لم يخطر ببال بيبي غول أن تسأل وكيل ما إذا كان سيسمح لشاكيبا بالعمل.



ومن الزاوية خلف المدفأة تابع شاكيبا بإمعان تقدم الأمور بخصوص مصيرها وموعد زواجها. والأشخاص الأربعة الجالسون على الوسائد يقررون كل شيء قبل أن يتيسر للخطيب والخطيبة حتى فرصة واحدة لإلقاء نظرة على الآخر. ويختلس وكيل نظرة إلى شاكيبا. وهي تنظر نظرة مباشرة نحو الجدار وكأنها تحدق إلى اللاشيء. "إنني مسرور بالعثور عليها"، يقول موجهاً كلامه إلى سلطان، لكنه ينظر إلى عطيتته.

إن ساعة منع التحول ستحل بعد وقت قريب، وهكذا فإن الرجلين يعجلان بالخروج إلى العتمة. ويتركان وراءهما امرأتين باتتا مرتبطتين بالزواج، امرأتان تحدقان إلى الفراغ. فحتى عندما استأذن الرجلان بالخروج، فإن المرأتين لم تلتفتا إليهما. وتكۆم بلبلة نفسها وتنهذه إذ لم يأت دورها بعد. سيستغرق الأمر سنوات قبل أن

يتمكن رسول من جمع ما يكفي من المال لدفع نفقات العرس وهي تبدو غير مبالية. وتقوم بوضع مزيد من أعواد الحطب في المدفأة. لا أحد يضايقها بالأمثلة؛ إنما مجرد شخص حاضر كمعادنها، إلى أن تخرج قدميها إلى خارج الغرفة لتهنم بواجباتها البيتية، من غسل، ومس شطف.

وتحمرّ وجنتا شاكيلا عندما ترمي جميع أخواتها أنفسهن عليها.

"إنما ثلاثة أسابيع! عليك أن تستعجلي."

"لن أستطيع أن أنجز شيئاً"، تقول بشيء من التأوه. فمواد فستان العرس كان قد تمّ انتقاؤها فعلاً، وهي في انتظار أن يجري تسليمها إلى الخياطة. ولكن ماذا عن بقية الجهاز، ماذا عن الشراشف، وماذا عن الحشريات؟ فوكيل أرمل، وعليه: فلا بدّ من أن تكون لديه معظم هذه الأشياء. ولكن رغم ذلك، إن العروس يجب أن تنتهي هي نفسها بعض الأشياء للحياة الزوجية.

وشاكيلا ساحطة قليلاً. "إنه قصر القامة، وأنا أحب أن يكون الرجل طويلاً"، تقول لأخواتها. "ثم إنه أصلع، وكان من الممكن له أن يكون أصغر من هذا العمر بقليل"، تقول متحجّمة. "وماذا إذا تبين أنه مستبد؟ ماذا إذا تبين أنه غير لطيف؟ ماذا إذا عطر له أن يمنعني من الخروج؟" تقول متسائلة. لكن أخواتها لا يجيبها بشيء. وهن يفكرن الأفكار المتشائمة نفسها. "وماذا إذا عطر له أن يمنعني من زيارتكم، وماذا إذا كان سيضربني؟".

وتستمر شاكيلا وأخواتها في النظر إلى هذا الزواج من منظور عابس أكثر فأكثر حتى تصرخ فيهن ييبي غول بأن عليهن إقفال أفواههن. "إنه زوج جيد بالنسبة إليك"، تقول بإصرار.

وبعد يومين من توفيع العقد، تقوم مريم شقيقة شاكيلا، بترتيب حفلة للخطيبين، ومريم هذه في التاسعة والعشرين من عمرها وكانت قد تزوجت مرتين، زوجها الأول قتل خلال أحداث الحرب الأهلية، وطفلها الخامس سيولد في أي لحظة.

قامت مريم بفرش قطعة قماش طويلة على أرضية غرفة الجلوس. فجلس وكيل وشاكيلا عند أحد طرفيها. ولم تكن يبسي غول، ولا سلطان، حاضرين. فما دام كبير العائلة يستطيع رؤيتهما فإن عليهما أن يتحاشيا أي اتصال مباشر أحدهما مع الآخر. ولكن الآن، ولأنهما عاططان بأقاربهم الأصغر منهما، فإلحما يتحدثان بصوت خفيض وهما يكادان لا يشعران بوجود الآخرين الذين هم مستميتون في محاولتهم لالتقاط أي جزء من المحادثة.

لم يكن الحديث حميماً إلى درجة ملفتة. فعلى وجه العموم كانت شاكيلا توجه حديثها إلى الهواء، فوفقاً للتقاليد ينبغي عليها تحاشي السقاء نظرها بنظر خطيبها قبل الزواج؛ أما هو فلم يكن يرفع نظريه عنها طيلة الوقت.

"إنسي أفتقدك. إنني أكاد لا أستطيع انتظار أسبوعين قبل أن تصبحي لي"، يقول لها. تتورد وجنتا شاكيلا وتتابع النظر إلى الفراغ. "إنني لا أستطيع النوم في الليل من فرط تفكيري فيك"، يتابع قائلاً. ولكن شاكيلا لا تظهر أي ردة فعل. "ما رأيك في هذا الذي يجري معي؟" يسألها.

لكن شاكيلا تستمر في الأكل.

"تصوري، عندما نتزوج، وتقومين أنت بإعداد الطعام لي. وعندما أعود إلى البيت، ستكونين دائماً هناك بانتظاري"، يتابع وكيل أحلامه. "لن أكون وحيداً مرة جديدة".

وممستك شاكيلا بلسالها لكنها تستجمع ما يكفيها من الشجاعة لتسأله عما إذا كان سيسمح لها بالعودة إلى العمل بعد أن يتزوجا. ويوافق وكييل، لكن شاكيلا لا تصدقه. فهو قد يدل رأيه بعد زواجهما مباشرة. لكنه يؤكد لها بأنه إذا كان العمل يسعدنا، فإنه لا يمنع في ذلك. ولكن ذلك بالطبع بأن بعد أن تعطي الأطفال حقهم والبيت أيضاً. ثم يتلعق فبته، "الباكول" البنية التي يعتمرها في العادة مؤيدو قائد قوات التحالف الشمالي أحمد شاه مسعود الذي كان قد تم اغتياله.

"هذا يجعل منظر ك قبيحاً"، تقول شاكيلا بوقاحة. "فانت أصلع".
والآن جاء دور وكييل ليشعر بالارتباك. فهو لم يجب على إهانات خطيئته، لكنه وجه الحديث إلى جهات أكثر سلامة. وأمضت شاكيلا يومها في أسواق كابل، تشتري الأشياء التي ستحتاج إليها للزواج، والهدايا لجميع الأقارب، أقاربها وأقارب زوجها. فوكيل سيقوم بتوزيع الهدايا كمبادرة محبة تجاه أفراد عائلتها الذين سيعطونها له، فهو يدفع وهي تشتري، فمن الأولاي إلى اللقالي، إلى أدوات للطبخ، إلى الشرشف، إلى المناشف، إلى الثياب الرجالية العائدة له ولرسول. فقد كانت قد وعدت رسول خطيب ببليلة أنه يستطيع أن يختار اللون الذي يعجبه، فهي تتكلم عن مشتريات، وهو يسألها عن لون القماش.

"واحد أزرق والثاني بني"، تجيب شاكيلا.

"أيهما يعود لي؟" يسألها.

"لست أدري، إن رسول يستطيع الاختيار أولاً".

"ماذا؟" يقول وكييل في دهشة. "لماذا؟ يجب أن أكون أنا أول من

يختار فأنا زوجك".

"حسناً، أنت تختار أولاً"، تجيب شاكيلا. "ولكن كليهما جيدان"،

تقول له بينما هي تنظر أمامها.

ويشعل وكيل سيجارة. "إنني لا أحب التدخين" تقول شاكيلا. "كما لا أحب الناس الذين يدخنون. وإذا كنت ستدخن، فإني لن أحبك أيضاً". رفعت شاكيلا نبرة صوتها، فسمع الجميع عبارتها المهينة. "من الصعب عليّ أن أتوقف عن تدخين سيجارتي"، حيث إنني قد أشعلتها، يحببها وكيل بخنوع. "لكن راحتها لا نطاق"، تنابع شاكيلا. "عليك أن تكوني أكثر أدياً"، يقول لها وكيل. ولكن شاكيلا لا ترد عليه.

"كما أن عليك ألا تتكشفي. فإن من واجبات المرأة أن ترتدي البوركا. ولك أن تعلمي ما تشائين، لكن إذا لم تقومي بارتداء البوركا، فإن ذلك سيحزني، وهل تريدني أن أشعر بالحزن؟" يسألها وكيل بلهجة متوعدة.

"ولكن إذا كانت كابول قد تغيرت وبدأت النساء بارتداء الملابس الحديثة، فإني سأفعل مثل ذلك أيضاً" تقول شاكيلا. "لن تلبسي الأزياء الحديثة، أتريدني أن تجعليني حزينا؟". لكن شاكيلا لم تحب بأي جواب.

يستمخرج وكيل بعض الصور الشخصية التي هي بحجم صور الباسبور من محفظته، ينظر إلى تلك الصور، يعطي واحدة منها إلى شاكيلا، "هذه صورة لك، وأريد أن تجعلها بالقرب من قلبك". لكن شاكيلا تحافظ على نظرة مستقيمة وتتقبل الصورة بغير حماس.

صار على وكيل أن يغادر. فلم يعد هنالك وقت طويل قبل أن يبدأ وقت منع التحول. يسألها كم ستحتاج من النقود لإكمال مشترياتها، تجيبه بحسب ويقدر، ويعطيها بعض أوراق البنكنوت ويعيد الباقي إلى محفظته.

"هل هذا يكفي؟" تخفض شاكيلا رأسها بالإيجاب. يتبادلان كلمات الوداع. يخرج وكيل؛ وتضطجع شاكيلا على الوسائد الحمراء. وتنفس عن تنهيدة تشير إلى شعورها بالراحة، وتتناول قطعاً قليلة من اللحم. لقد فعلتها، إذ عليها أن تبدو باردة ومتناية عنه حتى يتزوجها. فهذا يدل على أخلاق حميدة لعائلتها التي ستركها.

"أتعجبينه؟" تسألها أختها مرم.

"حسناً، نعم وكلاً."

"هل أنت عاشقة؟"

"همم."

"وماذا تعني كلمة همم؟"

"إنها تعني همم"، تقول شاكيلا. "أي لا نعم ولا كلا. فهو كان بإمكانه أن يكون أصغر عمراً وأكثر وسامة"، تقول وتدير بأنفها. فهي تبدو أشبه بطفلة غاب أملها لأنها لم تحصل على اللعبة التي تمشي وتنكلم، كما أرادتما، بل حصلت على مجرد لعبة مصنوعة من خرق القماش بدلاً منها.

"إنني حزينة، وهذا كل شيء"، تقول "إنني نادمة، وإنني حزينة لأنني سأغادر عائلتي. ماذا إذا كان سيمعني من القيام بزيارتكم؟ ماذا إذا كان سيمعني من العمل، خاصة وأن العمل الآن قد بات مسموحاً؟ ماذا إذا كان سيقفل عليّ الأبواب؟"

تصدر بقبقة عن مصباح الزيت. وتصبح الأخوات غارقات في الأفكار السوداء. الأفكار التي يمكن للمرء أن يتأمل فيها سلفاً.

نواهي طالبان

عندما تدفقت قوات طالبان إلى داخل كابول في شهر أيلول/سبتمبر من العام 1996، فإن ست عشرة قاعدة قانونية كانت قد أذيعت من راديو الشريعة. ذلك أن عصرًا جديدًا قد ابتدأ.

1. منع تكشف الحريم

يمنع على السائقين نقل النساء اللواتي لا يلبسن البوركا تحت طائلة التعرض للتوقيف. فإذا شوهدت نساء من هذا النوع في الشوارع، فإن بيوتهن سوف تتخل، وسيُعرض أزواجهن للعقاب. وإذا لبست النساء ثياباً مثيرة أو مغرية ولم يكن لهن قريب ذكر برفقتهن، فإن على السائق منعهن من الدخول إلى عربته.

2. تحريم الموسيقى

إن أشرطة الكاسيت والموسيقى ممنوعة في الدكاكين، والفنادق، والعربات، وفي عربات الركشة. فإذا وجدت أشرطة كاسيت موسيقية، فإن صاحب الشريط سيتعرض للسجن كما أن الدكان سوف يُغلق. أما إذا وجد شريط الكاسيت في عربة، فسوف تُحجز، والسائق سيسجن.

3. تحريم الحلاقة

كل من يحلق لحية أو يبالغ في تقصيرها سوف يسجن إلى أن تنمو لحيته إلى حجم قبضة اليد.

4. إلزامية الصلاة

يجب مراعاة الصلاة في أوقاتها المحددة في جميع المناطق، وسوف يعلن عن المواقيت الدقيقة بالضبط، بواسطة وزير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويجب أن تتوقف جميع أعمال المرور في الشوارع قبل خمس عشرة دقيقة من حلول موعد الصلاة. والذهاب إلى الجامع إلزامي خلال وقت الصلاة. فأى شباب يمكن العثور عليهم في المحلات التجارية في هذه الأوقات سيتعرضون للسجن الفوري.

5. تحريم تربية الحمام ومبارزات الطيور

هذه العادة يجب أن تتوقف، وطيور الحمام التي تستعمل في غرض الأكاب أو القتال سوف تذب.

6. منع المخدرات واستعمالها

إن مسمني استعمال المخدرات سوف يعاقبون، وستعمل تحريات من أجل تطهير المجتمع من المروجين وأصحاب المحلات. وسوف يخلق المحل ويساق المجرمون، والمتعاطي منهم، والمروج، إلى السجن لنيل عقابهما.

7. تحريم استعمال الطيارات الورقية

إن تطيير الطيارات الورقية له عواقب وخيمة، من أمثال المقامرة. وحصول الوفيات بين الأطفال وتشتي غيابهم. فالمحلات التي تباع الطيارات الورقية سوف تزال.

8. تحريم طباعة الصور

يجب نزع الصور من العربات والمحلات التجارية، والمنازل، والفنادق، والأماكن الأخرى. وعلى أصحاب الأملاك والمؤسسات تدمير جميع الصور في الأماكن المذكورة أعلاه وسوف يتم إيقاف جميع العربات التي تحتوي على صور لمخلوقات حية.

9. **تحريم المقامرة**
مراكز المقامرة سوف تُغلق تماماً، وسيُسجن المقامرون لمدة شهر واحد.
10. **تحريم قصص الشعر البريطانية والأميركية**
سيتم اعتقال الرجال الذين يرسلون شعرهم وسُجلبون إلى وزارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لجز شعرهم، وسيكون على المجرم دفع أجرة الحلاق.
11. **تحريم الفائدة وارقى صرف العملة والرسوم على التعاملات المالية**
إن هذه الأنواع الثلاثة من تبادل النقود محرمة في الإسلام. فلذا جرى تجاوز هذه القواعد، فإن المجرم سوف يتعرض للسجن لمدة طويلة.
12. **تحريم غسل الملابس على ضفاف الأنهار**
إن النساء اللواتي يكسرن هذه القاعدة سوف يؤخذن بطريقة إسلامية محترمة إلى منازلهن إلا أن أزواجهن سيتعرضون إلى أشد العقاب.
13. **تحريم الموسيقى والرقص في حفلات الزواج**
إذا كسر هذا المنع، فإن سيد العائلة سيتعرض للاعتقال والعقاب.
14. **تحريم قرع الطبول**
ستقوم الهيئة الدينية بتقرير العقوبات المناسبة التي يمكن إنزالها بمن أدرك وهو يقرع الطبول.
15. **منع الخياطين من خياطة الأنوار النسائية، ومن أخذ القياسات للنساء**
إذا وجدت أي مجلات موضوعة في المحل، فإن الخياط سيتعرض للسجن.
16. **تحريم أصال للشعر**
كل الكتب التي تتعامل في هذا الموضوع وكل السحرة سيسجنون إلى أن يعلنوا توبتهم.

وبالإضافة إلى هذه القواعد القانونية الست عشرة، فإن نداء منفصلاً موجهاً إلى نساء كابول كان قد جرت إذاعته!

ليست النساء، يجب عليهن عدم مغادرة بيوتكن. وإذا خرجن، فإن عليهن عدم التمثيل بالنساء اللواتي يلبسن الثياب المتقوفة، ويضعن الماكياج ويكشفن أنفسهن لكل رجل، كما كان الحال قبل أن يدخل الإسلام إلى هذه البلاد.

فالإسلام هو دين الحرية، وقد تقرر أن هناك حرمة معينة تلتصق بالنساء. فعلى النساء ألا يجعلن استغلات اهتمام الأشرار إليهن أمراً مكملاً، لأنك الأشرار الذين ينظرون بشهوة إليهن وإن من مسؤولية المرأة أن تجمع أفراد عائلتها معاً، وأن تهتم بطعامهم ولباسهم. فإذا احتاجت النساء مغادرة البيت، فإن عليهن تغطية أنفسهن وفقاً لقانون الشريعة. فإذا لبست النساء ثياباً لينة أو وضعن عليهن حللاً، أو لبسن ثياباً ضيقة، أو مفرجة للتبرج والظهور، فإنهن سيحترقن ملعونات من الإسلام والشريعة... وسوف يجري معاقبتهن بقسوة على يد البوليس الديني، كما سيحلق سيد العائلة، وعلى البوليس الديني واجب ومسؤولية مكافحة هذه المشاكل العائلية حتى يتم اجتثاث هذا الشر.

والله أكبر.

تاهول، زفرقة، زفرقة

هي لا تنفك تفقد أثر البوركا المرفرفة، تلك البوركا المرفرفة التي يصعب تمييزها على أي بوركا أخرى. فالسماة زرقاء صافية في كل مكان. لكن عينيها متجهتان إلى الأرض، إلى الوحل حيث يمكنها أن تميز الأحذية الوسخة عن سواها من الأحذية الوسخة الأخرى. وهي تستطيع أن ترى زركشة السراويل البيضاء، كما تستطيع أن تلتقط إلماحة إلى حافة الغستان البنفسجي الذي جرى ارتداؤه فوق السراويل. فهي تمشي في أرجاء البازار ناظرة إلى الأرض متبعة البوركا المرفرفة. وثمة بوركا أخرى حبلى حتى آخر الدرجات تأتي خلفهما لاهثة. فهي تحاول باستماتة أن تبقى على مسافة قريبة من البوركتين الشيطيتين اللتين تسيران أمامها، وأن تحتفظ بسرعة تساور مشيتهما.

فأما البوركا القائدة فقد توقفت بالقرب من الدكة التي تعرض عليها شراشف الأسرة. تتحسس القماش وتحاول أن تتأكد من لونه من خلال فتحة النظر ذات القماش المشبك. ثم تقوم بمساومة البائع الواقف عبر الدكة، حيث لا تمكن رؤية العينين السوداوين سوى بصعوبة خلف شبكة القماش. تحرك البوركا ذراعيها في الهواء. ويرى الأنف من خلال طيات الحجاب كأنه منقار. وأخيراً فإنها تقرر رأيها فتمد يدها إلى

حقيقتها وتفتش عن رزمة من أوراق البنكنوت الزرقاء. يقوم بالتحقق
شراف الأمانة بقياس القماش الأبيض الذي تحالجه نقوش هي عبارة
عن رسومات وأزهار زرقاء شاحبة، تختفي القماش داخل كيس عمول
في داخل البوركا. وتنتشر روائح الرعفران والثوم، والفلفل الجفف
لتمزج بروائح العرق والأنفاس والرائحة القوية للصابون. ومادة
النابلون كثيفة بحيث إن المرء يستطيع أن يشم رائحة أنفاسه نفسها.
وتقوم البوركات بالطواف على المكان الذي تباع فيه أباريق الشاي
الروسية الرخيصة المصنوعة من الألومنيوم. فيتجسسون، ويسألون،
ويؤشرون، ثم يقبلون. وكذلك إبريق الشاي نفسه يختفي تحت طيات
البوركا ذاتها التي صارت الآن تفيض بالأوعية والقنور، والقلايات
والماسح والفراشي وهي لا تزال يكبر حجمها أكثر فأكثر. وخلف
البوركا الأمامية تأتي بوركات أقل عزمًا وتصميمًا. وتتوقف البوركات
التابعتان لتتشم الحلي البلاستيكية وتحسبها، كما لفحص الأساور
الملونة بلون ذهبي، وذلك قبل التطلع إلى البوركا القائدة التي قد
توقفت أمام عربة طافحة بالصداري النسائية التي يخالط بعضها بعضًا.
فمنها الأبيض والأصفر الباهت، وهي لها أشكال وقصات متشابهة.
فبعضها معلق على عمود، ويتحرك دون حمل مع الريح. وتتجسس
البوركات تلك الصداري وقياسًا بيدها. وتخرج الكفان معاً من طيات
البوركا، وتتفحصان مرونة المطاط وحجم الأكواز، ويتقدير بصري.
يقر قرارها على واحدة قوية من بينها تشبه مشد الحصر.

ثم تتابع النساء طريقتهن محركات رؤوسهن في جميع الاتجاهات من
أجل رؤية أفضل. فالنساء اللابسات للبوركات، هم أشبه بالخيل التي
توضع لها غمائم: فهن لا يستطعن الرؤية إلا في اتجاه واحد. فحيث
يضيق مجال الرؤية، يتوقف القماش المشبك لتحل محله مادة القماش

الكثيفة بحيث تستحيل الرؤية إلى الجاهلين. لذلك فلا بد من إدارة الرأس بكامله. وهذه حيلة جديدة للذي اخترع البوركا! فإن على الرجل أن يكون دارباً على الدوام إلى أين تتوجه زوجته بأنظارها.

وبعد قليل من التلفت، تعثر البوركتان اللتان في الخلف على البوركا القائلة في الأزقة العائدة للجزء الداخلي من البازار حيث كانت تصان حاشية الشريط. شريط ثخين من يشبه الطراز السوفياتي لطواف المرادي. وتستهلك وقتاً طويلاً على تقسيم الشريط، فشرء هذه المادة شديد الأهمية، الأمر الذي دعاها إلى رفع قطعة المحاب الأمامية فوق رأسها من أجل إمعان التدقيق في ما تشتريه، متحذية بذلك أوامر زوج المستقبل التي تقضي بأنه لا ينبغي عليها أن تمكن أحداً من رؤية وجهها. إذ إنه يصعب الحكم على الشريط من وراء القماش المشبك. ولا يرى وجهها سوى البائع الواقف خلف النضد. حتى وهي في الهواء البارد لجبال كابول، فإن وجهها كانت تغطيه حبات العرق. وغز شاكيلا رأسها ذهاباً وإياباً وتبتسم بتعابث وتضحك وتساوم، بل وتعابث أيضاً. فتحت السماء الصافية يستطيع المرء أن يتحرى عن لعبتها المفاج. فهي تقوم بهذا الأمر دائماً، والبائع يستطيع تفسير مزاج البوركا التي تحرك رأسها وتتمايل بكل سهولة. فهي تستطيع أن تعابث بإصبعها، أو بقدمها، أو بحركة يدها. فشاكيلا تربط وجهها بشريط يحول فحاة من شريط سستارة إلى شريط للمحباب، وهي المادة الباقية اللازمة لفستان الزفاف. وبالطبع إن الطرحة البيضاء تحتاج إلى شريط عند نهايتها. ثم عكّدت الصفقة. ويأخذ البائع القياسات، وتبتسم شاكيلا، ويغيب الشريط في الكيس الذي هو تحت البوركا، ويعود غطاء الوجه إلى النزول كما يجب عليه أن يكون. وتتلوى الأخوات الثلاث إلى درجة أكثر امتداداً في البازار حيث تصبح الزواريب أضيق فأضيق.

هنالك حلبة من الأصوات، مهمة مستمرة. وقليل جداً من البالعين ينصب اهتمامهم على بضائعهم، معظمهم منهمك في القيل والقال مع جيرانه، وبعضهم يتكاسل فوق كيس طحين أو كومة من السجاد، ويبدو الجميع متابعين حياة البازار أكثر مما هم حريصين على استلغات الأنظار إلى بضائعهم. فالزبائن يشترون ما يطيب لهم في نهاية الأمر، كائناً ما كان الجهد الذي يبذله البائع.

وقد بدا كما لو أن الزمن قد توقف في بازار كابول. فالبضاعة هي نفسها منذ أن كانت تمرض في الزمن الذي طاف فيه بما الملك داريوس الفارسي منذ العام خمسة قبل الميلاد. فعلى السجاجيد الكبيرة تحت السماء المفتوحة، كما في الأكشاك المركومة، فإن الفاجر واللازم يضطجمان جنباً لجنب. يقوم بتقليه كل زبون فطن بصير، فالفستق، والمكسرات، والشمش المجفف، والزبيب الأخضر، كلها تحفظ في أكياس كبيرة من الخيش، والحبوب المهجنة الصغيرة من ثمار الليمون، ملقاة على عربات متقلقلة، وجلودها شديدة الرقة بحيث إنها تؤكل بقشرها. وأحد البائعين لديه أكياس فيها بعض الدجاجات المفروسة المقوفة. أما تاجر البهارات فلديه الفلفل الحار، والفلفل الإفرنجي، والكاري، والزنجبيل، وكلها مكدومة فوق عربته. كما أن تاجر البهارات يتصرف أيضاً كصيدلي أو كطبيب، فهو يصف الأعشاب المجففة، والجنود والفواكه، والشاي يدقة صيدلي، وحصافة طيب، وهو يشرح أن وصفاته تشفي من كل الأمراض، من البسيط منها إلى الغامض المعقد.

فمن الكربيرة الطازجة، إلى الثوم، إلى الجلد، إلى المال، كلها تتمازج مع روائح الممارير الآتية من النهر، وجرى المياه الجاف قلر الرائحة الذي يفصل البازار إلى صفتين. وعلى الجسر فوق النهر، تعرض

شباب مصنوعة من جلد الخراف الثخين. وهي معروضة للبيع إلى جانب منسوجات قطنية بعدة أنساق وألوان، إلى جانب السكاكين والمخاريف والمعاول.

ومن وقت لآخر، يقع المرء على بضائع لم تكن معروفة في أيام داريوس. فمن البضائع المهربة، مثل السجائر التي تحمل أسماء غريبة من أمثال اللثة، والنسمة، والصنوبر؛ إلى الكوكا كولا المهربة من باكستان. أما الطرقات التي يستعملها المهربون فلم تتغير كثيراً خلال القرون. فإما تأتي البضائع من معبر عمر خيمر من باكستان، أو من فوق الجبال من إيران. وبعض البضائع المهربة تنقل على ظهر البغال، كما يُنقل بعضها الآخر عبر الشاحنات التي تمر عبر الممرات نفسها التي تستعمل لتهرب الأفيون، والميرونين، والخشيشة. أما النقود التي تستعمل؛ فهي نقود حديثة، نقود الصرافين الذين هم أصحاب العباءات والعمائم. وهم يقفون في صف طويل، حيث يمسك كل واحد منهم برزم كبيرة من أوراق البنكوت الأفغانية الزرقاء التي يساوي كل خمس وثلاثين ألفاً منها دولاراً واحداً.

أحد الرجال يبيع صنفاً من المكناس الكهربائية التي تحمل ماركة نوسيونال (Notional) بالسعر نفسه. ولكن كلاً من الماركة الأصلية، والمقلدة، رديتاً البيع بسبب الإمداد الشحيح للكهرباء الذي تشهده كابل، فمعظم الناس يلجأون إلى مكناس القش العادية. والأحذية التي تنتقل فوق الغبار، وكلها لا تختلف كثيراً عن أن تكون صنادل بنية، أو أحذية وسخة، أو أحذية بالية، ومن وقت لآخر يلحظ المرء زوجاً من الأحذية الجميلة، أو من الأحذية البلاستيكية زهرية اللون المزينة ببعض العقد. حتى إن بعض الأحذية بيضاء، وهو لون للأحذية كانت قد حظرت طالبان ذلك لأن اللون الأبيض هو لون علمها. كما أن طالبان

قد منعت استعمال الأحذية التي لها كعاب جامدة، فقططقة كعاب النساء يمكن أن تسببت انتباه الرجال وتشغلهم عن شؤوهم. ولكن الزمن قد تغير، وإذا كان من الممكن أن تسمع طقطقة الكعاب في الأوحال، فإن السبازار بكامله سيردد صدى طقطقات الـ: كليك كلاك. ومن وقت لآخر يلمس المرء أظافر قدمين مطبقة من تحت البوركا، فهذه إشارة أخرى صغيرة إلى الحرية. فالطالبان كانت قد حرمت طلاء الأظافر وفرضت حظراً على استيراد الطلاء العائد لها. وهناك عدد قليل من النسوة غير المحظوظات اللواتي قطع جزء من أصابع أيديهن أو أقدامهن عقاباً لمن على ارتكائهن لجرعة عنيفة النظام القانوني. أما حركة تحرير النساء خلال الربيع الأول الذي تلا سقوط طالبان، فقد اقتصر على مستوى الأحذية وطلاء الأظافر ولم يصل حتى الآن إلى مستوى أعلى من الحافة المطلقة بالطين من البوركا التي تلبسها المرأة.



ليس لأمن لم يحاولن، فعند سقوط الطالبان تشكلت كثير من الاتحادات النسائية. حتى إن بعضها كانت ذات نشاط حتى خلال فترة الطالبان، تقوم بتأمين تعليم البنات مثلاً، وتسهر على تعليم النساء حول النظافة، وتقيم دروساً نحو الأمية، والبطلة الكبيرة منذ أيام طالبان هي وزيرة الصحة في حكومة كارزاي، سهيلة صديق، وهي المرأة الأفغانية الوحيدة التي تحمل رتبة جنرال، فلقد تابعت تدريس الطب للنساء، وتمكنت من إعادة فتح قسم النساء في المستشفى الذي كانت تعمل فيه بعد أن كانت طالبان قد أغلقته. لقد كانت واحدة من النساء القليلات اللواتي رفضن ارتداء البوركا حتى تحت حكم طالبان. فبكلما الخاصة بها: "وعندما أتى البوليس الديني بخيصرانا قم ورفعوا أذرعهم ليضربوني، فلاني رفعت خيصراني لأضربهم أيضاً، ثم خفضوا أذرعهم، وتركوني في حالي".

ولكن حتى سهلة ذاتها نادراً ما كانت تغامر بالخروج أثناء حكم الطالبان. فقد كان شخص ما، يقود سيارتها إلى المستشفى كل صباح بينما هي متلعة ببطانية كبيرة ثم يقود سيارتها في المساء لإعادتها. "إن النسوة الأفغانيات فقدن الثقة بأنفسهن"، قالت بحمارة بعد سقوط الطالبان.

فقد حاول تنظيم نسائي أن ينظم تظاهرة بعد أسبوع واحد من هروب الطالبان. فنجمت النساء في مايكرورايون، مجمعن وهن يتعلن الأخفاف والمشابات، ليقمن بالزحف نحو العاصمة. وكان معظهن قد ألقى البوركيا باستخفاف بحلف الأكتاف، لكن السلطات أوقفت التظاهرة بحجة أنها لا تستطيع أن تضمن سلامة النساء. وفي كل مرة كن يحاولن التجمع، فإنهن كن يمنعن من ذلك.

أما الآن، فإن مدارس البنات قد أعيد فتحها وتقاطر الشابات إلى الجامعات، حتى إن بعضهن استعدن وظائفهن القديمة. وهناك مجلة أسبوعية صارت تنشرها النساء من أجل النساء، ولا يترك حامد كاريضي فرصة تلوح دون أن يذكر بحقوق النساء.

وكثير من النساء كن بارزات أثناء الجمعية التشريعية لوبا جيرغا في شهر حزيران/يونيو من العام 2002 أما أشهرهن فهن أولئك اللواتي كان يسخر منهن الرجال المعمون في الجمعية التشريعية، لكنهن لم يستسلمن. فقد كانت واحدة منهن قد طالبت بإعطاء وزارة الدفاع لامرأة رغم صيحات الاستهجان والاستنكار. "فرنسا لديها وزيرة دفاع" قالت لهم.

ولكن قلما تغير شيء في أذهان الجماهير، ففي العائلات، فإن التقاليد هي كل شيء؛ والرجال هم الذين يقررون. وعند قليل فقط من نساء كابل كن قد نبذن البوركيا خلال فصل الربيع الأول الذي أعقب سقوط الطالبان. وقليل منهن أيضاً هن اللواتي يعرفن أن جلدن

من النساء الأفغانيات في القرن الماضي كن غريبات على البوركا، فلقد كانت البوركا تستعمل منذ قرون عديدة لكن من قبل أعداد كبيرة من السكان. ولقد أعيد إدخالها للاستعمال خلال فترة حكم حبيب الله التي استمرت من عام 1901-1919، فقد سن قانوناً يقول: إن على المئني امرأة في قصر الحرم لديه أن يلبس البوركا حتى لا يقمن بإغراء الرجال بوجوههن الجميلة عندما يكن خارج أبواب القصر. وكانت حجاباتهن منسوجة من الحرير الذي يحمل تزييناً ناعماً دقيقاً، أما أميرات حبيب الله فقد كن يلبسن عباءات البوركا المطرزة، بخيوط من الذهب. وهكذا صارت البوركا عباءة النساء من الطبقات العليا، فهي تمحجب أولئك النسوة عن عيون عامة الناس. وخلال الخمسينيات، كان استعمال البوركا واسع الانتشار، لكن استعمالها كان يقتصر على الأغنياء فقط. وتمحجب النساء كان له أيضاً معارضة. ففي العام 1959 هز الأمير داود رئيس الوزراء، الشعب عندما ظهر مع زوجته في العيد الوطني، وكانت هي لا تضع البوركا على جسدها. وقد قام بإقناع أخيه بأن يجعل زوجته تقوم بالشيء نفسه. كما قام بإقناع الوزراء بجعل نسائهم يطرحن البوركا. ولم يأت صباح اليوم التالي حتى كانت النسوة في شوارع كابول يتحولن بمخاطف طويلة ونظارات سوداء وقبعات صغيرة، وهن النسوة أنفسهن اللواتي كن في السابق يخرجن بغطاء كامل. ومثلما ابتداء استعمال البوركا مع الطبقات العليا، فلقد بدأ طرح البوركا جانباً على أيدي طبقه القوم أنفسهم. فقد كانت العبادة قد أصبحت رمزاً لرفعة المقام بين الفقراء، وكثيرات من المخدمات كن قد أخذن بوركات الحرير العائدة إلى سيداتهن. وفي بداية الأمر كان الباشتون الحاكمون هم وحدهم الذين يفظون نسائهم، ولكن الآن أخذ هذه العادة عنهم جماعات إثنية أخرى. لكن الأمر

داود أراد أن يحصل بلده من البوركيا بشكل كامل. وفي العام 1961 تم تمرير تشريع حرم استعمال البوركيا على للموظفات العاملات في الدولة. فقد كان يجري تشجيعهن على ارتداء الملابس الغربية، وقد احتاج الأمر إلى عدة سنوات قبل أن يوضع موضع التنفيذ، ولكن في السبعينيات كان بندر أن يرى المرأة معلمة أو سكرتيرة في كابل دون أن تكون تلبس ثوباً وبلوزة؛ بينما كان الرجال يلبسون البدلات الإفرنجية. ومع ذلك، فإن النسوة القصيرات الثياب كن يجازفن بأن تطلق النار على سيقانهن أو أن يطرح أو يرش الأسيد على وجوههن على يد الأصوليين. وعندما انفجرت الحرب الأهلية وساد القانون الإسلامي، فإن المزيد والمزيد من النساء بدأن بالتغطي والتحجب، وعندما وصل الطالبان، فإن جميع الوجوه النسائية كانت قد اعتفت تماماً من شوارع كابل.

* * *

وغابت النعال العائدة إلى البوركيا القائدة بين سواها من النعال فوق واحد من جسور المشاة الضيقة المبنية فوق ساقية، ماء حافة. ووراءها مسافة بعيدة قليلاً كانت صنادل أختيها قد علقت بين الجموع. فهن لا يستطيعن سوى التحرك بحسب حركة الجمهور ولم يعد من الممكن أن تتابع الواحدة منهن أحذية رفيقتهما فضلاً عن إمكانية التوقف أو الاستدارة، فقد صارت بوركياتهما مطوقتين بسواهما من البوركيات، كما بالرجال الذين يحملون البضائع فوق رؤوسهم، ونحت أذرعهم، وعلى ظهورهم، فلم يعد باستطاعتهم النظر إلى الأرض.

وعلى الجانب الآخر، كانت اثنتان من البوركيات تقتشان عن بوركيا واحدة. إحدى هذه البوركيات تتعل زوج أحذية سوداء وسراويل لها شريط أبيض وأما حاشية الفستان فهي أرجوانية؛ إحدى

البوركات الأخرى كانت تتعل صندالاً أسود، ولها حاشية ثوب سوداء، أما البوركا الأكثر نخافة فكانت تتعل حذاء بلاستيكيًا زهري اللون وترتدي سروالاً بنفسجياً ذا شريط. لقد اعتدت البوركات بعضها إلى بعض، ورفعن أبصارهن للتساور. وتشق البوركا القائدة طريقها إلى داخل محل تجاري، محل تجاري حقيقي، له واجهات عرض ورفوف، وهو يقع عند أطراف البازار. فهي تريد شراء لحاف وقد أعجبها واحد زهري لامع مدرّج يطلق عليه اسم باريس. ويأتي مع هذا اللحاف وسائد من ريش عليها قلوب وأزهار، وهي جميعها ملفوفة معاً في حقيبة بلاستيكية مكتوب عليها "إنتاج باكستان" تحت كلمة باريس وتحت صورة برج إيفل.

وكان هذا هو اللحاف الذي تشتهي البوركا أن تشتريه من أجل سريرها الزوجي المستقبلي. وهو سرير لم تكن قد رآته، ولا حاولت - لا سمح الله - أن تراه قبل ليلة الزفاف. وها هي تمحك وتساوم. فمساعدة صاحب المحل يطلب بضعة ملايين من أوراق العملة الأفغانية ثمناً للحاف والوسائد الموجودة في الحقيبة البلاستيكية. "إنه مبلغ باعظا".

وتستمر في المساومة لكن البائع عنيد وعندما تمّ بالمغادرة فإنه يبدأ بالمهادنة. فلقد تمكنت البوركا المجادلة من الحصول على اللحاف بأقل من ثلث سعره الأول، ولكنها ما إن همّت بدفع النقود له حتى غيّرت رأيها. فهي لا ترغب بأن يكون لون صورة الطفل زهرياً بل أن تكون إشارته حمراء بدلاً من ذلك، فيقوم بائع اللحف بلفه لها ويرمي لها إصبعاً من أحمر الشفاه لأنها مُقدمة على الزواج.

تشكره بلطف وترفع الحجاب لتؤكد من أحمر الشفاه، فبعد كل شيء قد صارت شاكلاً أليفاً مع بائع اللحف وأدوات التحميل. ولم

يكن يوجد هنالك في المحل غيرهما سوى امرأة أخرى واحدة، وتتحراً كل من ليلي ومرم على رفع حجابيهما، ويتغير اللون الباهت لشفاة النسوة الثلاث. فينظرون في المرأة ويتلعن الألق الذي انعكس على زجاج النضد. وتسال شاكيلا عن مرم مبيض للبشرة، فالشقرة الباهتة علامة هامة في الجمال الأفغاني. وعلى العروس أن تبدو باهتة الشقرة.

ويتصحها البائع بمرم يدعى "بيرفكت" وقد كتبت عليه العبارة الإنكليزية التالية: "Aloe white Block Cream"، أما باقي اليبانات فهي مكتوبة باللغة الصينية. تجرب شاكيلا شيئاً منه وينتهي بها الأمر لتبدو وكأن بشرتها قد جرى تبييضها بمرم الزنك الكيف. قشرتها بدت أكثر ميلاً إلى الشقرة الباهتة للحظة؛ فلون بشرتها الحقيقي يمكن أن يرى من خلال طبقة المرم؛ وتكون النتيجة بشرة بيضاء ضاربة إلى السمرة.

ويجري حشو المرم العجيب في الحقيبة التي باتت مليئة أصلاً. وتضاحك الأنحوات الثلاث ويعدن بالرجوع إلى المحل كلما نوت إحداهن الزواج.

تسر شاكيلا وترغب الآن في العودة إلى البيت لتطلع الآخرين على مشترياتها. يجدن حافلة، ويتخذن طريقهن إلى الجزء الخلفي منها، ويجلسن على المقاعد الموجودة خلف الستائر. فالمقاعد الخلفية محجوزة من أجل البوركات، والأطفال، وأكياس التحوّج. وتُسحب البوركات في جميع الاتجاهات، بحيث تغطيها بعض الأرجل. فهي تحتاج إلى أن ترفع قليلاً عندما تقوم الأنحوات بالجلوس بحيث يمكنهن التطلع حولهن دون أن يكون قماش أعلى البوركا مقلوباً إلى أسفل. ويحشرن أنفسهن على الجانب الخارجي من المقعد بينما تبقى أكياسهن في أحضانهن وبين أرجلهن. وليس هنالك كثير من المقاعد المحجوزة للنساء، وعندما تدخل

راكبات حديديات إلى الحافلة فإن البوركات تتحاشر ببوركات مواها
 كما مع الأجسام والأذرع والأكياس والأحذية.
 وتسقط الأعوات المتعبات مع أكياسهن من الحافلة عندما تتوقف
 الأخيرة أمام البيت المقصوف بالفلائف. ويتدفعن إلى داخل برودة
 البيت، فترفع كل واحدة منهن غطاء البوركا عن وجهها، وتعلقها على
 أحد المسامير المثبتة في الجدران، وتنفس الصعداء، إذ إن كل واحدة
 منهن قد عاد لها الآن وجهها.

زواج من الدرجة الثالثة

وفي المساء الذي يسبق اليوم الكبير. كان البيت يمجُّ بالنساء. فجميع مساحات أرضية البيت المتوفرة مشغولة بحسد امرأة ماء تأكل، أو ترقص، أو تثرثر. فهذه هي ليلة الحناء. ففي هذه الليلة يجري طلاء العروس والعريس بالحناء على صفحات أكفهما كما على باطن أقدامهما، فاللون البرتقالي على أكفهما يُعتقد بأنه يضمن لهم الزواج السعيد.

ولكن العريس والعروس ليسا معاً، فالرجال يحتفلون لوحدهم مثلما تحتفل النساء لوحدهن. وحيث إنهن متروكات لوحدهن، فإن النساء يستعرضن قوة عنيفة تكاد تكون مخيفة. وترقص البنات الصغيرات، ويتلوثن عبر الأرضية بنظرات متحدية وحواجب مرتفعة. وحتى الجدات الكبيرات في السن يخترن المياه ولكنهن يستسلمن في منتصف الطريق قبل أن تنتهي موجة الرقص.

فالسحر القديم لا يزال موجوداً في دواخلهن، لكنهن لا يملكن قدرة الاحتمال لإكمال الرقصة. وشاكيلاً تجلس على قطعة الأثاث الوحيدة في الغرفة، وهي عبارة عن كنية كانت قد جُلِبَت خصيصاً لأجل هذه المناسبة. وهي تراقب الرقص من بعيد، وهي ممنوع عليها الابتسام والرقص. فإظهار السعادة يؤدي شعور والدتها التي ستفارقها،

والحزن يلقى امرأة العم المستقبيلة. لذلك فإن وجه العروس ينبغي ألا يكون بادياً عليه أي اهتمام؛ وهي لا يفترض بها أن تكرر الاستدارة برأسها أو التلفت إلى جانبها بل عيها أن تحافظ على نظرة إلى الأمام مستديمة وثابتة. وعمرٌ شاكلاً بألوانها المتمايلة، كما لو أنها قضت كل حياتها تتدرب من أجل هذه الليلة. فتجلس يظهر مستقيم كأنها ملكة من الملكات، وتتحدث همس مع كل من يجلس بقربها على الكنية؛ وهو شرف تتناوب عليه النسوة بالدور، ولا تتحرك منها سوى شفيتها عندما تجيب عن الأسئلة، أسئلة الضيقة التي تشاركها الجلوس على الكنية. أما فستانها فهو أحمر، وأخضر، وأسود، وذهبي، فهو يبدو أشبه بعلم أفغاني مرشوش بغار الذهب. وهو فستان يتال من حوله. ويحيط الحصر مضموم بشكل دقيق تحت الفستان كما أنها كانت قد وضعت طبقة غنية من مرهم الـ: "بيرفكت" على وجهها، أما العينان فكانتا قد جرى تحديدهما بخط الكحل، وهي تضع الآن أجمر الشفاء القرمزي الجديد. وكانت طلعتها أيضاً طلة تامة رائعة. فالعروس يجب أن تبدو اصطناعية وكأنها أشبه بدمية، فالكلمة التي تستعمل لكل من اللعبة والعروس هي نفسها في اللغة الأفغانية، إنها كلمة "عروس".

وأثناء المساء يدخل بوابة البيت مركب من الدفوف، والطبول، والمصابيح. إنه مركب نساء العريس القادم من عند وكيل؛ أخواته وقريباته، وبناته. وتنطلق أصواتهن بالقاء في عتمة الليل بينما يقمن بالتصفيق والرقص:

"جئنا نأخذ هذه اللقطة من بيتها إلى بيتنا
يا عروس لا تخفزي رأسك ولا تبكي
فهذه إرادة الله، وعليك أن تشكريه
يا محمد، يا رسول الله صرّف ممومها
واجعل كل صعب ميسراً".

وترقص نسوة وكيل محركات أبدانهم ووجوههن داخل الشالات والحجابات. أما الغرفة فرطبة وعابقة بروائح الأجساد الجميلة. كل الشبابيك مفتوحة على مصاريحها وجميع البرادي تحفق في النسيم، ولكن ربح الريح المنعشة لا تستطيع أن تبرّد أولئك النسوة.

ولم تقدم أطباق الـ: "بيلاف" المملوءة، إلّا بعد أن هدا الرقص قليلاً، فتجلس كل واحدة من النسوة على الأرض في المكان نفسه الذي كانت تقف فيه للرقص. فالكبيرات في السن فقط هن اللواتي يجلسن على الوسائد المصفوفة إلى حاسب الجدار. وتحمل ليلي، الأخت الصغرى لشاكيل، وبنات عمها الصغيرات، الطعام إلى الداخل، طعام مطبوخ في قدر ضخمة في الردهة الخارجية خارج البيت. طناجر تحتوي على أرز، وقطع كبيرة من لحم الضأن، وباذنجان مسبح في صلصة اللبن، ومعجنات مخشوة بالسبانخ والقلقل، وبطاطس بصلصة القلقل الحلو، وكلها تصف في أرض الغرفة. وتتجمع النسوة حول القصاع، فتعصر الواحدة منهن قبضة الأرز بيدها اليمنى لتجعلها على شكل كرة صغيرة قبل أن تحشوها في فمها. أما اللحم والمرق، فيلتقطان بقطع تمزق من زغفان كبيرة، ويجب استعمال اليد اليمنى على الدوام. أما اليد اليسرى، اليد القذرة، فيجب أن تبقى صابئة، وصوت إقبال النساء على الطعام هو الصوت الوحيد الذي يمكن أن يُسمع. وينتهي تناول الوجبة بمدة. ولا ينكسر الصمت سوى عندما تحث الواحدة منهن الأخرى على تناول المزيد من الطعام. فمن الأخلاق الكريمة أن يدفع الأكل بأطيب اللقيمات إلى جاره الذي يتناول الطعام بقربه.

وعندما تمثلى بطون الجميع يمكن لحفلة الحناء أن تبدأ. فالليلة تنقضي بمعظمها دون أن يرقص أحد. حتى إن البعض قد ينام والبعض الآخر يستلقي أو يجلس في الجوار حول شاكيل ويراقب كيف تقوم

شقيقة وكيل بوضع عجينة الطحلب الخضراء فوق كفي شاكيلا وفوق باطن قدميها، وكيف ينطلق لسانها بأغنية الحناء وعندما تصبح قبضتا يدي شاكيلا ممسوحتين، فإنه يتوجب عليها أن تغلقهما وتقوم أخت عريسها بلف ضمادات حول كل قبضة لتتأكد من أن الطلاء قد تكون ثم يمررهما على قماشة ناعمة من أجل تجنب اتساخ الثياب وشراشف السرير. ثم تنضو عنها ثيابها بحيث لا تبقى عليها سوى ثيابها الداخلية التي هي عبارة عن سروال قطني طويل أبيض وسترة، ثم تقوم بإضجاعها على بساط في وسط الغرفة مسندة رأسها إلى وسادة. ثم نطعمها قطعاً كبيرة من اللحم، والكبد المقلية، وشرحات من البصل النيء الذي تقوم أخوات العروس بإعداده لها بشكل خاص.

وتتابع يبي غول الإشراف على كل شيء بدقة. فهي ترقب كل قطعة طعام تضعها الأخوات داخل فم شاكيلا. ثم تبدأ بالبكاء. ثم تبدأ كل واحدة باسترضائها، لكن كل واحدة منهن تؤكد للأخرى بأن شاكيلا ستلقى معاملة حسنة.

وبعد أن ينتهي إطعام شاكيلا، تضطجع بالقرب من أمها يبي غول حامدة جسدها بشكل يشبه وضع الجنين. فهي لم يسبق لها مرة في حياتها أن نامت في غرفة دون وجود أمها. وهذه هي آخر ليلة لها في جانب عائلتها. أما الليلة التالية، فستصبح من حق زوجها.

* * *

بعد ذلك بساعات قليلة يجري إيقاف العروس، وتقوم أخواتها بفك أربطة القماش المعصوبة حول قبضتي يديها ثم يقمن بقشد الحناء والنمط البرتقالي الذي تكون على باطن كفيها، كما على باطن قدميها. هنا تفسل شاكيلا وجه الدمية الذي حافظت عليه الليلة الماضية، وتتناول إفطاراً جيداً وهو كالمعتاد: لحم محمر، وعجيز، وحلوى وشاي. وعند الساعة التاسعة

تصبح جلعزة لتسريح الشعر، وللتبرج. وتذهب شاكيلا وأختها الصغرى
 ليلسى، وزوجة سلطان الثانية صونيا، وإحدى بنات العم، إلى شقة في
 مايكرورايون. وهي عبارة عن صالون للتجميل؛ صالون كان موجوداً في
 مكانه حتى في أيام طالبان. وهو أيضاً، وبالرغم من كون الأمر مخالفاً
 للقانون، يراعى كون العرائس يشتهن الصخب، فهن يرغبن في الظهور
 على آخر طراز. وهنا يكون قانون طالبان قد جاء بمثابة مساعدة فعلية.
 فهن قد وصلن تحت البوركا وخرجن تحت البوركا أيضاً لكن بوجه تحتها
 جليد ومختلف. وأخصائية التجميل لديها مرآة، كما لديها كرسي دون
 ظهر، كما أن لديها رفٌ عامر بالقوارير وأنابيب المراهم التي يظهر من
 شكلها وطرازها أنها تنتمي إلى عدة عقود سلفت. أما على جدران
 الصالون، فكانت قد ألصقت صور كبيرة للنجمات السينماتيات لـ
 بوليوود. فتلك الجميلات في فساتينهم المفقورة الرقبة، يشمن بتملن في
 اتجاه شاكيلا التي تجلس بصمت وتحرر فوق كرسي التجميل.

وقليات من اللواتي يمكن لمن أن يصفن شاكيلا بالجمال. فبشرها
 غير ناعمة، وجفنا عينيها وارمان، ووجهها عريض، وفكاها بارزان.
 لكن لديها أسناناً جميلة، وشعرٌ لامعاً، ونظرة لعوباً، وهي الابنة الأكثر
 استشارة للاهتمام بين بنات ييسى غول.

"إنني لا أعرف سبب تعلقي بك إلى هذه الدرجة". كان وكيل
 قد قال لها أثناء غداثهما في منزل مريم. "إنك لست حتى من
 الجميلات". لكنه قال ذلك متحياً وقد تقبلت شاكيلا هذه الملاحظة
 منه على أساس أنها ضرب من المعاملة.

وها هي الآن شديدة التوتر والإصرار على أن يكون مظهرها
 جميلاً إلى حدٍ كافٍ، لذلك فإن النظرة العابثة انحفت. فالزواج مسألة
 جديدة إلى درجة مخيفة.

وقبل كل شيء، يجري لف كتل الشعر السوداء حول قطع خشب مستديرة. ثم يجري التعامل مع الحاجبين الكثيفين اللذين هما من السناء بحيث إنهما يلتقيان في نقطة الوسط، لذلك فإن الشعرات غير المرغوب بها تنتف. فهذه أهم إشارة إلى أن الفتاة تنوي الزواج، فالنساء غير المتزوجات لا يسمح لهن بإزالة الشعر عن حواجبهن. وتصبح شاكيلا من الألم، لكن أخصائية التحميل تستمر في نزع الشعر. ويتحول الحاجبان إلى قوسين جميلين، وتأمل شاكيلا نفسها في المرآة، فهي ترى أن وجهها قد ارتفع بشكل أو بآخر.

"لو كنت قد حثني بوقت غير متأخر لقمتم بتشقير شعريرات شفتك العليا"، تقول لها المرأة، فهي تربها شيئاً ما، غامضاً. فعلى أحد الأنابيب المطوية كتبت الكلمات التالية: "مرهمٌ مُشَقِّرٌ للشعر غير المرغوب به". "لكن الوقت لا يتسع لنا الآن".

ثم تقوم بذلك مرهم "بيرفكت" فوق وجه شاكيلا وتضع ظلالاً لعينيهما لامعة، يتراوح لونها بين الأحمر والذهبي. ثم تحدد حدود العينين بقلم كحل غامق، وتختار لها قلم أحمر شفاف ذا لون أحمر داكن ضارب إلى البني.

"مهما حاولتُ، فإنني لن أصبح جميلة مثلك"، تقول شاكيلا لأصغر زوجات إخوتها، صونيا التي هي زوجة سلطان الثانية. وتبتسم صونيا لنفسها وترطم ببعض الكلمات المبهمة، فهي تضع غطاء أزرق باهتاً فوق رأسها.

وحالما ينتهي العمل على تحميل شاكيلا، فإن دور صونيا سيأتي ليتم تحميلها أيضاً ويتم مساعدة شاكيلا لارتداء فستانها. وكانت ليلي قد أعارها مشدداً للحصر، وهو عبارة عن رباط مسطح مطاط يمكنه أن يجعل لشاكيلا نحصرًا. أما الفستان، فمصنوع من قماش أخضر مخمّر

لامع بلون النعناع، وله شريط من الحرير الصناعي وكشاكش،
وحواف مذهبة.

وعندما انتهى إليس الفستان للعروس، وأدخلت قلعها عنوة في
داخل حذائها ذي الكعب العالي، والبُكْلِ المذهبة، والقلوب البيضاء:
قامت مصفغة الشعر بحلّ اللقائف. وبذلك صار الشعر متموجاً وثابتاً
بعد أن وضعت فوق فروة الرأس مشطاً مشبّكاً، بينما أهدت خصلات
الشعر التي هي على دوائر الرأس، بمساعدة كميات ضخمة من الرُشاشِ
المشبّك للشعر، فجعل لها شكلاً متموجاً، وجرى تثبيتها إلى أحد
جانبي الوجه. والآن جاء دور الطرحة الخضراء بلون النعناع. كما
بأن دور وضع الكريما على الكعكة. وفي النهاية، تمّ نشر بعض النثار
اللاصق فوق الشعر، نثار لجزئياته لون أزرق سماوي ذهبي الحواف.
ولقد عسولجت وجنتا شاكيلا بالطريقة نفسها حيث ألصقت ثلاث
نجمات فضية صغيرة على كل وجنة. لقد بدأت الآن تبدو وكأنها نجمة
من نجمات بوليود المعلقة صورهنّ على الجدران.

"آه لا، القماشية، قطعة القماش"، صرخت أختها ليلى فجأة.
"آه لا".

"آه لا" تقول صونيا بدهشة وهي تنظر إلى شاكيلا التي لم يرف
لها جفن.

تنهض ليلى وتندفع إلى الخارج. لحسن الحظ أن البيت ليس بعيداً
جداً. ولكن ماذا لو لم تخطر قطعة القماش ببالها، قطعة القماش التي هي
أهم من كل شيء؟

وتستخلف النساء الأخريات في صالون التحميل، غير متأثرات بما
أصاب ليلى من هلع. وتقوم كل واحدة منهن بوضع النثار اللاصق على
شعرهن وعلى مخلودهن، ثم يرتدين بوركاكن. وتحاول شاكيلا أن

تلبس البوركاء الخاصة بها ولكن دون أن تعرب تصفيفة شعرها المعمولة بحصياً لمناسبة الزواج. لذلك فهي تمتنع عن جذب البوركاء بشدة فوق رأسها، بل تجعلها تستلقي بخفة فوق جمود الشعر. وهذا معناه أن الفتحة المخصصة للنظر، والمعمولة من القماش المشبك المحرم، لم تعد موجودة في الموضع المناسب الذي يسمع بالرؤيا، أي أمام عين شاكيلا، بل إن هذه الفتحة صارت تضرب إلى الأعلى. لذلك فإنه لم يعد لشاكيلا بدء من الاستعانة بابتة عم لها لتمسك بيدها وتقودها في الطريق، كما يقاد العميان، وهكذا قادتها إلى أسفل الدرج. فمن الأفضل لشاكيلا أن تتعثر وتقع من أن يراها أحد وهي تخرج دون البوركاء.

ولم تتم إزالة البوركاء إلا بعد أن صارت جمود الشعر فاسدة قليلاً وهي الآن في باحة دار مريم حيث ستجري حفلة الزواج. وتأتي الضيفات لترامى عليها فور دعوها. أما وكيل فكان لم يصل بعد. والباحة الخارجية مليئة بالناس الذين يتماوجون ويقومون بحشو أفواههم بالـ: بيلاف، والكباب، وكرات اللحم. وكانت قد تمت دعوة مئات من الأقارب. وكان ثمة طاه يقوم، بمساعدة ابنه، بعمليات التقطيع والطهو منذ الفجر الباكر حيث تم طبخ 330 رطلاً من الأرز، 120 رطلاً من لحم الضأن، 30 رطلاً من لحم العجل، 93 رطلاً من البطاطا، 66 رطلاً من البصل، 110 أرطال من السبانخ، 77 رطلاً من الجوز، رطلين من الثوم، 18 رطلاً من الزبيب، 4 أرطال من المكسرات، 70 رطلاً من الزيت، 30 رطلاً من السكر، 4 أرطال من الطحين، و20 بيضة، وأنواع مختلفة من الأفاويه والمنكهات، و4 أرطال من الشاي الأخضر، و4 أرطال من الشاي الأسود، وثلاثين رطلاً من الحلويات، و6 أرطال من الكراميل.

وبعد انتهاء الوليمة يختفي أحد الرجال بالانتقال إلى بيت قريب، وفي هذا البيت المجاور، يكون وكيل قاعداً. وهنا تكون المفاوضات الأخيرة على وشك أن تدور. "نقاشات تفصيلية عن العقود وعن الضمانات للمستقبل سوف تتبع ذلك. فوكيل مثلاً يحجز على التعهد بدفع مبلغ معين من المال إذا خطر له أن يطلق شاكيلا دون سبب، كما أن عليه أن يقطع عهداً بتأمين الملابس والطعام والسكن لها، فالأح الأكبر سلطان يقوم بهذه المفاوضات نيابة عن شاكيلا، ويقوم رجال من العائلتين بالتوقيع على الاتفاقية".

وعندما يصلون إلى اتفاق، يغادرون المنزل المجاور، ويجلس شاكيلا في منزل أختها مريم تراقب كل ذلك من وراء الستائر وعندما ينتهي التفاوض بين الرجال، تغر هي فستانها لتلبس الفستان الأبيض، ثم تلقى طرحة الحرير الروسية فوق وجهها. وها هي الآن تنتظر لقياد وكيل إليها بحيث يمكنهما التحدث معاً. ويدخل وكيل بشيء من الخجل؛ يلقي كل منهما التحية على الآخر فيمَا أحدهما مطرقة إلى الأرض كما تطلب التقاليد منهما. ثم يخرجان معاً كثناً إلى كنف دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر. وعندما يقفان فإنه يجب على كل منهما أن يسدس على رجل الآخر. والرابع في هذه اللعبة يكرس رئيساً للزواج. ويربح وكيل. أو أن شاكيلا تسمح له بأن يربح، كما ينبغي أن يكون عليه الأمر. إذ إنها وجدت أنه من غير المناسب لها أن تمتلك سلطة هي ليست من حقها. وكان هنالك كرسيان قد أعدتا لهذه المناسبة في الباحة. وعليهما أن يجلسا على الكرسيين معاً وفي وقت واحد. فإذا جلس العريس أولاً فإن عروسه ستسود على جميع القرارات. فلا يريد أحدهما أن يجلس، وفي النهاية يتقدم سلطان من ورائهما ويلفحهما بيديه للجلوس معاً في الوقت ذاته تماماً. ويرتفع الحنّاف من الجميع.

وتقوم فيروزة الأخت الكبرى لشاكلا برمي دثار فوق الزوجين المتزوجين حديثاً وترفع امرأة أمامهما ويجب عليهما أن ينظرا في وجه المرأة معاً. فوفقاً للتقاليد فإن هذه اللحظة، هي اللحظة الأولى التي تلتقي فيها نظراتهما. ويحلق وكيل وشاكلا بحدة إلى المرأة مثلما يستوجب عليهما، وكما لو أنهما لم يتطلع أحدهما إلى الآخر من قبل. وترفع فيروزة مصحفاً فوق رأسيهما ويفرأ أحد الملاي قراءة مباركة ورأسين محنيين بقبيلان كلمة الله.

ثم يؤتى بطبق يحتوي على الحلوى المصنوعة من فئات الكمك، والسكر والفزيت، وهي منكهة بنكهة الهال. ويوضع هذا الطبق أمام العروسين. ويطلع كل منهما الآخر ملعقة تحت هتاف الناس. كذلك يعطي كل منهما الآخر شربة بشرهما إشارة إلى أن كل واحد منهما يمتنى حياة سعيدة للآخر. ولكن، ليس كل واحد من الناس مفتشاً بارتشاف الليموناضة.

"في قديم الزمان كنا نفص بمشروبات أخرى". قالت إحدى العشرات هاتمة، فهي تذكر الأيام القديمة الأكثر حرية، عندما كانت جميع أصناف المشروبات تقدم ضيافة في الأعراس. "لكن تلك الأيام لن تعود"، تقول بحسرة، إن أيام جوارب النابلون، والملابس الغريبة، والأذرع العارية، أو على الأقل العصر الذي لم يكن قد ظهرت فيه البوركا بعد، فإن هذه الأيام لمي بمجرد ذكريات قديمة.

"إنه زواج من الدرجة الثالثة"، يهمس منصور، الابن الأكبر لسلطان. "طعام رديء، ملابس رخيصة، كرات لحم وأرز، إهابات طويلة، وحبوبات. عندما أريد أن أتزوج سأستأجر قاعة للرقص في الإنتركونتيننتال. وعلى كل واحد أن يرتدي ملابس حديثة. ولن نقدم للضيوف إلا أفضل ما يمكن من الضيافة. من طعام مستورد"، يقول

مؤكداً. "مع كل ذلك، فإنني سوف أتزوج خارج البلاد"، يضيف قائلاً.

فولسجة عرس شاكيلا ووكيل تأخذ محلها في بيت مرم المصنوع من الطين، في باحة البيت حيث لا يثبت شيء. والجدران ممتلئة بثقوب الرصاص، وعليها ما يدل على اختراق شظايا القذائف لها. ويتوقف الزوجان لأخذ الصور الفوتوغرافية وهما ينظران باحتشام إلى الأمام. وبضلي غياب الاهتمامات وثقوب الرصاص في خلفية الصورة جواً كئيباً على تلك الصور.

وصل العروسان إلى قرب كعكة الزفاف، فيها هما يمسكان معاً بالسكين، ويركزان على قطع الكعكة، ويطعم كل منهما الآخر من خلال فم نصف مفتوح كما لو أن كلاهما يتدخل على صاحبه بفتح فمه بشكل كامل، الأمر الذي يتسبب بسقوط فتات الكعكة على ثيابهما.

وبعد قطع الكعكة، يأتي دور الموسيقى والرقص. وبالنسبة إلى كثير من الضيوف، يعتبر هذا الزفاف هو الأول الذي يحتفلون به منذ مفادرة الطالبان، وبكلمات أخرى، فإنه الزفاف الأول الذي تتخلله موسيقى ورقص. فرجال الطالبان كانوا قد حرموا الناس من نصف فرحهم بالزواج عندما قاموا بتحريم الموسيقى وهنا يقوم كل واحد بطرح نفسه إلى داخل حلبة الرقص باستثناء المتزوجين الجدد، الذين يكتفون بالجلوس والمراقبة. لقد أشرف النهار على نهايته. وبسبب منع التحول، فإن حفلات الزواج كانت قد قلبت مواعيدها من الأماسي إلى فترات النهار؛ فعلى الجميع أن يكونوا قد عادوا إلى منازلهم عند الساعة العاشرة ليلاً.

وعند الفسق، يختفي العروسان من الحفلة تحت وابل من صرخات الاستهجان والعواء. فيستقلان مسيرة مزينة بالأشرطة الملونة والأزهار

إلى منزل وكيل. وكل من يجد لنفسه مكاناً في سيارة، فإنه ينضم إلى موكب العرس. ويحتشد ثمانية أشخاص في سيارة وكيل وشاكيل، كما يحتشد أشخاص أكثر من ذلك في بقية السيارات. ويتخذ الموكب لنفسه جولة في شوارع كابول. وفي هذا الوقت من العيد تكون الطرقات فارغة وتستطيع السيارات أن تعبر مستديرات المرور بسرعة متين ميلاً في الساعة، والجميع يتسابق لتصدر الموكب. وتصظم سيارتان، الأمر الذي يلقي سحابة صغيرة من الغم على الاحتفال. لكن أحداً لا يهاب بأذى كبير. فمصاييح السيارتين تتكسر، وهيكل كل منهما يتبعج، ويكمل الموكب طريقه إلى أن يصل إلى منزل وكيل. فالرحلة هي استسلام رمزي. شاكيل تغادر عائلتها لكي تنبأها عائلة زوجها.

ويُسمح لأقرب الأقرباء بدخول منزل وكيل، حيث تكون أخواته منتظرات مع الشاي. وأولئك هن النسوة اللواتي ستشارك شاكيلاً معهن باحة الحوش. فهنا سوف يكون لها لقاءات معهن حول مضخة المياه، وها سوف تلتقي النساء على غسل الثياب وعلى إطعام الدجاج، وينظر الأطفال من ذوي الأوف الملية بالمعاط بفضول إلى المرأة التي ستصبح أمّاً جديدة لهم. ويقومون بالاختباء وراء تنانير عمّاقم. وينظرون بوقار إلى الأعلى نحو العروس المتألقة. وهنا تكون الموسيقى قد توقفت وصيحات المرح تلاشت. وتخطو شاكيلا إلى داخل بيتها الجديد بروقار واحترام. وهو يتوسع إلى حدٍ معقول، وله أسقف عالية. وهي مثل جميع أسقف البيوت الأخرى في القرية، مصنوعة من الصلصال، ولها دعائم وعارضات خشبية ضخمة، أما الشبايك فمغطاة بالبلاستيك. فحق وكيل لم يمرق على التصديق أن تساقط القذائف قد توقف إلى غير رجعة، ولهذا فإنه قرر التريث في تغيير الأغشية البلاستيكية لشبايك بيته واستبدالها بالواح من الزجاج.

ويقوم الجميع بخلع أحذيتهم، ويمشون ممدوء إلى داخل البيت. وتكون قدما شاكيلا وارمتين حمراوين بعد يوم طويل وهي تتعل الحذاء الضيق ذا الكعب العالي. أما من تبقى من الضيوف؛ وهم أقرب المقربين من العائلة، فيدخلون إلى غرفة النوم. وهناك يحتل سرير مزدوج معظم مساحة الغرفة. وتأمل شاكيلا غطاء السرير الناعم الأحمر اللامع، والوسائد التي قامت هي بشرائها، كما تأمل الستائر الحمراء التي عايطتها بنفسها. وكانت أختها مريم قد قامت بترتيب غرفة النوم في اليوم الذي سلف، كما قامت أيضاً بتعليق الستائر، وإصلاح شأن السرير، وترتيب ديكورات الزواج. أما شاكيلا نفسها فلم تكن مرة قد دخلت هذا البيت من قبل؛ أما من الآن فصاعداً، وحتى آخر يوم من حياتها، فإنه سيكون مسكنها ومقر نشاطها ونفوذها.

وخلال احتفال الزواج بكامله لم يكن أحد قد رأى هذين الزوجين الجديدين يتبادلان ابتسامة واحدة. أما الآن وفي داخل بيتها الجديد فلم تستطع شاكيلا سوى أن تبسم "يا له من عمل رائع قد قمت بعمله" تقول مخاطبة أختها مريم. فللمرة الأولى في حياتها سيكون لها غرفة نومها الخاصة. وللمرة الأولى في حياتها سوف تنام على سرير مرتفع وليس على الأرض. هنا تجلس إلى جانب وكيل على مفرض السرير الناعم.

ويبقى هنالك الشعرة الاحتفالية الأخيرة تأتي إحدى أخوات وكيل. تسمار طويل ومطرقة وتسلمهما إلى شاكيلا. وشاكيلا تعرف ماذا عليها أن تفعل في هذه اللحظة. لذلك فهي تمشي ممدوء إلى باب غرفة النوم وفوق الباب تقوم بدق المسمار. وعندما يستقر المسمار في مكانه ينطلق الجميع بالهتاف. أما ييسى غول فتشرق بدموعها. فالأمر الشائك هنا هو أن ابنتها قد دقت مصيرها وقدرها في هذا البيت.

وفي اليوم التالي، وقبل الإفطار، تأتي عمه وكهل إلى بيبي غول التي هي أم شاكيلا. ويكون في يدها كيس يحتوي على قطعة القماش التي كادت ليلقى أن تنسأها، وهي القطعة التي هي أهم من أي شيء آخر. ويُخرجُ المرأة المسنة قطعة القماش بوقار من داخل الكيس، وتسلمها إلى أم شاكيلا. وتكون قطعة القماش مغطاة بالدماء. تقوم بيبي غول بشكرها وتبتسم بينما هي تبكي والدموع تجري على عينيها. وسرعان ما تقوم بتلاوة صلاة العرفان والشكر. وتأتي جميع نساء البيت لإلقاء نظرة فتقوم بيبي غول بعرض قطعة القماش على كل من يرغب بإلقاء نظرة عليها، حتى بنات مريم القاصرات يسمح لهن بإلقاء نظرة على قطعة القماش المليئة بالدم.

فلولا ظهور الدماء على هذه القطعة، فإن شاكيلا هي التي كانت ستعود إلى البيت، بدلاً من قطعة القماش.

الأم الرئيسة

الزفاف أشبه ما يكون بماتم صغير. فعائلة العروس تعيش أيام أسى وعزاء في الأيام التي تلي حفلة الزواج كما لو أن الأمر أشبه بماتم. فتنة ابنة قد فقدت من عائلتها، وأعطيت إلى عائلة أخرى. أما الأمهات فيكن في العادة هن الأولى بالأسى. فقد كان للواحدة منهن الإشراف الكامل على بناتها: إلى أين يذهبن، ومن يقابلن، وماذا يلبسن، وماذا يأكلن. والبنات يقضين مع أمهاتهن معظم أوقات الليل والنهار، معاً يكتسبن البيوت، ومعاً يطبخن الطعام. أما بعد الزواج فالابنة تختفي فجأة وبشكل كامل. تذهب إلى عائلة أخرى وتصبح للآخرين. فهي لا تستطيع زيارة أهلها ساعة تشاء، بل عندما يسمح لها بذلك زوجها فقط. ولا يستطيع أهلها القيام بزيارتها في كل حين ودون دعوة مسبقة.

وهكذا، وفي العمارة رقم 37 في مايكرورايون صارمة والدة تستفجع على خسارة ابنتها، التي باتت الآن تعيش على مسافة نصف ساعة من الارتحال إليها. لكن لا فرق أبداً أن تكون شاكيلة الآن تعيش في قرية تدعى ديه غودايداد، الواقعة بخارج حدود كابول مباشرة، أو أن تكون تسكن في بلاد أجنبية تبعد عن كابول آلاف الأميال وراء البحار. فهي ما دامت لم تعد تجلس على البساط ذاته بقرب والدتها،

وتشرب الشاي معها، وتأكل اللوز الملبس بالسكر، فإن الخسارة بفقدنا تكون سيّان.

وتكسر بيبي غول لوزة جديدة، لوزة من اللوزات التي قامت بإعفائها تحت السجادة بحيث لا تنبه إليها أصفر بتانها ليلي. فليلى هذه تنصرف معها وكأنها أشبه ما تكون بمرضة نشيطة في متجع صحي، لقد منعتها من تناول السكر والدهنيات، وهي لذلك تنترع الطعام من بين يدي بيبي غول كلما امتثت يد الأخيرة إلى طعام ممنوع عليها. أما عندما تسنح الفرصة لها، فلما تطهو لأمرها طعاماً خاصاً خالياً من الدسم، لكن بيبي غول لا تتورع بعد ذلك عن إضافة الدسم إلى صحنها من صحنون أفراد العائلة عندما تكون ليلي غافلة عنها. وهي تحب مذاق زيوت الطبخ، وطعم دهن الضأن الساخن، و"الباكورة" شديدة القلي، كما تحب امتصاص لبّ العظام في نهاية الوجبات. فالطعام هو حبها ولذتها. فإذا استبدت بها نسزوها إلى الطعام بعد رفع الأطباق، فهي لن تتورع عن النهوض للقيام بلمق فضلات الطناجر. وهكذا، ورغم جهود ليلي، فإن وزن بيبي غول كان لا يتفك عن الازدياد، أما حجمها الهائل فيتعاطم سنة تلو الأخرى. ففي كل حال، فإن لدى بيبي غول كثير من المعايير السرية في أرجاء البيت، فمن الخزائن القديمة، إلى أماكن تحت السجاجيد، إلى ما وراء الصناديق والعلب الكرتونية، أو حتى في صنلوقها، ففي المكان الأخير كانت تحتفظ بحبوب التوفي السكرية المطبوخة بالزبدة على مختلف أشكالها التي يؤتى بها من باكستان، ولا همّ إذا كانت أحياناً حلويات كظليظة أو حتى فاسدة. لكنها في كل حال حبات من التوفي المطبوخة بالزبد، ولمة صبور للأبقار على غلافاتها، ولا يستطيع أحد أن يسمعها وهي تمتص حلاوتها داخل حلقها بصمت.

أما حبات اللوز فلا بد من القيام بكسرها في هدوء، وتشعر
بيسي غول بالأسف، فهي تأسف لحالها، إنها وحيدة في الغرفة، تجلس
على بساطها وتمزق ساقها إلى الأمام والخلف بينما هي تخفي حبات اللوز
في قبضة يدها. تمزق إلى الفضاء وتصل إلى أسماعها أصوات تقارع
الصحن والمقالي في المطبخ. فلن يمضي وقت طويل إلا وتكون جميع
بناتها قد غادرن البيت وتركتهن؛ فهنا هي بلبلة في طريقها إلى الزواج،
وهنا هي شاكيلة قد تزوجت وذهبت عنها فعلاً. وعندما تتزوج أصغر
بناتها ليلي، فإنها لا تدري ما الذي سيكون عليها القيام بعمله. لن يبقى
في العائلة أحد ليهتم بشأنها.

"لن يتزوج أحد ليلي ما دمت حية"، تقول. فهي في التاسعة
عشرة من عمرها. وكان كثيرون قد تقدموا لخطبتها. لكن بيبي غول
كانت تجيب سؤال كل مخاطب بالرفض. إذ لن يقوم أحد بالاهتمام بها
بالطريقة التي تقوم بها ليلي.

إن بيبي غول لم تعد قادرة على عمل أي شيء في البيت أبداً.
لذلك، فإن كل ما تفعله هو الجلوس في الزاوية لشرب الشاي.
والجلوس جلوس الدجاجة النفساء فوق بيضها. فحياتها كأمراة قادرة
على العمل والحركة قد انتهت. فعندما يغدو للمرأة بنات بالغات
تستحول إلى ما يشبه ناظرة الكلية التي تمنح النصائح، وتنصب نفسها
حارسة على الأخلاق في العائلة؛ وفي واقع الأمر على أخلاق بناتها دون
سواهن. فهي تتأكد من أنهن لا يخرجن من البيت بمفردهن، وأنهن لا
يتكسفن، ولا يرتدين سوى الثياب المحتشمة كما يرام، وأنهن لا يحتلن
بالرجال الأغراب، ولا يقابلن منهم أحداً خارج حضور أفراد العائلة.
وأنهن مطيعات ومهذبات. فالتأديب في اعتقاد بيبي غول يأتي في طبيعة
الفضائل. وبعد سلطان، فإنها هي الأمر الناهي الثاني في هذه العائلة.

وتذهب بها الأفكار إلى شاكبلا، شاكبلا التي تعيش الآن خلف جدران طينية عالية، جدران غير مألوفة لديها. وتحتل بيبي غول قيام شاكبلا برفع سطول ثقيلة من الماء من البئر الموجودة في فناء الباحة الخارجية لمنزلها، تحيط بها فراخ الدجاج مثلما تحيط بها عشرة أطفال يتامى الأم. وتسري في نفس بيبي غول خشية من أن تكون قد أخطأت بحق ابنتها شاكبلا. ماذا لو كان زوجها جافياً قاسياً؟ ومع كل ذلك، فإن هذا البيت يبدو فارغاً من دون شاكبلا.

أما في الحقيقة، فإن كثافة الشاغلين للبيت لم تنقص كثيراً بذهاب شاكبلا. فبدلاً من اثني عشر شخصاً، فهناك الآن أحد عشر منهم فقط يعيشون في غرف البيت الأربع. فسلطان، وزوجته صونيا، وطلعتما التي يبلغ عمرها عاماً واحداً، يسكنون إحدى الغرف. وينام يونس شقيق سلطان مع الابن الأكبر لسلطان، منصور، في غرفة ثانية. أما الغرفة الثالثة فينام فيها ما تبقى من أفراد العائلة وهم: بيبي غول، وابنتها اللامتزوجتان: بلبلة، وليلي، كما ينام فيها إقبال وإيمال، وفازيل ابن مريم الذي هو ابن عمتها وحفيد جدتها بيبي غول.

أما الغرفة الرابعة، فهي مستودع للكيب والبطاقات البريدية والخبز والملابس الشتوية في الصيف، والصيفية في الشتاء. فثياب العائلة مخزن في صناديق كبيرة حيث إنه لا توجد خزان في أي غرفة. وتستهلك أوقات طويلة من كل يوم في عمليات البحث والتنقيب عن الأشياء في غرفة المخزن، فبين وقوف وجلس بين الصناديق تمضي نساء العائلة أوقاتاً في تفحص الجلايب والأحذية، فمن هنا حقبة لامتوازنة، ومن هنا مستوعب معطل، وهنا شريط، أو مقص، أو مفروش طاولة. فهذه الأشياء إما أن تكون قد اعتُبرت ذات قيمة تجعلها تستحق الاحتفاظ بها أو ارتدائها لاحقاً، وإما أنه يكون قد اكتُفي بالنظر إليها بسرعة

وأعيدت إلى الصندوق من جديد. ولا يجري التخلص من شيء من الأشياء إلا في ما ندر. وهكذا، فإن عدد الصناديق لا يتفكك بتزايد ويتنامى. ولا يعود هنالك بذ من القيام ببعض أعمال البحث والتفتيش في هذه الغرفة في كل يوم؛ وهذا يقتضي أحياناً إزاحة كل شيء عن مكانه إذا ما شاء المرء البحث عن شيء يكون موجوداً في باطن صندوق من الصناديق المكونة في الأسفل.

وبالإضافة إلى الصناديق الكبيرة التي تحتوي على ثياب العائلة وضرورتها، فإن لكل عضو فيها صندوقاً صغيراً له قفله الخاص. وتحمل كل واحدة من النسوة مفتاح صندوقها تحت ثيابها، فهذا الصندوق هو الشيء الوحيد الذي يستقل كل فرد بملكيته له تعبيراً عن خصوصيته. ويستطيع كل امرئ رؤية أفراد العائلة كيف يجلس الواحد منها على الأرض لينكب فوق صندوقه. فيما تُستخرج قطعة من الجواهر تنظر الواحدة منهن إليها، وقد تجرب وضعها، ثم تعيدها إلى مكانها، أو هي تقوم بمسح بعض "الكريمات" التي كانت قد نسيت وجودها، أو تستنشق بعض العطر التي أهدي إليها يوماً. أو ربما التأمل في صورة فوتوغرافية لابن عم، والانسراح خلف حلم بقطعة، أو مثلما هو الحال مع بيبي غول، تستخرج بعض حبات التربي، أو قطعة بسكويت، كان قد تم إعطاؤها من قبل.

أما سلطان، فقد كان لديه مخزنة كتب لها واجهة زجاجية يمكن قراءة غلافات الكتب من خلالها. ومخزنة الكتب هذه تحتوي على مجموعات من كتب الشعر العائدة للشاعر حافظ، وللشاعر روجي، وكتب رحلات يعود تاريخها إلى مئة عام، وإلى كتب مصورات جغرافية بالية. أما في الأماكن السرية من صفحات كتبه هذه، فإن سلطان يقوم بتخبة أوراقه النقدية. فالنظام المصري الأفغاني لا يعول

عليه، ولا يمكن الثقة به. وفي داخل خزانة الكتب هذه، يمتلك سلطان أغلى ما عنده من أعمال ومجموعات وكتب كان قد اكتسبها، كتب من النوع الذي يرغب بالقيام بقراءته في يوم من الأيام، حيث إنه الآن يمضي معظم يومه في مكتبته ولا يتيسر له أي وقت للمطالعة. وهو يفادر منزله قبل الثامنة صباحاً فلا يرجع إليه إلا بعد الثامنة مساءً. ولا يقضي بعد ذلك سوى وقت يمضيه في ملاعبة طفله لطيفة، وتناول طعام العشاء، وفي تسوية المسائل التي قد تكون حدثت بين أفراد أسرته أثناء غيابه بحسب مقتضيات العدالة وقانون العائلة ونظامها. وفي العادة لا يكون هنالك أي إخلالات تستوجب تدخله. فالحياة السائدة بين نساء العائلة تكون هادئة وواقعة تحت المستوى الذي لا يسمح وقار مركز سلطان له بالتدخل في تفاصيلها ومشاجراتها.

وفي أسفل مخزانة الكتب تحتفظ صونيا بأشياء الشخصية. بعض الأوشحة الجميلة، وبعض النقود، وبعض الدمي التي تعتقد والدة لسبب له خلفياته الساذجة، أن من المفيد الاحتفاظ بها لمصلحة لطيفة لتلعب بها. أما العروس المزينة بزمري التي أعطيت إلى لطيفة لمناسبة ذكرى ميلادها، فلا تزال تجلس في علبتها ملفوفة بورق السيليفون المجدد.

وخزانة الكتب هي قطعة الأثاث الوحيدة في هذا البيت حيث لا يوجد فيه تلفاز ولا مذياع. وأما الزينة الوحيدة فهي بسطٌ بالية الخيوط. وقد صفت فوق البسط، في محاذاة الجدران مساند وطينة غير وثيرة. فالْبُسْط تستعمل لغرض الاستلقاء والجلوس أثناء النهار، ولتنوم فوقها أثناء الليل. أما المساند فتستعمل بمثابة وسائل لتنوم أثناء الليل، وأرائك للاتكاء عليها وإسعاد الأظهُر إليها أثناء النهار. أما الطعام فيحسري تناول الوجبات منه بعد وضعه على مفرش مشمّع يبسط على الأرض، حيث يجلس الآكلون حوله على الأرض ويتناولونه بأيديهم.

وعند الانتهاء من الأكل ترفع الأطباق ويغسل المشتمع ويطوى ويرال عن مكانه.

وأرضيات البيت من الحجر البارد الذي تغطيه بسطاً كبيرة ممدودة. أما الجدران فمتشققة، وأما الأبواب، فمائلة ولا متوازنة. وبعضها يصعب إغلاقه بحيث إنه يترك في حاله مفتوحاً. وبعض الغرف لا يفصل بينها سوى غطاء فراش. أما ثقب الشبايك فتستدرك بالمناشف القديمة.

وفي المطبخ يوجد ثمة حوض، وموقد برعموس يعمل بزييت الكاز، ولوح تسخين على الأرض. وعلى عتبات النوافذ تُلقي فضلات الخضار وبقايا الطعام المتبقية من اليوم الذي سبق. وأما الرفوف فقد عُمِلت لها براد نحى الآنية الفخارية من أن يصيبها الوسخ والسخام الذي يطلقه موقد الـ: برعموس. ولكن مهما بولغ في اتخاذ الحيلة لإبقائها نظيفة، فإن الأواني كانت تجمع على الدوام طبقة من الدهون التي تجتذب إليها ذرات الغبار التي تلوم أبدأ في أجواء كابل حول الرفوف والمقاعد وعتبات البواب.

أما الحمام فهو عبارة عن مقصورة ضيقة في داخل المطبخ يفصلها عنه حدار. وفي أرضيتها نقرة، لا تعلق أن تكون ثقباً مثقوباً في أرضية الكونكريت، كما يوجد فيه صنوبر. وفي إحدى زوايا الحمام موقد على الخطب يمكن استعماله لغلي المياه التي تستخدم للاغتسال، ولا يمكن ملء أسطوانة الماء فيه سوى عندما تكون المياه جارية في الأنابيب. وفوق أسطوانة الماء ثمة رف صغير عليه بعض فراشي الأسنان بالإضافة إلى أنبوب صيني من معجون الأسنان يحتوي على معجون متبلر يصعب على المرء الحكم على حقيقة طعم مادته الكيميائية.

"كان هنا مرة شقة جميلة"، يقول سلطان مستغرقاً في ذكرياته.
 "كان لدينا مياه تجري في الصنابير".

لكن الشقة كانت قد تعرضت إلى النهب والإحراق أثناء الحرب الأهلية. وعندما عادت العائلة إلى الشقة فإِذَا كانت في الحقيقة مدمرة وكان عليه أن يصلح ما يمكن إصلاحه. فأقدم أحياء مايكرورايون حيث تقيم عائلة خان، تقع على خط الجبهة الأمامية بين قوات زعيم المجاهدين، مسعود، وبين أولئك المكروهين التابعين إلى أحد زعماء الحزب المدعو قلب الدين حكمتيار. وقد كان مسعود يسيطر على مساحات كبيرة من كابول، بينما كانت قوات حكمتيار تتركز على مرتفع مظل على كابول. وكان الطرفان يتبادلان إطلاق الصواريخ؛ وعدد كبير منها كان يقع في منطقة مايكرورايون. ومع ذلك، وعلى مرتفع آخر، كان قد عُمر مركز الزعيم الأوزبكي عبد الرشيد دوستم بقواته. أما على مرتفع ثالث فقد عُمرت قوات عبد الرسول سياف، وكانت صواريخهم تُصب على مناطق أخرى من كابول. كانت الجبهات تتحول من شارع إلى شارع. وقد تحارب أمراء الحرب لمدة أربع سنوات إلى أن زحفت قوات الطالبان إلى داخل كابول فهرب أمراء الحرب حماية لهيبة كل منهم كل إلى إقطاعيته.

كانت المعارك قد توقفت منذ ست سنوات، لكن مايكرورايون كانت لا تزال مثلاً نموذجياً لكل أرض معركة. فحذران المباني مرشوشة بثقوب الرصاص وشظايا القذائف. وكثير من الشبابيك كانت لا تزال تغطيها رقائق النابلون بدلاً من الزجاج. كما أن هنالك تشققات في الأسقف والطبقات العليا من المباني قد تعرضت للحريق، وثلثة شقوق كبيرة في الأماكن التي اخترقتها الصواريخ. وإن إحدى أشرس المعارك كانت هي التي دارت رحاها في مايكرورايون، ولذلك

فإن معظم سكانها كانوا قد هربوا منها. وعلى مرتفعات مارانجان التي تشرف على مايكرورايون، حيث كانت قوات حكمتيار تجتمع، لم يُعمل أي شيء لتنظيف المكان بعد الحرب الأهلية. فمتنصات إطلاق الصواريخ، والمخيمات المدمرة، وبقايا الدبابات، بقيت مبعثرة في الجوار، وهي تقع على مسافة ربع ساعة من المشي عن مكان شقة عائلة حان. لقد كان ذلك المكان مرة نقطة تنزه مشهورة. وفيها أيضاً يقع قبر نادر شاه، والد الملك زاهر شاه، الذي كان قد قضى اغتيالاً عام 1933.

وهذه المقبرة هي الآن مجرد أنقاض، فقبة المقبرة مليئة بالثقوب، وعمودها مكسور. أما المقبرة الأقل جمالاً، والتي تعود إلى زوجته، الواقعة بالقرب من مقبرته، فقد كانت هي الأخرى في حالة هي حتى أسوأ من الأولى. فهي تبدو وكأنها هيكل عظمي متناثر فوق ثوء يشرف على المدينة. ولقد حاول أحدهم إعادة جمع القطع المتناثرة بعضها إلى بعض، بحيث يمكن إعادة قراءة الآيات القرآنية من جديد.

كانت التلة بكاملها مزروعة بالألغام، ولكن بين أسطوانات الصواريخ المنفجرة، وسواها من الخردة المعدنية، كان ثمة شيء يقف شاهداً على الحياة وعلى السلام. ففي داخل دائرة من الحجارة المستديرة، نبتت مجموعة من أزهار الأذريون برتقالية اللون. ولقد كانت هذه الأزهار هي وحدها التي حافظت على استمرار حياتها بعد الحرب الأهلية، والجفاف، والطيالان.

ومن المرتفعات، ومن مسافة بعيدة، بدت مايكرورايون كأى مكان يمكن أن يصادفه المرء في الاتحاد السوفياتي السابق. فالبناني كانت هدية من الشعب الروسي. وفي الخمسينيات والستينيات كان قد تم إيفساد المهندسين الروس إلى أفغانستان كي يقوموا ببناء ما سُمي بـ"جاني

عروتشوف التي ما لبثت أن ملأت أرجاء الاتحاد السوفياتي أيضاً. وقد كانت هذه المباني تتخذ الشكل نفسه أياً تم بناؤها إن في كابل، أم في لينينغراد، أو في كسف: مباني مoulane من خمس طبقات، فيها شقق ذات ثلاث غرف أو أربع.

وعندما يقترب المرء من هذه المباني إلى درجة قريبة، فإنه يلاحظ أن الانطباع البائس الذي يديه إنما يمثل ليس الفساد الثفليدي السوفياتي فحسب، بل قلائف الحرب الأهلية أيضاً. فحتى المقاعد الإسمتية الواقعة أمام البوابات الأمامية تبدو محطمة وتضطجع اضطجاع الخطام المقلوب رأساً على عقب فوق الأرض المحفرة التي كانت مرة معبدة بالإسفلت.

وفي روسيا تجلس في العادة نساء معتمرات "البابوشكا"، نساء من العجائز اللواتي يتوكان على عصيهن، وعجائز الرجال من ذوي الشبات والقبعات، وهم يراقبون كل ما يدور حولهم. وفي مايكرورايون فلم يكن الرجال الكبار هم وحدهم الذين يجلسون خارج منازلهم ويتداولون أحاديث النسيمة فيما سبحات الصلاة تنزل حباتها بين أصابعهم. وبالكساد أن مجموعة قليلة من الشجرات هي التي كانت لا تزال واقفة لتعطي القبرين ظلاً هزياً. وممر النساء بقرب المكان في سرعة حاملات أكيس التسوق تحت بوركاتهن. ونادراً ما ترى امرأة تتوقف لتفتاح جارة لها بحديث. ففي مايكرورايون تذهب النسوة للزيارة إذا رغبن في اللغو وفي التأكد من أن أي رجال من خارج دائرة عائلتهن الخاصة يستطيعون رؤيتهن.

لقد تم تصميم تلك الشقق كي تسامر المعايير السوفياتية حول المساواة، لكن من المؤكد أن ليس ثمة مساواة يمكن أن توجد بين الجدران الأربعة. ففي الوقت الذي يمكن أن تكون الفكرة التي تقف

تختلف بناء الشقق السكنية هي إيجاد مساكن تنم عن مجتمع لا طبقية فيه، فإن الممارسة الواقعية في شقق مايكرورايون كان يُنظر إليها كما لو أنها شقق تعود إلى أبناء الطبقة الوسطى. ففي وقت القيام بتشيدتها كانت تشتمل إلى حالة من الانتقال من أكواخ العطين في القرى المحيطة بكابول إلى شقق تجري المياه في أنابيبها. لذلك فإن المهندسين، وأصحاب الحوانيت، وسائقي الشاحنات، قد انتقلوا إلى هناك. لكن مصطلح "الطبقة الوسطى" بات الآن يعني القليل في بلد فقد فيه كثير من الناس كل شيء، وحيث هبط فيه مستوى كل شيء. فالمياه التي كانت مرة نرى وهي تنسكب من الصنابير صارت مجرد نقطة من النكات خلال السنوات العشر الأخيرة. ففي الطبقات الأولى قد يوجد بعض الماء البارد في الأنابيب لمدة بضع ساعات كل صباح. ثم لا يعود لمدة شيء. ولا تصل المياه إلى الطبقات الثانية إلا بين كل حين وآخر، لكن المياه لا تصل مرة إلى الطابق الثالث؛ فالضغط ضعيف إلى درجة كبيرة. لذلك فقد تم احتفار الآبار في حدائق تلك الأبنية السكنية، وصار الأطفال ينقاطرون في كل يوم إلى خارج الشقق طلوعاً ونزولاً على الدرج وهم يحملون جرادل المياه والقوارير والأباريق.

ومثل ذلك هو حال إمدادات الطاقة الكهربائية، فتلك الطاقة الكهربائية التي كانت فخر هذه الشقق، قد صار السكان بعدها الآن يعيشون على وجه العموم في العتمة. فبسبب الجفاف، صارت إمدادات الطاقة الكهربائية خاضعة للتقنين، وفي كل يومين ترسل الطاقة الكهربائية إلى هذه الشقق لمدة أربع ساعات بين السادسة والعاشرة صباحاً. وعندما يكون التيار الكهربائي موفوراً في جانب من المدينة يكون الجانب الآخر معتماً. وفي بعض الأحيان يكون شطراً المدينة معاً غارقين في الظلام. والحل الوحيد يبقى بإعراج مصابيح زيت الكاز

والجلوس في نصف عتمة بينما يعلق أسيد دخان القناديل في الأعين حتى يجعلها تلمع.

وعائلة خان تعيش في واحدة من شقق أقدم العمارات السكنية، إلى جانب نهر كابول الجاف. وتظهر يبسي غول إلى الجانب المظلم من الأشياء، بينما هي تجلس منكفئة في داخل هذه الصحراء الإسمتية بعيداً عن القرية التي نمت فيها وترعرعت. لم تعد يبسي غول تعرف طعم السعادة منذ وفاة زوجها. ووفقاً لأقاربه فإنه كان رجلاً مجتهداً عميق الإيمان وحازماً، ولكن بإنصاف.

وعندما توفي والده، فإن سلطان تسلم مقاليد الأمور من بعده. فكلمة سلطان هي بمثابة القانون. وكل من يعصاه يلقي عقابه. وهو لا يطرح نقوده على نطاق بيته فحسب، بل هو يحاول أن يفعل ذلك على أقرانه الذين هاجروا أيضاً. فأخوه الذي لا يصغره سوى بعامين يقتل يديه كلما التقيا. وليكن الله في عونهِ إذا قام مرة بمناقضة سلطان، وأمسوا من كل ذلك، إذا حاول إشعال سيجارة في حضوره. فالاحترام واجب الإظهار للأخ الكبير في كل يوم. وسلطان له أسيايه التي تبرر هذا السلوك الصارم. فهو يعتقد أنه ما لم يجر ضبط العائلات وتوحيدها على العمل الشاق، فلن يكون هنالك انتعاش جديد في أفغانستان.

فإذا لم يأت التعفيف ولا الضرب بأي نتيجة، فإن العقوبة التي لا يبقى منها بد، فهي الطرد. لذلك فإن سلطان لا يتكلم مع أخيه الأصغر فريد ولا يزوره. فلقد رفض فريد العمل مع أخيه سلطان في المكتبة كما أنه شرع في تأسيس مكتبته الخاصة التي تعمل أيضاً في تجليد الكتب. وما عاد سلطان يكلمه منذ ذلك الحين. كذلك لم يعد من المسموح لأي من أفراد العائلة الآخرين أيضاً الحق في أن يكلمه. ولم يعد اسم فريد يؤتى على ذكره أبداً. فهو لم يعد شقيقاً لسلطان.

وفريد هو الآخر يعيش في إحدى الشقق المدمرة في مايكرورايون، شقة لا تقع سوى على مبعدة دقائق قليلة من شقة عائلة بحان. وعندما يكون سلطان في مكتبته يقوم بيبي غول بزيارة فريد وعائلته، دون أن تجعل سلطان يدري بذلك. والأمر نفسه يفعله إخوته وأخواته. ورغم أن زيارة فريد معطوبة عليها، فإن شاكيلا قبلت دعوة أخيها هذا لها قبل الزفاف حيث أمضت عنده مساءً كاملاً مدعية أمام سلطان أنها كانت في زيارة إلى عمتها. فقبل أن تصبح الفتاة متزوجة، فإن على كل من أفراد عائلتها أن يدعوها إلى غداء وداعي. وكان سلطان يدعى إلى الاحتفالات العائلية، أما أخوه فلم يكن يُدعى. إذ لم يكن أحد من أبناء أو بنات العم، أو من الأعمام، والعمات، براغب في إبداء العداوة لسلطان؛ مثل هذا الأمر لن يكون مدعاة للراحة، ولا للسرور، لكن فريد هو الشخص الذي يحبونه رغم ذلك.

ولم يعد أحد يستطيع أن يتذكر أصل الخلاف ما بين سلطان وفريد. لكن الجميع يتذكرون أن فريداً قد غادر أخاه بينما الأخير في حالة غضب وهياج، وبينما صاح سلطان خلفه أن أي رباط بينهما قد انقطع الآن إلى الأبد، فإن بيبي غول كانت تدعوها إلى التصالح، لكن كلا الأخوين اكتفيا همزاً اكتافهما في لامبالاة. وكانت حجة سلطان هي أن من واجب الأخ الأصغر أن يطلب الصفح؛ أما حجة فريد فكانت شعوره بأن الخطأ كله هو خطأ سلطان.

* * *

كانت بيبي غول قد أنجبت ثلاثة عشر طفلاً. وعندما كانت لا تزال في الرابعة عشرة من عمرها كانت قد وضعت طفلاتها الأولى فمروزة. وفي النهاية باتت الحياة تستحق أن تعاش. لقد هكيت خلال سنوات عمرها الأولى التي كانت لا تزال فيها عروساً طفلة؛ أما الآن

ولأنه الابن الأكبر في العائلة، فقد كان على الدوام يعطى أفضل الأشياء، رغم فقر العائلة. فالأموال التي نالتها العائلة مهراً لابنتها فيروزه كانت تستعمل من أجل الإنفاق على تعليم سلطان. ومنذ نعومة أظفاره كان قد أعطي مركزاً وسلطة في العائلة، وكان من الأشخاص الذين يثق بهم والده، ويوكل إليهم المسؤوليات. وعندما بلغ السابعة من عمره كان قد بدأ العمل بدوام كامل، كل ذلك بالإضافة إلى الاهتمام بأمر دراسته.

وبعد بضع سنوات من ولادة سلطان أتى أخوه فريد، لكن فريداً كان مثيراً للمتعاب ولا يتفك يقع في عصبومات. فلا يعود إلى البيت إلا في ثياب ممزقة وأنف دام. ولقد أخذ يدخن ويتعاطى الشراب دون معرفة من أهله بطبيعة الحال، لكنه كان رجلاً طيباً له طبيعة أنقى من الذهب الخالص ما دام أن أحداً لم يقضيه. ولقد أوجدت بيبي غول زوجة له، وهو الآن رجل متزوج، وله ابنتان وصبي. لكنه كان قد حُرم من السكن في شقة العائلة الواقعة في العمارة رقم 37 في مايكرورايون. لهذا، فإن بيبي غول تنهد. إذ إن قلبها يتفطر بسبب العداوة القائمة بين أكبر ولديها. ما الذي يمنعهما عن التصرف بشكل معقول ومنطقي؟

بعد فريد كانت قد جاءت شاكيل. شاكيل الحبيوة، المرحّة، القوية. هنا تذرّف بيبي غول دمعة. فهي تتصور ابتها وهي تجرّ سطول الماء الثقيلة.

ثم جاء بعدها نزار أحمد. وعندما تفكّر بيبي غول فيه، فإن دماغها تجري على وجنتيها. فنزار أحمد كان هادئاً ولطيفاً ومجداً في دراسته. تخرج من المدرسة الثانوية في كابول. ورغب في أن يصبح مهندساً مثل أخيه سلطان. لكنه في أحد الأيام لم يعد إلى منزل

العائلة. قال عنه زملاء صفه إن البوليس الحربي قد قام بالتقاط أقوى الشبان في صفهم وأجبروهم على الالتحاق بالجيش. كان ذلك خلال الاحتلال السوفياتي لأفغانستان، وكانت قوات الحكومة الأفغانية آنذاك تعمل بمثابة قوات سوفياتية برية. لقد وضعت تلك القوات على خط النار في مواجهة قوات المجاهدين. وكان للمجاهدين قوات أشدّ عمراً بالقتال، وهم يعرفون طبيعة الأرض ومسالكها جيداً، ويتحصنون في الجبال. ومن هنالك كانوا يتربصون بالروس، ويتظرون وصولهم، ووصول معاونيهم من القوات الأفغانية لكي يتقدموا إلى الممرات التي يسيحها الجبل. لقد اختفى نزار أحمد في أحد ممرات ذلك الجبل. ويسى غول تعتقد أنه لا يزال حياً. وربما أنه قد وقع في الأسر. وربما أنه يكون قد فقد ذاكرته وبات يعيش في مكان آخر ما، في سعادة. وهي تصلي إلى رها في كل يوم كي يعيده إليها.

وبعد نزار أحمد جاءت ليلة التي أسقمها الحزن بسبب تعرض والدها إلى الشجن، وهي الابنة التي تبقى على وجه العموم في البيت طيلة كل الأيام وهي شاحصة في الفراغ.

وكان هنالك مزيد من الحيوية والحياة في مريم التي ولدت بعد ذلك بسنوات قليلة. لقد كانت ذكية ونبيهة ومتفوقة في مدرستها. لقد نمت وكبرت لتصبح فتاة جميلة يأتي لطلب يدها العديد من الخاطبين. وعندما بلغت الثامنة عشرة من عمرها تزوجت من شاب هو من أبناء القرية نفسها. كان يملك حانوتاً واعتقدت بيسى عول أنه عريس كفؤ لابنتها. وانتقلت مريم إلى منزل عريسها الذي يعيش فيه أيضاً كل من أمه وأخيه. وكان هنالك كثير من العمل الذي ينبغي عمله، فبدأ والدته كاتنا غير نافعتين، إذ كانت قد أحرقتهما حرقاً بالماً في موقع خبز. فبعض الأصابع كانت قد فقدت تماماً، وبعضها قد ذابت

والتصقت ببعضها. ولم يبق من الإهامين سوى جذريهما، ولكنها رغم ذلك كانت تستطيع إطعام نفسها، كما كان بإمكانها الاهتمام بالأطفال، وحمل بعض الأشياء ما دامت تستطيع إسنادها إلى جسدها.

وكانت مريم سعيدة في بيتها الجديد. لكن الحرب الأهلية ما لبثت أن قُدمت. عندما تزوج أحد أبناء عم مريم في جلال أباد، فإن العائلة اغتصمت المناسبة، بالرغم من عدم الاطمئنان إلى سلامة الطرقات، من أجل السفر إلى هناك. وقد بقي زوجها كريم الله في المكان من أجل الاهتمام بالمتجر. وفي صباح أحد الأيام، عندما وصل إلى متجره لكي يفتحه، فقد علق في شبكة نار جبهة القتال. واخترقت رصاصة قلبه فخرَّ صريعاً على الفور.

ونذبت مريم بأكية مدة ثلاث سنوات. وفي نهاية الأمر قررت بيع غول ووالدة كريم الله أن على مريم أن تتزوج من حازم شقيق زوجها القتيل. وهكذا صار لمريم عائلة جديدة فلملمت شتات نفسها معاً، كرمي لطفليها الاثنين. والآن فإنها حامل في طفلها الخامس، وابنها الأكبر، فازيل، الثمرة الأولى لزواجها من كريم الله زوجها الأول الذي هو الآن في العاشرة من عمره، لديه وظيفة بدوام كامل. فهو ينقل الصناديق وبيع الكتب في إحدى مكاتب سلطان ويعيش معه في بيته، وذلك من أجل مساعدة والدته مريم في شؤون الإنفاق.

ثم أتى يونس، الابن المفضل عند عيسى غول. فهو الولد الذي يقوم بتدليلها، ويشتري لها الهدايا الصغيرة، ويسألها عن حاجاتها، وينتهي به الأمر في آخر المساء مسنداً رأسه إلى حضنها، بعد تناول عشاءه بينما يكون بقية أفراد العائلة بين جالس ومضطجع على السجاد بين الصحو والنم. وتاريخ ميلاد يونس هو التاريخ الوحيد الذي تذكره هذه الوالدة على سبيل اليقين. إذ إنه كان قد ولد في

اليوم داته الذي أزيح فيه زاهر شاه عن السلطة إثر انقلاب عسكري كان قد أطاح بحكمه في السابع من تموز/يوليو 1973.

أما بقية الأطفال فلا يُعرف لهم لا يوم ميلاد ولا حتى سنة ميلاد. فالسنة التي ولد فيها سلطان تتراوح بين 1947 و1955، وذلك اعتماداً على الوثيقة التي تقع بين يديك. فعندما يقوم سلطان بجمع سنوات طفولته وسنوات دراسته في المدارس، وسنوات تحصيله الجامعي، وسنوات الحرب الأولى، وسنوات الحرب الثانية، وسنوات الحرب الثالثة، فإن مجموع سنوات عمره يقفز فوق الخمسين سنة. وهذه هي الطريقة التي يقوم كل واحد باعتمادها لاحتساب سنوات عمره. ولأن لا أحد يعرف، فإن بإمكانك دائماً أن تكون في العمر الذي تشتهي. وهذه الطريقة فإن شاكيلاً قد تكون في الثلاثين من عمرها، لكنها قد تكون بكل سهولة أكبر من هذا بضعس أو ست سنوات أو أكثر.

وبعد قدوم يونس جاء ياسير. وهو يعيش في كندا بعد أن كانت والدته قد رُبت زواجه هناك من فتاة قريبة لهم. ولم تكن قد رآته أو تكلمت معه منذ أن سافر إلى هناك قبل سنتين. وهنا تذرف يبي غول دموعاً أخرى، فهي تكرة أن تكون في منأى عن أولادها. فهم جميع ما تملكه في حياتها عدا عن حبات اللوز الملبس بالسكر التي تخفيها في أسفل صندوقها.

أما أحر الأولاد الذكور الذين ولد لهم يبي غول، فإنه كان السبب في عاداتها المفرطة في الطعام. إذ بعد أيام قليلة من الرضع كانت قد تخلت عنه لمصلحة امرأة عاقر قريبة لها. لكن الحليب بقي ينسكب من صدر يبي غول التي كانت تسكب الدموع من عينيها أيضاً. فالمرأة تكتسب الكثير من الاعتبار عندما تصبح أمّاً، خاصة عندما تصبح أمّاً لأبناء ذكور. أما المرأة العاقر فلا قيمة اجتماعية لها. وقرية

بيبي غول لم تلد قط بعد مرور خمس عشرة سنة على حياتها الزوجية، وكانت قد ابتهلت إلى الله تعالى، واستماتت في محاولاتها لاستعمال كل دواء أو علاج اعتقدت أنه يسهل الحمل ولكن دون نتيجة؛ وعندما كانت بيبي غول تتوقع ولادة طفلها الثاني عشر فإنها التمس إليها أن تقوم بالتخلي عنه إليها.

لكن بيبي غول رفضت. "كيف لي أن أتخلي عن ولدي".
لكن القرية استمرت في الاستجداء، والبكاء، والتهديد. "ليكن لك رافة بيبي؛ فإن لك عائلة كبيرة، بينما أنا ليس لي أي طفل. لا تعطيني سوى هذا الولد فقط"، قالت نائحة. "فأنا لا أستطيع العيش دون أطفال"، قالت وهي تشرق بدمعها.

وفي نهاية الأمر لان قلب بيبي غول فأذعنت لها ووعدتها بإعطائها الطفل. وعندما ولد ابنها احتفظت به مدة عشرين يوماً. حيث أرضعته، وعانقته، وبكت لأنه سيتهي بها الأمر إلى التخلي عنه. وكانت بيبي غول امرأة ذات شأن بسبب أولادها. فهي أرادت أن يكون لها من الأولاد ما شاء الله أن يعطيها. لكنها وفّت بوعدها وبعد مضي العشرين يوماً المتفق عليها قامت بتسليم الصبي الذي ولدته إلى قريتها، ومع أن نديها كانا يتران بغزارة إلا أنها لم تكن قادرة على إرضاعه من جديد. فجميع العلاقات بين الأم والوليد كان يجب أن تنقطع تماماً، ومنذ تسليمها إياه صار لا بد لها من أن تعتبره مجرد قريب ليس إلا. وتعلم بيبي غول جيداً أن الولد سوف يلقى عناية حسنة، لكنها رغم ذلك فإنها لا تزال تتحسر على خسارتها له. وعندما تلقته فإنها تتظاهر بقلة الاهتمام، تماماً مثلما كانت قد قطعت عهداً على نفسها عندما قامت بالتخلي عنه.

أما أصغر أطفال بيبي غول، فهي ابنتها ليلي، هي ابنة ذكية ومجددة تقوم بمعظم أعباء الأعمال المنزلية لوحدها. وهي بعد الافتكار

في عمرها تكون في سنتها التاسعة عشرة. وهي تحتل المركز السفلي في تراتبية تلقي الأوامر، فهي أصغر أولاد ييسى غول، وهي عذباء، وفوق كل ذلك، هي فتاة.

وعندما كانت ييسى غول في مثل عمرها، كانت قد أنجبت أربعة أطفال، اثنان منهما توفيا، واثنان بقيا على قيد الحياة. لكنها لا تفكر الآن في ذلك. ففئتان الشاي الذي أمامها قد برد، وهي بردت أيضاً. وهي تخبئ حبات اللوز تحت السجادة وترغب في أن يقوم أحدهم بإحضار شاي من الصوف لها.

"يا ليلي"، تنادي فتنهض ليلي وتأتي إليها من بين القدرور.

إبراهيمات

نصل عند شروق الشمس حرمة متماوجة من السحر نخطو إلى
داخل عتبة الغرفة ضئيلة الإضاءة. ويصحو منصور من نصف إغفائه
بشيء من الإحفال ويعدل نظرنه الناعسة حالما يلمح طيف الفتاة الذي
يتسرب إلى الداخل بمحانة الرفوف.
"أستطيع أن أساعدك؟"

إنه يعلم من فوره أنه حيال امرأة شابة جميلة. فهو يرى ذلك
من خلال مشيتها ووقوفها، من خلال يديها، ومن خلال قدميها،
ومن خلال طريقتها في حمل حقيبة يدها. إن لها أنامل بيضاء
طويلة.

"أمكنني أن أجد عندكم كتاب 'الكيمياء المتقدمة'؟"

هنا يلحاً منصور إلى أقصى مهاراته كبايع كتب. فهو يعرف أن
الكتاب المطلوب ليس موجوداً عنده، لكنه يسألها أن تنضم إليه إلى
عمق المكتبة كي تشرك معه في التفتيش عن الكتاب العتيق. يقف على
مسافة شديدة القرب منها، وينظر بين الرفوف فيما رائحة عطرها
تنساب إلى أنفه. يقوم بالبحث والتفتيش وإزاحة الكتب، متظاهراً بأنه
يقوم بالتفتيش عن الكتاب. ومن وقت لآخر يستدير نحوها ويدقق في

الظلال المحيطة بعيسها. ولم يكن هو قد سمع باسم هذا الكتاب من قبل.

"من سوء الحظ أن هذا الكتاب نفد من عندنا، لكنني أملك بعض النسخ القليلة منه في البيت، هل تستطيعون المرور علينا في الغد، فإنني سأجلب لك نسخة منه".

وفي اليوم التالي ينتظر رجوع جملته طيلة النهار، ولم يكن متسلحاً بالنسخة المطلوبة، لكنه بدلاً من ذلك كان متسلحاً بخطة. بينما هو جالس ينتظر، فإن عقله لا يكف عن نسج المريد من أحلام اليقظة. ثم يطبق الليل فيغلق باب المكتبة. وللمكتبة شبكات شعرية، معدنية، مشبكة تعمل على حماية الشبايك المتشققة أثناء الليل. ولأنه عجب، فإنه يغلق تلك الشبكات بشيء من الحق والعنف.

وفي اليوم التالي يكون في مزاج متعكر، فيجلس عابساً خلف كونستار مكتبه. وتكون الغرفة في شبه ظلمة نظراً إلى انقطاع التيار الكهربائي. أما في المواضيع التي يمكن لأشعة الشمس أن تتسرب من خلالها، فإن الغبار كان يتراقص جاعلاً الغرفة تبدو أكثر وحشة. وعندما يدخل زبائن للسؤال عن كتب، فإن منصور يجيب بوجه مكفهر بأن الكتب المطلوبة غير موجودة عنده، وذلك رغم أن تلك الكتب موجودة على الرف المقابل له تماماً. وهو يلعن هذا الواقع الذي جعله مربوطاً إلى مكتبة والده وبأنه لا يستطيع أن يجد لنفسه يوم فراغ حتى في عطلة الجمعة، وأن والده لن يسمح له بالدراسة، كما لن يسمح له بشراء دراجة. ولن يسمح له بأن يرى أصدقاءه، وهو يكره تلك الكتب الكبيرة المليئة بالغبار، الملقاة على الرفوف. كما أنه في الحقيقة يكره الكتب ويكره بيعها. وأنه لم يته قراءة كتاب واحد منذ أن أخرج من المدرسة.

أينطه الوقع الخفيف لخطوات القدمين، وحفيف قماش الملابس الكثيفة، من حالته المزاجية التي هي أشبه بالسبات. وها هي تقف كما في المرة الأولى وسط عمود من أشعة الشمس المتسربة إلى داخل المكتبة، عمود يجعل غبار الكتب يثور ملوِّماً حولها بفرح. ويتمالك منصور نفسه كي لا يهبّ واقفاً من الفرحة، بل يصطنع ارتداء قناع الكبسي فوق وجهه.

"توقعتُ رجوعك بالأمس"، قال، بلهجة مهنية صديقة. "إن الكتاب لـديّ في البيت، لكنني لا أدري أيّ طبعة، أو أيّ نوع من الفلاف، أو أي سعر تريدن. إذ لقد تم إصدار الكتاب في عديد من الطبعات التي أستطيع تأمينها لك جميعاً. هذا، إذا شئت المهيء معي فسيكون باستطاعتك اختيار ما تشائين".

تسبدر الدهشة واضحة على البوركا. وها هي تلجأ إلى العبث بحقيبتها بشيء من اللأيفين.
"أذهب إلى بيتك معك؟".

يقيم الصمت عليهما لحظة. الصمت عمر وسيلة للإقناع، يخيل إلى منصور الذي باتت أعصابه تحتلج. لقد صدرت الآن عنه دعوة بالغة المرأة.

"إنك في حاجة إلى هذا الكتاب، أليس كذلك؟" يتابع سؤالها في نهاية الأمر.

والأعجب من العجب هو أنها توافق. تستقر الفتاة على المقعد الخلفي وتجلس نفسها في وضعية تسمح لها بمشاهدة وجهه في المرأة. ويحاول منصور إدراك ما يمكن أن يعتقد حول نظرهما إليه بينما هما يتحدثان.

"إنها سيارة جميلة"، تقول له. "أهي لك؟".

"نعم، ولكنها ليست بالشيء كبير الأهمية"، فمثل هذه الإجابة تجعل السيارة تبدو أكثر مدعاة للإعجاب وتعمله يبدو حتى أكثر ثراء.

يقود سيارته على غير هدى مطوّفاً في شوارع كابول ومعه بوركا يجلس في المقعد الخلفي. فالكتاب العنيد ليس في حوزته، والمنزل في أي حال ليس حالياً، إذ إن فيه حديثه وغماته. ويشعر بالقلق والمهاج لشدة قربهِ من إنسانة لا يعرفها. وفي لحظة استجماع لشجاعته يطلب منها أن تكشف له النقاب عن وجهها. تمكّت لحظات قليلة كأنها الصنم الجماد، ثم ترفع العطاء الأمامي لرأس وتصد لنظرته الفاحصة إلى وجهها في المرأة. لقد أدرك الكثير، فهي رائعة الجمال، ولها عينان كبيرتان آسرتان معالجتان بالمكياج، ويبدو أنها أكبر منه ببضع سنوات. وبفضل من أغرب سلوكياته الاستثنائية يتمكن من إقناعها بإغفال كتاب الكيمياء فتقاد لجاذبيته الجادة وقدرته على الإقناع لتقبل دعوته لها إلى أحد المطاعم. هناك يوقف السيارة فتخرج منها لتدخل معه إلى مطعم ماركو بولو، حيث يقوم منصور بطلب كل الطعام الموجود على اللائحة تقريباً: دجاج محمّر، وكباب، ومعمّجات أفغانية محشوة باللحم والبصل، وأرز عليه قطع كبيرة من لحم الضأن، أما الحلوى فكانت الفستقية.

وعلى الغداء يحاول سلطان مضاحكتها وإشعارها أنها ذات مكانة خاصة بالنسبة إليه. تجلس قبائله والغطاء الأعلى للبوركا مرفوعاً بينما هي تدبر بظهرها للطاولات الأخرى بينما انتقيا طاولتهما في الزاوية. ومثل معظم الأفغانين، تتجاهل أمر السكن والشوكة وتناول طعامها بأصابعها. تتحدث معه عن حياتها، وعن عائلتها، وعن دراستها، لكن منصور قلما كان يستوعب شيئاً من شدة هياجه.

إنه لقاءه الغرامي الأول. لقاءه الغرامي اللامشروع تماماً. يدفع بقشيشاً سعيّاً للنادل عند مغادرتهما، وتفتح الطالبة عينها من فرط دهشتها. ويرى من ملاحظته لندامها أنها ليست غنية، ولكنها ليست شديدة الفقر أيضاً. على منصور أن يعود مسرعاً إلى المكتبة؛ أما البوركا فتستقل سيارة أجرة. وخلال حكم الطالبان، فإن تصرفها هذا كان من الممكن أن يقود إلى جلدتها وجلد السائق واحتجاز كل منهما في السجن. أما اللقاء في المطعم فقد كان شيئاً مستحيلاً تماماً. فالرجال والنساء غير الأقارب لا يجوز لهم حتى السير معاً في الشارع، هناك عن قيامها برفع حجابها في مكان عام. لقد تغيرت الأشياء من حسن حظ منصور. لذلك فإنه بعدها بإحضار الكتاب في اليوم التالي.

وخلال اليوم التالي لا ينفك منصور عن حث ذهنه على التفكير في ما تراه ويقول لها عندما تعود، إذ لا بد الآن من تغيير الخطط من بيع الكتب إلى الإغراء. والخبرة الوحيدة التي يعرفها منصور عن الحب هي تلك التي شاهدها في الأفلام الهندية والباكستانية، حيث تتجاوز كل عبارة درامية تلك التي سبقتها. وتبدأ مثل هذه الأفلام في العادة بصدفة عابرة، ثم مغازلة عابثة تستثير الغضب، ثم مراودة ومراوغة، ثم خيبة رجاء، ثم تنتهي الرواية بكلمات وردية عن حب أبدي؛ وهذه الأفلام فيها إعداد مفيد بالنسبة إلى عاشق يافع وهكذا، وحلف الكونتوار، بالقرب من كدسة من الكتب والأوراق، يستغرق منصور في أحلامه حول ما ستسفر عنه مع هذه الطالبة.

"لم تذهبي لحظة عن بالي منذ أن غادرتني بالأمس. لقد أدركت أن شيئاً ما خاص يتعلّق بك، لقد أوجدت الحياة لتكوني لي. فأنت

نصبي وقدرتي" فهي لا شك ستشعر بالسرور لسماعها هذه الكلمات، ثم فإنه سيقوم بالتحدث إلى عينيها، وقد بدأ يديه لالتقاط معصميهما. "عني الاختلاء بك، وأريد أن أمتع عيني بجمالك كله، أريد الفرق في عينيك"، هذا ما سيقوله لها. أو لعله يتبني أن يكون أقل تجرؤاً: "إنني لا أطلب الكثير، فقط أريد منك المرور بي عندما لا يكون لديك أي شغل آخر؛ وسوف أكون متفهماً لك إذا رفضت طلبتي، لكن ربما تستطيعين المرور مرة واحدة كل أسبوع على الأقل؟".

وربما يمكنه أن يقطع لها بعض الوعود: "عندما أبلغ الثامنة عشرة، فإنني سأ تزوج".

عندها يجب أن يكون قد صار منصور صاحب السيارة الفخمة، منصور صاحب المحل التجاري الممتاز، منصور الذي يدفع البقشيش السخي، منصور الذي لا يلبس سوى الملابس الغريبة. يجب عليه إغرائها بمستوى الحياة التي ستعيشها معه. "سيكون لك منزل كبير له حديقة وكثير من الخدم، وسنقضي إجازاتنا في سفرات نقوم بها إلى خارج البلاد". كما أن عليه أن يجعلها تشعر بأنها شخص عزيز مميز، متقنى بعناية، وأن تكون دارية بمبلغ ما تعنيه بالنسبة إليه. "لا أحب سواك، وكل لحظة أمضيها بدونك ليست سوى عذاب".

فإذا لم تجاربه في أمنياته، فإن عليه أن يصور أكثر دراماتيكية. "إذا قررت أن تنبذيني، فإن عليك أن تقومى بقتلي أولاً وإلا فإنني سأقوم بإشعال العالم بأسره!".

لكن الطالبة لم تعد إليه في اليوم الذي تلا الغداء في المطعم، ولا في اليوم الذي تلاه أيضاً. ويستمر منصور في متابعة الإعداد لأحاديثه، لكنه يصبح مغموماً متشائماً أكثر فأكثر. ألكون لا تحبه؟ ألكون أهلها قد

اكتشفوا ما قامت بفعله؟ هل قاموا بمنعها من الخروج من البيت؟ هل رآها أحد وقام بإفشاء سرهما؟ أياكون هذا الشخص قريباً، أو حاراً؟ هل زلّ لسانه معها بكلام سخيّف؟

ويقطع عليه رجل عجوز يتوكأ على عصا، ويعتمر عمامة كبيرة، جبل أفكاره المتلاطمة. يلقي التحية على منصور بلهجة مدمدمة سائلاً عن كتاب ديني. يجد منصور الكتاب ويرميه أمام الرجل على التضد. فهو لم يعد منصور فائن النساء. إنه مجرد منصور ابن الكبيسي، الابن الذي يحلم أحلاماً وردية.

ويطول انتظار منصور لها في كل يوم. ويفلق كل يوم باب مكتبته دون أن تكون قد جاءت لزيارته. لقد صارت الساعات التي يطويها في المكتبة ساعات رهيبة.



وفي الشارع الذي تقع فيه مكتبة سلطان يوجد العديد من المكتسبات الأخرى، كما من المحالّ التي تبيع القرطاسية وتقوم بتحليلد الكتب أو استنساخ الوثائق للناس. ورحيم الله يعمل في واحد من هذه المحالّ. وهو يقوم في بعض الأحيان بالمرور على منصور لشرب الشاي والنميحة. وفي هذه المرة يشكو منصور هم لصديقه رحيم الله الذي يكتفي بالاستغراق في الضحك.

"ما كان عليك أن تلتقط طالبة. فالطالبات متشدّدات في عقافهن. حاول أن تجد لك واحدة من اللواتي هنّ في حاجة إلى المال. والشحاذات هنّ أسهلن متالاً. وبعض الشحاذات لسن بالسيئات جداً. وإلاّ فعليك بالذهاب إلى المكان الذي تقوم فيه مكاتب هيئة الأمم المتحدة بتوزيع الطحين والزيت. فستجد هنالك الكثيرات من الأراامل الصبايا".

يفتح منصور فمه من فرط الدهشة. فهو يعرف الركن الذي يمرى فيه توزيع المواد الغذائية على أكثر الناس حاجة وفقراً، وفي طلبعتهم النساء اللواتي رملتهن الحرب، والأطفال الصغار. فهن يحصلن على قسيمة غذائية في كل شهر. وبعضهن يقين واقفات عند الناصية في محاولة منهن لاستبدال حصتهن العينية الغذائية ببعض النقود.

"اذهب إلى هناك وفتش عن واحدة تبدو شابة. اشتر منها قارورة زيت، واطلب منها المجيء إلى هنا. إذا جئت إلى دكانى، فسوف أقوم بمساعدتك في المستقبل، هذا ما أقوله لمن في العادة. وعندما تأتي الواحدة منهن أعرض عليها بعض النقود، وأدخلها إلى الغرفة الخلفية. وهن في العادة يدخلن لابسات البوركا، ويخرجن وهن لابسات البوركا أيضاً، لذلك فإنهن لا يسترن شكوك أحد. وهكذا، فإنني أحصل على بغيتي منهن. ويحصلن من على نقود لأطفالهن."

ينظر منصور إلى رحم الله وهو غير قادر على تصديقه. يفتح رحم الله باباً إلى الغرفة الداخلية، وهي غرفة لا تكاد مساحتها تبلغ تسع أقدام مربعة. على الأرض فرشت مجموعة من صناديق الكرتون الفارغة التي جرى تسطيحها، وهي صناديق متسعة تحت وطأة دوس الأقدام. ولحة لطععات سوداء هنا وهناك على صفحة الكرتون.

"... وعندما تصل الواحدة منهن إلى هذه المرحلة فإنه يصبح من الصعب عليها الندم. ولن يكون من المفيد لها أن تلجأ إلى الصراخ، ذلك لأنه لو دخل أحد لنحدثنا بأن الخطأ سوف يكون لاصفاً بما بصرف النظر عن كل اعتبار. فالفضيحة كفيلا بتدمير كل حياتها. والأمور سهل مع الأراذل. لكن مع الفتيات الصغيرات ومع المدللى،

فإن الأمر مختلف، لذلك فإنني أأخذ لنفسى احتياطات إضافية معهم" يقول هذا التاجر.

ويمكن منصور في وجه هذا البائع في غير تصديق. إذ كيف يمكنه أن يتحدث عن مثل هذه الأمور بهذه العفوية والسهولة؟

وعندما يقف بين حشد البوركات الزرقاء في عصر ذلك اليوم نفسه، فإنه يدرك أن الأمر ليس بالسهولة التي رواها له صديقه التاجر. ويشترى قارورة زيت من إحداهن. لكن نظرة منه إلى يدي المرأة البائعة جعلته يتيقن أنها يدان عشتان متشققتان أبلاهما الزمان. وابتغت حوله فلا يرى شيئاً سوى الفقر المدقع. لذلك، فهو يلقي بقارورة الزيت عند المقعد الخلفي لسيارته وينطلق بها.

* * *

وكان قد تخلى عن دراسة العبارات المأخوذة من سيناريوهات أفلام بوليوود. لكنه يعتقد بعد كل شيء، أنه سوف يحتاج إلى هذه العبارات. وتدخل فتاة صغيرة إلى مكتبته وتسأله عن قاموس للغة الإنكليزية. يلبس منصور على وجهه أفضل سلوك ساحر مغر. ويكتشف منها أنها طالبة مسجلة في دورات اللغة الإنكليزية لصفوف المتبدلين. وهنا يعرض الابن الشهم لبائع الكتب خدماته على الفتاة.

"قليلون هم الناس الذين يدخلون إلى محلنا، لذلك فإنني أستطيع أن أساعدك في تصحيح الفروض التي تُعطى لك بين وقت وآخر". لكن الفتاة ذهبت ولم ترجع أبداً.

"إن قلبسي آثم"، يصرُّ إلى أخيه الأصغر. فهو يعرف أن عليه ألا يفكر بالفتيات.

وفي أحد الأيام، يكون في زيارة لرحيم الله، فتدخل فتاة صغيرة إلى الدكان. وهي قد تكون في الثانية عشرة، أو في الرابعة عشرة من عمرها.

محمد إليهما يدًا قادرةً طالبةً منهما الصدقة. كانت تغطي رأسها بمنديل أبيض متسخ مُطْبَع بِسُورُود حمراء. فهي لا تزال صغيرة على ارتداء البوركاء. فاشتراط ارتداء البوركاء لا يتوجب على الفتاة إلا بعد بلوغها النضج.

والمتمسولون كثيراً ما يدخلون إلى الدكاكين. ومصور لا يتأخر في المصادة عن إكرامهم. لكن رحيم الله يقى واقفاً، وهو يراقب الوجه الطفولي الذي يشبه القلب، ثم يستخرج عشر ورقات من البنكوت من جيبه. وتنتظر الفتاة المتسولة إلى رزمة النقود بعينين واسعتين مندهشتين، ومحمدُ يدها لا لتقاف الأوراق في جشع. ولكن حالما تقترب أناملها من النقود، فإن رحيم الله يسحب يده في سرعة عاطفة. ثم يقوم بعمل دائرة كبيرة في الهواء حول وجه الفتاة مستعملاً الأوراق النقدية، مبقياً نظرتَه المسمرة عليها.

"لا شيء، يأتي في هذه الحياة دون مقابل"، يقول لها.

تتحمّد يد الفتاة. ويقوم رحيم الله بإعطائها ورقتين منها فقط.

"أذهبى إلى الحمام، استحمي، ثم عودي إليّ كي أعطيك بقية النقود".

تضع النقود بسرعة في جيب فستانها ثم تخبئ وجهها خلف شالها القذر المُطْبَع بِالسُورُود الحمراء، وتنتظر إليه من خلال عين واحدة. ويكون على أحد يديها آثار بنور ناتجة عن قروح قديمة. كما أن اليعوض قد ترك آثار لسعاته فوق جبينها. تستدير وتخرج، ويختفي الجسد النحيل في شوارع كابول.

وبعد ساعات قليلة تعود الفتاة وهي نظيفة.

"آه، تباً لك"، يقول رحيم الله، رغم أنها ما زالت ترندي الثياب المتسخة نفسها. "تعالى معي إلى الغرفة الداخلية وسوف أعطيك بقية النقود". ينسجم لها ويدخلان إلى داخل الغرفة.

ويبقى منصور في غير راحة، متروكاً لوحده في الدكان؛ وهو لا يدري ما إذا كان عليه أن يغادر ذلك المكان. وفجأة يخرج البائع إليه.

"هي الآن لك"، يقول لمنصور.

يستجمع منصور في مكانه. يحذق إلى رحيم الله. يلقي نظرة إلى الباب المؤدي إلى الغرفة الخلفية، ثم يترك الحانوت ويخرج إلى الشارع مسرعاً.

نواة من علاج

يلازمه شعور بالسقم والقرف والحزن لمدة أيام. إنها خطيئة "لا تنفصر" يدور في باله. "لن يساعني الله". يحاول أن يغتسل وأن يتطهر، ولكن لا شيء ينفع. يحاول الصلاة، ولكن لا شيء يجدي. يلمس القرآن الكريم، يتأبطه ويذهب إلى الجامع، لكنه ما زال يشعر بالقدارة، إنه قدر. فالأفكار الخبيثة كانت تتنامى في داخله منذ وقت طويل بحيث إنها حولته إلى مسلم ضال عن الإسلام. ولا بد من أن الله سينزل به أشد العقاب، "فكل أعمال المرء مردودة عليه" يقول في خاطره. "إنها طفلة. لقد ارتكبت جريمة بحق طفلة. لقد سمحت له بالاعتداء عليها. وإنني لم أفعل شيئاً من أجلها".

ويعود إليه الغثيان، ويحمل على كتفيه وزر العالم، ولكن بعد فترة من الزمن، فإن ذكرياته عن الفتاة المتسولة تتلاشى. لقد سئم الحياة، وروتينها، وعصفتها. صار سيئ الطباع، نفوراً تجاه الجميع. بات غاصباً من أبيه. إنه أبوه الذي قيده إلى دكان الكتب، يمس الحياة تجري من دونه.

"إنني في السابعة عشرة من عمري"، يعتقد. "وحياي قد انتهت قبل أن تبدأ".

يجلس مستغرقًا في أفكاره الكمية خلف البضد، واضعاً مرفقيه على ظهر الطاولة، ودلفاً رأسه بين راحتيه. يرفع رأسه ناظراً حوله إلى الكتب الكثيرة عن الإسلام، وعن النبي محمد (ص)، وعن التفسير الشهيرة للقرآن الكريم. كما يرى كتباً عن الأساطير والخرافات الأفغانية، وكتباً عن السمر النانية للملوك والملكات الأفغان، ومجلدات ضخمة حول الحروب التي دارت ضد البريطانيين، وكتباً رائعة حول الأحجار الكريمة الأفغانية، كتب تدريس عن فن الزخرفة والتطريز الأفغاني، وتوليفات مجمعة من كتب مستنسخة حول التقاليد والعادات الأفغانية. يجيل النظر بعبوس في كل هذه الكتب، ثم يضرب قبضة يده على ظهر الطاولة بعنف.

"لماذا كتب علي أن أولد في أفغانستان؟ إنني أكره أن أكون أفغانياً. كل هذه التقاليد والعادات الجامدة تقتلني ببطء. عليك أن تراعي هذا، وأن تحترم ذلك؛ ليس هنالك من حرية لي. لا يحق لي أن أقرر أي شيء. لا هم لسلطان، الذي هو والذي، سوى عدّ النقود الناتجة عن مبيعات المكتب".

هنا ما كان يجول في خاطره. "ليأخذ كتبه كلها ويحشوها في..." يقول متمسكاً آملاً ألا يكون أحد قد سمعه. إذ إن الأب يأتي مباشرة بعد الله والرسول في النظام الاجتماعي الأفغاني. فمعارضة الأب شيء مستحيل، حتى بالنسبة إلى متمرد من أمثال منصور. ومنصور يخاصم الجديران إن لم يجد أحداً سواها بخاصمه - عماته، أخواته، والدته، إخوته - لكنه أبداً لا يخاصم والده. "إنني عبد رقيق"، يقول لنفسه. "إنني مسخر حتى العظام في مقابل طعامي وشرابي وماسمي وملبسي". وأكثر ما يرغب منصور به هو أن يتمكن من الدراسة. فهو يفتقد الأصدقاء، ويفتقد الحياة التي عاشها في باكستان. أما هنا فلا وقت لديه للأصدقاء. أما الصديق الوحيد لديه، رحيم الله، فهو صديق لم تعد تطيق نفسه أن يراه.

كان الوقت قليل بدء السنة الأفغانية الجديدة؛ النوروز. وكانت الاستعدادات تجري للاحتفالات الكبيرة في طول البلاد وعرضها. ففي السنوات الخمس الماضية، كانت طالبان قد حرمت مثل هذه الاحتفالات. لقد اعتبرت الطالبان أن احتفالات النوروز ضرب من الوثنية، وضرب من عبادة الشمس، لأن جذور هذه الاحتفالات ترجع إلى السدين الرارادشتي - عبادة النار - التي كانت قد نشأت في الأصل في بلاد فارس في القرن السادس قبل الميلاد. وعليه، فإنهم حرّموا أيضاً زيارة السنة الجديدة إلى ضريح الإمام علي، الذي يسمى المزار الشريف. ولعدة قرون خلت، كان الزوّار يتقاطرون إلى ضريح الإمام علي أملاً في تطهير الأنفس من الذنوب والخطايا وفي التماس الغفران، أو من أجل التشافي من الأمراض. وعيد رأس السنة، الكبير الذي يبدأ وفقاً للروزنامة الأفغانية في الحادي والعشرين من شهر آذار/مارس، أي عندما يتساوى الليل والنهار في فصل الربيع.

وعليّ هو ابن عم النبي محمد (ص) وصهره، وهو رابع الخلفاء الراشدين. وكان هو سبب الجدل العنيف الديني الذي نشب بين المسلمين الشيعة، فإن عليّ بالنسبة إلى الشيعة يأتي في الدرجة الثانية بعد محمد؛ أما بالنسبة إلى المسلمين السنة، من أمثال منصور ومعظم الأفغانيين، فإنهم يعتبرون عليّاً أحد أكبر أبطال الإسلام. فهو محارب شجاع، "عليّ هو سيف الإسلام" كما يقول التاريخ. ولقد قضى عليّ قتلاً في الكوفة عام 661م، ووفقاً لمعظم الروايات التاريخية. فإنه قد دُفن في السنجف في العراق. لكن الأفغان يصرون على أن أتباع عليّ، الذين يخافون أن يقوم أعداؤه بالانتقام من جثمانه والاعتداء عليه بالتشويه بعد نبشه من قبره، فإنهم ربطوا جسده فوق ظهر ناقة بيضاء، وسرّحوها في الأرض جاعلين إياها تسافر قدر مستطاعها. وعندما تعبت الناقة

وتلاشت، دفنوه في ذلك المكان. وهذا ما تقوله الأسطورة، التي تحدد موقع القبر في المكان الذي يُعرف الآن بـ: "الزار الشريف". ولمدة خمسة ستة، لم يكن هنالك من إشارة تدل على موقع هذا القبر سوى حجر صغير، ولكن، في القرن الثاني عشر بُني فوق القبر ضريح صغير بعد أن زار طيف الإمام علي أحد الملالي المحليين في المنام. ثم وصل جنكيز خان إلى موقع القبر، وقام بانتهاك حرمة. ومرة جديدة، بقي القبر هنالك من دون إشارة تدل عليه لعدة مئات أخرى من السنين. وعند بداية القرن الخامس عشر، بُني له ضريح ضخم فوق المكان الذي اعتقلوا أن رفات جثمان الإمام علي لا تزال فيه. ويتألف الضريح من المدفن ومن الجامع الذي بُني بجانبه، وهو المكان ذاته الذي يسعى إليه الزوار.

وكان منصور قد عقد العزم على القيام بهذه الزيارة. لقد كان يقلب هذا الأمر في رأسه منذ بعض الوقت. وكل ما كان يحتاج إليه، هو أخذ موافقة والده سلطان، وخاصة أن رحلة الزيارة ستقتضي منه غياب بضعة أيام عن المكتبة. وإذا كان هنالك من شيء لا يطيقه سلطان، فهو أن يكون ابنه بعيداً عن البيت.

وكانت الصدفة حتى قد أوجدت لمصور رفيقاً يرافقه في هذا السفر، رفيقاً له صفة الصحفي الإيراني، وهو زبون كان قد اعتاد أن يستاع بعض الكتب من مكتبته. فقد حدث أنه كان يتحاذب الحديث مع الإيراني حول احتفالات السنة الجديدة، فقال له الأخير إنه يوجد متسع له في سيارته. "إن توبني مستحابة" يقول منصور لنفسه، "إن علياً بدعوتي، ويريد أن يسامعني".

لكن سلطان لن يلبث سوى أن يقول لا. فكيف سيتدبر الأمور من دونه خلال الوقت الذي تحتاج إليه الرحلة حتى وإن لم يكن هذا الوقت طويلاً. فلا بد من أنه سوف يحتاج بأن على منصور أن يشرف

على أعمال النجار الذي سيقوم بتركيب رفوف جديدة، وأن عليه أن يضع الكاتالوجات لأعماله، كما أن عليه أن يبيع الكتب، وخاصة أنه لا يمكنه أن يضع ثفته حتى في صهره المستقبلي، رسول. يغلي منصور غضباً. ولأنه قد تحبب مفاتحة والده في الأمر، فإنه أرجأ هذا الحديث حتى الليلة الأخيرة التي ستسبق الرحلة. لكن هذا لن يحدث. بقي منصور يلح في طلب الموافقة بينما الأب باق على موقفه الرفض.

"إنك ولدي، ومن الخير لك أن تعمل بما أقوله لك"، يقول سلطان. "وإنني في حاجة إليك في المكتبة".

"كتب، كتب، وقلوس، قلوس؛ هذا هو كل ما يهملك وما يشغل تفكيرك"، يقول منصور صائحاً. "علي أن أبيع الكتب عن أفغانستان، وأنا لا أعرف أي مكان من الأمكنة فيها. فانا لا أغادر كابول أبداً"، يقول بغضب.

إن الإيراني سيمطلق في رحلته في صباح الغد. ثور نائرة منصور. كيف يمكن لوالده أن يحرمه من هذه الفرصة؟ يقود السيارة بوالده إلى مكتبه دون أن ينبس بكلمة واحدة ويرد بإجابات مقتضبة كلما توجه إليه والده بسؤال. فالكراهية المتراكمة لديه تجاه والده تغلي في صدره. فمنصور لم يكن قد أنهى بعد سوى دراسة عشرة صفوف دراسية عندما أخرجته والده من المدرسة ليلقي به في المكتبة. فهو حتى لم يتهِ دراسته الثانوية. أما طلبياته جميعاً فلا تلقى سوى إجابة واحدة من والده هي: "لا"، والشيء الوحيد الذي كان والده قد وهب إياه هو هذه السيارة التي ليس من شأنها سوى تمكين منصور من تأمين تنقلات والده، هذا خلا عن مسؤولية هذه المكتبة التي سيتحول هو نفسه إلى غبار بين رفوفها.

"كما تشتتهي وترغب"، يقول لوالده فجأة. "إنني سوف أفعل كل ما تطلبه مني، لكن أرجوك ألا تعتقد أنني سأفعل ذلك عن قناعة وطيب

خاطر. إنك لم تسمح لي مرة بأن أفعل ما أريده أنا. بل إنك تسحقني سحقاً.

"يمكنك الذهاب في السنة القادمة"، يقول سلطان.

"كلا، لن أذهب أبداً. ولن أقوم بطلب أي طلب آخر منك أبداً".

إنه من الشائع أن أولئك الذين يستدعيهم عليّ هم الذين يستطيعون الذهاب إلى الزار. لم لا يريد عليّ أن يذهب؟ هل أفكاره التي فكّر فيها هي إلى هذه الدرجة من الاستعصاء على المغفرة؟ أم أن والده لم يسمع أن علياً يناديه؟

يشعر سلطان بقشعريرة جراء النيرة العدائية التي يكلمه بها والده.

يلقي نظرة إلى المراهق المتهور الذي يكاد ينفجر، فتصيبه رهبة.

وبعد أن يقود السيارة بوالده إلى محله، ويقود أخوه إلى محليهما،

يفتح منصور مكتبته ويجلس وراء طاوخته التي يعلوها الغبار. يجلس جلسته الجلائمة "الغارقة في الأفكار السوداء" مسنداً مرفقيه إلى الطاولة، وشاعراً أن الحياة تعامله كسجين، وتفرقه بغبار الكتب.

وصلت طلبية جديدة من الكتب. ومن أجل الاطلاع على هيئة

مضاميسها فقط، فقد شعر أن عليه أن يرى ما بداخلها. فإذا بها دواوين

أشعار للشاعر الصوفي جلال الدين الرومي الذي هو أحد الشعراء المفضلين

عند والده، وأحد أفضل الصوفيين الأفغان والمسلمين. وكان جلال الدين

هنا قد ولد في مدينة بلخ في العقد الأول من القرن الثالث عشر، بالقرب

من المسار الشريفي. "لا بدّ من أن هذه إشارة أخرى، يدور في خلدي

منصور. يقرّر أن يتفحص الإشارات التي تأتي في سياق تأييد خطته الهادفة

إلى إقامة السرهان على خطأ والده. وتكون القصائد عن تطهير الإنسان

لنفسه من أجل التقرب إلى الله الذي هو الكمال بعينه. قصائد تدور حول

نيل الأناية والتخلي عن الذات. ويقول جلال الدين في إحداها:

ليست الأنا
سوى حجاب
يحجب الخلق
عن خالقهم.

ويكمل منصور القراءة ليرى كيف يستطيع أن يدبر وجهه إلى الله، وكيف أن الحياة يجب أن تتمحور حول طاعة الله، وليس حول أنانية المرء. ويشعر منصور بالقنارة من جديد. وكلما ازداد قراءة، ازداد تصميمه على الزيارة. وهو لا ينفك عن العودة إلى القصائد الأكثر بساطة.

قالت المياه للشخص المذنب
إن "تعال إلي".
وقال الشخص المذنب،
"يا لخلي وعاري. كيف لي الاقتراب منك؟"
وأجلبته المياه:
"ولكن كيف لخلقك أن يزول دون
أن تكلم إلي للاغتسال؟".

* * *

لا بد من أن الإيراني يتوقّل في هذه الساعة بسيارته جبال هندو كوش التي تكمل الثلوج قممها. ويمضي منصور لماره بكامله غاضباً حانقاً. وعندما يهبط الليل ويأتي وقت إقفال المكتبة، للسعي لالتقاط والده وأخويه وقيادة السيارة بهم جميعاً إلى البيت، حيث لن يكون في انتظارهم سوى سلطانية أعرجى من الأرز، وسهرة أعرجى مع العائلة المخبلة.

وعندما يضع الأقفال على المفلاق الثقيل لباب المكتبة، يظهر "أكبر"، الصحافي الإيراني، أمامه فحاة. ويخال منصور أنه لا يرى سوى شيخ للرجل.

"ألم تسافر بعد؟" يسأله بصوت مندهش.
 "بـل ذهبنا، لكن نفق سالانغ كان مغلقاً هذا اليوم، لذلك فإننا
 سنعيد المحاولة غداً"، يقول له. "لقد قابلت والدك في الطريق، وقد طلب
 إلي أن أقوم باصطحابك معي. وسوف نعاد من مسكني عند الساعة
 الخامسة من صباح غد، حالما يُرفع وقت حظر التحوال".
 "هل قال ذلك لك بالفعل؟" يبدو منصور مندهلاً. "لا بد من أن
 علياً يناديني؛ تخيل إنه حقاً قد ناداني"، يقول مغمضاً.

ويقضي منصور ليلته مع أكبر من أجل التأكد من أنه سوف
 يصبحوا باكرأ، ومن أجل ضمان عدم قيام والده بتعديل رأيه. وفي
 الصباح التالي، وقبل بزوغ الفجر، ينطلقون. ولقد اقتصر متاع منصور
 على حقيبة بلاستيكية مليئة بقفازي الكولا، والغانتا، والبسكويت المحشو
 بملوى الموز والكيوي. ويكون في صحبة أكبر رفيق آخر، ويبدو الجميع
 في معنويات عالية. ويستمعون في السيارة إلى أشرطة من أغاني الأفلام
 الهندية وينشدون الأغاني بأعلى أصواتهم. ولقد أحضر منصور ثروته
 الغالية معه، شريط كاسيت غربي، شريط من أغاني البوب التي
 كانت شائعة في الثمانينيات. "ما الحب يا حبيبي؟ لا تعذبني... لا
 تعذبني أكثر من ذلك" تنطلق الأغنية في هواء الصباح البارد. وقبل أن
 يقطعوا مسافة نصف ساعة، كان منصور قد التهم ما في العلبة الأولى
 من البسكويت وشرب قنينتي كوكاكولا. وها هو يشعر بالحرية، ها
 هو يريد أن يصرخ وينادي، لذلك فهو يُخرج رأسه من الشباك منادياً.
 "أرووه علي ي ي ي ها أنذا قادم".

ويمرون بمناطق لم يكن قد رآها من قبل، فبعد شمالي كابل مباشرة،
 يسأني سهل شومالي، الذي هو منطقة من أكثر الأماكن التي مزقتها
 الحرب في أفغانستان. هنا كانت القنابل التي ألقت بها المقاتلات

الأميركية من طراز B-52 قد هزّت الأرض هزاً منذ أشهر قليلة فقط. "يا لجمال الطبيعة" يصبح منصور. فعلى المدى البعيد يبدو هذا السهل شديد الجمال على خلفية من جبال هندو كوش الضخمة المكلفة بالثلوج، والتي تشمخ في أعالي السماء. وعبرة "هندو كوش" تعني قاتل الهنود. حيث كان ألوف من الجنود الهنود قد تمخّدوا حتى الموت على هذه السلسلة من الجبال خلال الغارات التي شنت على كابول.

فعندما يدخل الواحد السهر، فإن آثار ميدان المعارك تصبح واضحة. وبالمقارنة مع ما جرى مع الجنود الهنود، فإن سلسلة جبال هندو كوش لم تستطع أن تصدّ غارات فاذاغات القنابل من طراز B-52. فالعديد من مخيمات الطالبان التي كانت الطائرات قد أمطرها بالقنابل، كانت إزالة أنقاضها لم تيسر بعد. أما ملاحتهم وتحصيناتهم فكانت قد تحولّت إلى صناديق إسمنتية كبيرة مدمرة أو مبعثرة فوق مساحة تلك المنطقة بعد انفجارها إثر ارتطام قنابل الطائرات بها. فهنا سرير حديدي ملتبس على نفسه، حيث قد يكون عنصر من الطالبان قد قتل بينما هو غاف على هذا السرير. إذ إن ثمة ما يشبه هيكلًا عظميًا إلى جانب الطريق، إضافة إلى فراش قد نخرته الشظايا، بالقرب من الهيكل العظمي.

لكن تلك المخيمات كانت قد هُبت في أكثرها. هُبت بعد مرور ساعات قليلة فقط على هروب طالبان. إذ لم يتأخر السكان المحليون كثيراً عن سلب أمتعة العسكريين، من أوعية لفصل الأوجه والأيدي، إلى قناديل الزيت، إلى السجاجيد، إلى البسط. فالفاقة جعلت تهب ما على الجثث أمراً لا محيد عنه. فلا أحد يأسف للأجساد الميتة على جوانب الطرقات وفوق الرمال. بل على العكس، فإن السكان المحليين قاموا بالتمثيل بعدد من هذه

الجيش: فالأعين اقتلعت، والجلد جرى سلخه، وأعضاء الأجساد جرى يترها وتقطيعها إرباً. كان كل ذلك انتقاماً من الطالبان الذين قاموا بترويع سكان سهل شومالي لعدة سنوات.

فلمدة خمس سنوات، كان هذا السهل يشكل خط الجبهة بين الطالبان وبين رجال مسعود المنتمين إلى تحالف قوات الشمال. وقد تم تبادل السيطرة على السهل ست مرات. لأن الجبهة كانت على الدوام في مدّ وجزر. وكان على السكان المحليين الحرب إما شمالاً في اتجاه وادي اليانشير، وإما جنوباً في اتجاه كابول. وكان السكان المحليون في غالبيتهم من الطاحيك. وكل من يتحرّأ على الخروج يجازف بأن يقع ضحية للتطهير القبلي العرقي الذي يمارسه الطالبان. وقبل أن تتسحب قوات الطالبان، كانت قد قامت بتسميم الآبار، وفجّرت قساطل المياه، والسدود، وهي من الأمور شديدة الحيوية في سهل جاف كان قبل الحرب يشكل سلة الغذاء والخبز لمدينة كابول.

ويحدّق منصور في صمت إلى القرى الكئيبية التي يمرون بها، وهي التي كانت قد دمّرتها الحرب. فمعظم تلك القرى لم تعد سوى خرائب ومبانٍ مدمرة ترتفع في الفضاء كالحياكل العظمية. لقد كانت قوات الطالبان قد قامت بتدمير عدد من القرى تدميراً منهجياً حيث أزالوها تماماً. كان ذلك عندما حاولت طالبان قمع آخر جزء من البلاد، العُشر المفقود: وادي اليانشير، جبال الـ: هندو كوش، والمناطق الصحراوية المتاخمة لطاجيكستان. ولربما كانوا قد استطاعوا إخماد غيظهم تلك لو لم تحدث أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، عندما بدأ العالم يتوجّه بأنظاره نحو أفغانستان.

كانت الدبابات الملوثة على نفسها، والعربات العسكرية المحطمة، والقطيع المعدية المتناثرة التي لا يكاد منصور يعرف الغرض منها سوى

بالظن والتخمين، كلها مبعثرة على الأرض. وكان ثمة رجل مستوحش يسير خلف مخراث. وفي وسط الأرض التي يعمل على حراستها يربض حطام دبابسة كبيرة. وها هو يمشي بمشقة حوطاً؛ إلها ثقيلة ويصعب تحريكها.

وتتحرك السيارة في سرعة فوق الطريق المحدد. ويحاول منصور جاهداً تحديد موقع قرية أمه. فهو لم يزرها منذ أن كان لا يزال في الخامسة أو السادسة من عمره. فإصبعه لا تنفك عن الإشارة إلى المزيد من الأطلال والخرائب. أتكون هي هناك! أم هناك! لكن لا شيء يفيد لتمييز قرية عن سواها. فالمكان الذي زار فيه أقارب أمه عندما كان ولداً صغيراً يمكن أن يكون هو أي من أكوام الأبقاض هذه. وهو ما زال يتذكر كيف كان يلعب حول الممرات والحقول. والآن ها هو ذا السهل الذي يعتبر من أكثر الأراضي في العالم كثافة بالألغام المزروعة. فالطرقات وحدها هي المأمونة. والأطفال الذين يحملون أغماراً من حطب الموقد، والنساء الحاملات لدلاء من المياه، يسرون إلى جانبي الطريق. وهم يحاولون اجتناب الحفر، الحفر التي قد تكون مزروعة بالألغام. وعمر السيارة الحاملة للزوار بفريق من منظقي الألغام الذين يقومون بطرائق منهجية إما بتفجير الألغام أو بتعطيلها. لكن ياردات قليلة هي التي ينتهي العمل من تنظيفها في كل يوم.

وبين مصائد الموت تمتلئ الحفر بالزنايق البرية الحمراء الداكنة قصيرة الميقان. لكن الاستمتاع بهذه الأزهار لا يمكن سوى أن يبقى من مسافة بعيدة. فمحاولة التقاط أي زهرة قد تعني انفجار لغم ينتهي بتر ساق أو ذراع.

ويتسلل أكبر بكتاب كانت قد نشرته مظلة السياحة الأفغانية في العام 1967. وجاء في الكتاب:

"على امتداد الطرقات يلقى السائح أطفالاً يبيعون سلاسل من الزنابق الحمراء الوردية". ويتابع القراءة: "وفي فصل الربيع، تستلقت أزهار أشجار الكرز، والحوخ، واللوز، والكشمري، أنظار المسافرين. فشمعة مشهد زاهر يواكب سفر المسافر على أي طريق يسلكه إلى كابل" ويتضحكون. ففي هذا الربيع لم يكونوا قد لاحظوا بعد سوى شجرة كرز واحدة، أو شجرتين متعردتين، كانتا قد أصرتا على العيش رغم القصف، والقنابل، والصواريخ التي عاثت في الأرض مدة ثلاث سنوات حتى أجدهما، وسممت آبارها. ولكن حتى شجرات الكرز التي قاومت الموت حتى الآن كان يصعب العثور على ممر إليها يكون مأموناً من دون وجود الغمام. ويتابع: "إن الحزف المحلي هو من بين أجمل الحزف الذي تنتجه أفغانستان. وإنما نتصح السائح بالتوقف لإلقاء نظرة على ورش العمل المنتشرة على جانبي الطريق، حيث يقوم الحزفيون بصناعة الصحون والمزهريات على الطريقة التقليدية التي توارثوها منذ قرون".

"يسبق أن هذه الحرف والتقاليد تشهد معاناة"، يقول سعيد، صديق أكبر، الذي كان يتولى قيادة السيارة. ليس هنالك من ورشة صناعة فخار واحدة تمكن ملاحظتها إلى جانب الطريق المؤدي إلى ممر سالانغ. يبدأون الآن في الصعود. يفتح منصور قفص الكوكاكولا الثالثة ويفرغها في جوفه ثم يرميها إلى خارج نافذة السيارة. لعله من الأفضل رمي النفايات فوق حقل الغمام من إبقائها في داخل السيارة. ويستمر الطريق في التلوي صعوداً إلى أعلى تقسج جبلي في العالم. هنا يضيق الطريق حيث يصبح إلى أحد جانبيه منحدر الجبل الشاهق قاسي الانحدار، وإلى جانبه الآخر مياه جارية، تستحول في بعض الأحيان إلى شلال ساقط، لتعود بعد ذلك لاتخاذ شكل ساقية، "إن الحكومة قد بنرت بنور سلك الترويت في الأنهار. وفي غضون

سنوات قليلة ستكون هنالك مستعمرة من الأسماك القابلة للعيش باستمرار"، تابع أكبر قراءته. وليس ثمة أسماك ترويت في هذا النهر الآن. فالحكومة كان لها مشاغل أخرى تشغلها عن تربية الأسماك منذ أن قام مؤلفو هذا الدليل السياحي بوضعه.

فالدبابات المحترقة تربض في أماكن لا يمكن للعقل تصورها: في أسفل جنبات الأودية، في النهر، على نوء واقع فوق صخرة شاهقة، إلى جانب الطرقات، منها ما هو مقلوب رأساً على عقب، ومنها ما هو محطم إلى قطع متناثرة. ويصل منصور في سرعة إلى رقم مئة بعد قليل من شروعه بعد الدبابات المحطمة. ومعظم هذه الدبابات المحطمة تعود إلى أيام الحرب ضد الاتحاد السوفياتي، وكانت قد دخلت عندما زحف الجيش الأحمر من الجمهوريات السوفياتية الوسطى في الشمال، وخال قادته أنهم قد أحكموا قبضتهم على الأفغانين، لكن الروس سرعان ما سقطوا ضحايا الخطط الحربية الذكية للمجاهدين. إذ إن هؤلاء المجاهدين قد استداروا حول الروس متسلقين سلسلة الجبال كأنهم الماعز. ومن البعيد، من المواقع الكاشفة في الجبال، بات باستطاعتهم تحدي مواقع وتحركات الدبابات الروسية التي كانت تسير في خط أشبه بسير الأفعى في بطون الأودية. فحق بأسلحتهم المصنعة محلياً كان الفدائيون يتمتعون بوضع حصين عندما يقومون بتنصب الكمائن. لقد كان جنود المجاهدين في كل مكان متكرين بالبسة الرعيان، بينما كانت بنادق الكلاشينكوف تختفي تحت بطون الماعز. وكان باستطاعتهم القيام بمجمات مباحة كلما احتاج الأمر منهم إلى ذلك.

"تحت بطون الماعز طويلة الشعر يمكنك حتى إخفاء قاذفات الصواريخ"، يروي أكبر، الذي كان قد قرأ كل ما وقعت عليه يده عن الحرب التي يخاضها المجاهدون ضد القوات السوفياتية.

والإسكندر الكبير كان قد كابد سلوك طرقات هذه الجبال أيضاً. فبعد أن تمكن من السيطرة على المنطقة المحيطة بكابول، تسلق بحيشه سلسلة جبال هندو كوش شاقاً طريقه نحو آسيا الوسطى الواقعة على الجانب الآخر من نهر الأوكسوس. "لا بدّ من أن الإسكندر قد استلهم قصائد غنائية من الجبال التي ألهمت بالأفكار الصوفية والسكينة الأبدية". يتابع أكبر قراءته من الكتاب.

"لقد وضعت الحكومة عطلاً لإقامة مركز للترجل هنا"، يصيح فجأة وهو ينظر إلى النبسطات الجبلية شديدة الانحدار. "في العام 1967 حالما ينتهي العمل من تعبيد الطرقات، كما ذكر في الكتاب".

وكانت الطرقات قد تمّ تعبيدها كما وعدت منظمة السياحة الأفغانية، لكن لم يبقَ الكثير من المحارة المرصوفة فيها. أما خطط إقامة مركز للترجل، فلم تعدّ كوالها قد بقيت حراً على ورق.

"إن مركز التزلج قد استبدل بحفائر المتفجرات". يقول أكبر متضاحكاً. "أو ربما يمكن تسمية هذه الألفام بأنها 'سلالوم غايتس'، (يقصد فضيحة مشروع حقل التزلج)، أو 'الرحالة المغامرون' أو 'الرحلات الأفغانية المثيرة' - تحت وطأة ضجر الدنيا".

ويتضاحك الجميع. فالحقيقة التراجيدية تتحلّى أحياناً بما هو أشبه بفيلم كرتون، أو ربما بفيلم رعب. فهم يتخيّلون المنحدرات الثلجية مهيحة الألوان والمنظر وهي تنفجر إلى نثار متطاير في الفضاء ومتهبل على حواف الجبل.

إن السياحة التي كانت تمثل مصدراً هاماً للدخل القومي في أفغانستان قد باتت الآن شيئاً من الماضي. ويتابعون القيادة على طول ما كان قد سُمّي يوماً "طريق الهيبيين". فقد كان الشباب التقدمي، أو بالأحرى اللاتقدمي بما فيه الكفاية، قد أتى إلى أفغانستان للاستمتاع

بالمناظر الطبيعية الجميلة، والحياة الحرة البدائية، ومادة حشيشة الكيف لتوفرة بأسعار رخيصة لا تضاهي في أي مكان آخر من العالم. أما بالنسبة إلى أولئك الذين هم أكثر نوعاً في حياة المحدثات، فهناك الأفنيون أيضاً. ففي فترة الستينيات والسبعينيات، كان الهيبون يأتون إلى هذه الأرياف الجبلية في كل عام، حيث يستأجرون سيارات قديمة من طراز لادا وينطلقون بها، حتى النساء كنّ يسافرن لوحدهن حول تلك المسطقة الجبلية. ففي تلك الأيام، كان من الممكن أن يقوم قطاع الطرقات والسيلابون بمهاجمة أولئك السواح، لكن كل ذلك لم يكن من شأنه أن يزيد الرحلة إلا إثارة. فحقق الانقلاب العسكري الذي جرى ضد راهر شاه في العام 1973، فشل في وقف موجات تلك السياحة المثيرة. لقد كان الانقلاب العسكري الشيوعي في العام 1978، وما أعقبه من غزو سوفياتي بعد ذلك بعام واحد، هو ما وضع في نهاية الأمر حداً لموجة متسلقي الجبال من الهيبين.

* * *

كان الشيباب الثلاثة قد أمضوا ساعتين من القيادة، قبل أن يستحقوا بسذيل قافلة سيارات الزوكر لكن القافلة لا تتحرك الآن لأن الثلج قد بدأ بالتساقط. ثم تحركت جحافل الشيباب، وبدأت عجلات السيارة تنزلق أثناء المسير. ولم يكن سعيد قد زود العجلات بسلاسل معدنية أو احتاط لنفسه بحمل طاقم من السلاسل في سيارته. "إنك لا تحتاج إلى سلاسل مع سيارات الدفع الرباعي"، قال لرفاقه مؤكداً.

ويتزايد عدد السيارات التي تدور عجلاتها في مكانها لدى وقوعها في الأخاديد العميقة المعطاة بالثلوج، والموجودة في وسط الطريق. وعندما تتوقف سيارة واحدة، يتوقف خلفها كل طابور السيارات.

فالطريق ضيق جداً بحيث إنه لا يُسمح بالتجاوز. واليوم يتجه السير في اتجاه واحد من الشمال إلى الجنوب، أي من كابول إلى المزار الشريف، أما في اليوم الذي يليه فسوف يكون اتجاه السير في العكس. فالطريق الجبلي لا يستوعب إمكانية قيادة السيارات عليه في الاتجاهين المتعاكسين. والطريق الذي يبلغ طوله ثلاثمائة ميل من كابول إلى المزار يستغرق على الأقل اثني عشرة ساعة لإكمال السفر عليه، وأحياناً قد يستغرق الأمر ضعف هذا الوقت أو حتى أربعة أضعافه.

"كثير من السيارات التي تنحرف بها العواصف الثلجية، أو تعرفها الانهيارات الجليدية، لا يمكن استعراجها من الأماكن التي تستقر فيها إلا في فصل الصيف. ومعظم هذه السيارات تختفي في فصل الربيع"، يقول أكبر مناكفاً سعيداً.

يستحارزون الحافلة التي تسببت باحتقان السير، كانت قد دُفعت عيماً إلى شمال الطريق، بينما الركاب الذين كانوا يستقلونها يحاولون الآن متابعة طريقهم إلى المزار عن طريق التماس الركوب في السيارات الأخرى التي قد تتوقف لالتقاط بعضهم، يمرون في محاذاة قافلة ركاب الحافلة المنتشرين. ويتسم منصور عندما يرى الكلام المكتوب على جاب الحافلة: "هامبورك - فرانكفورت - لاندن - كابال"، يقرأ وهو يعرق بالضحك عندما يرى طريقة تهجئة حروف العبارة المكتوبة على الزجاج الأمامي أيضاً: "Wellcam! Kaing of Road" وهي مكتوبة بنسط أحمر حديد. "يا لها من رحلة ملكية" يصبح باستهزاء، لم يلتقطوا معهم أباً من ركاب الحافلة، حافلة ركاب إكسبرس. فسعيد، ومنصور، وأكبر غارقون في عالمهم الصغير.

يقودون سيارتهم إلى أن يصلوا إلى الرواق الأول؛ أعمدة من الكونكريت الصلب يغطيها سقف يحمي الطريق من الانهيارات الثلجية.

لكن هذه الأروقة بقيت رغم ذلك عقبات صعبة من الطريق بصعب التغلب عليها. والسبب يعود إلى أن هذه الممرات بقيت مفتوحة الجانبين أمام عناصر الطبيعة، لذلك فهي مليئة بالثلوج التي تذررها الرياح إلى داخلها ثم تتحول بعد ذلك إلى جليد. فالحفر العميقة المغطاة بالجليد تبقى تشكل تحدياً للسيارات حتى التي لها عجلات مزودة بسلاسل.

وتلك الأروقة التي يبلغ علو مرقع بعضها ستة عشر ألف قدم فوق سطح البحر، ونفق سالانغ الذي يبلغ أحد عشر ألف قدم فوق سطح البحر، عبارة عن هدية مقدمة إلى أفغانستان عندما حاول الاتحاد السوفياتي تحويل هذه البلاد إلى دولة تسير في ملكه. لقد بدأ العمل مع المهندسين السوفيات في العام 1956، وانتهى في العام 1964. كما أن الروس كانوا قد بدأوا تعبيد أولى الطرقات في البلاد في الخمسينيات خلال فترة حكم الملك زاهر شاه لأفغانستان حينما كان السوفيات يعتبرون أفغانستان دولة صديقة. لقد وجد هذا الملك الليبرالي نفسه مجبراً على التحول نحو الاتحاد السوفياتي لأنه وجد أن لا الولايات المتحدة، ولا أوروبا، مهتمان بالاستثمار في بلاده الجبلية. وكان الملك في حاجة إلى الأموال وإلى الخبرات. لذلك فإنه اضطر أن يتجاهل الحقيقة التي تقول: إن العلاقات والروابط مع الاتحاد السوفياتي تصبح صعبة الانفكاك أكثر فأكثر.

لصد كان هذا النفق ذا أهمية استراتيجية في المقاومة ضد منظمة الطالبان. وفي نهاية التسعينيات كان قد جرى نسفه على يد بطل المجاهدين مسعود، وذلك في سعي مستميت منه لوقف زحف طالبان نحو الشمال. لذلك فقد وصل رجال الطالبان إلى تلك النقطة ولم يتمكنوا من تعديها.

كان الطريق إما معتماً تماماً، وإما أغبش تماماً. والسيارة تنزلق وتغوص في الثلوج، أو تعلق عجلاتها في الحفر العميقة. وكانت الرياح تصفر، ولا يقدر المرء تمييز شيء في تلك العاصفة الثلجية. ولم يكن سعيد ليستطيع تتبع سوى ما يعتقد أنه أثر الطريق. فهم يقودون سيارتهم فوق الثلج والجليد الأسود.

وتنفش الرؤية قليلاً. وها هم عند مدخل نفق سالانغ. وثمة ملاحظة عند المدخل تحذر المسافرين: "نرجو الانتباه. خطر التسمم. إذا علقست سيارتكم في الداخل، أوقفوا عمل المحرك وتوجهوا إلى أقرب مخرج". وينظر منصور نظرة متسائلة في اتجاه أكبر.

"منذ شهر واحد فقط، كان خمسون شخصاً قد احتجزوا في داخل النفق بسبب الهيار ثلجي"، يقول لهم رفيقهم العارف، أكبر. "كانت الحرارة حوالي عشرين درجة تحت الصفر وقد أبقى السائق المحرك قيد العمل أملاً في إبقائه دافئاً. وبعد عدة ساعات، وبعدما تمكنوا من حرف جميع الثلوج، كان عشرة أو عشرون من الركاب قد سقطوا في حالة إغماء بسبب التسمم بغاز أول أكسيد الكربون وماتوا"، يقول أكبر بينما هم يدخلون بعربتهم إلى داخل النفق.

تتوقف سيارة، ويتوقف تقدم رتل السيارات بكامله.

"إنسى رائق من أنني لست في حالة تحيّل"، يقول أكبر. "لكنني أشعر أن صداعاً يتأبني".

"أوافقك الرأي"، قال منصور. "هل علينا الاتجاه نحو أقرب المنافذ؟".

"لا دعنا نأمل في أن يتحرك السمر قريباً"، قال سعيد. "إنني أتحيل أنه إذا بدأ رتل السيارات بالتحرك وكنا قد غادرتنا السيارة، فإننا سوف نكون نحن سبب عرقلة سمر الآخرين".

"هل يشعر هكذا من يموت بسبب التسمم بأول أكسيد الكربون؟"
 يتساءل منصور. فهم يجلسون خلف شبايك السيارة المغلقة. ويقوم
 سعيد بإشعال سيجارة، فيصرخ به منصور: "هل أنت مجنون؟" يصبح
 أكبر نازعاً للسيجارة من فم سعيد، ثم يقوم بإطفائها: "هل تريد القيام
 بتسميمنا أكثر مما نحن متسممون؟".

وينتشر شعور عائق بالرعب. فالرتل لا يزال على حاله من توقف
 الحركة. ثم يحدث شيء ما، فتتحرك السيارات التي هي أمام سيارتهم
 إلى الأمام. ثم تقوم السيارة التي تتقدم سيارتهم مباشرة بالتخاذ طريقها إلى
 خارج النفق ويخرجون هم منه بصداع يكاد يفلق رؤوسهم. أما عندما
 يصدمهم الهواء النقي، فإن كل الصداع يتبخر. لكنهم لا يزالون يعانون
 من عدم انقشاع الرؤية، فالضباب أشبه بدوامة من العvisدة البيضاء
 الرمادية المدوامة. لذلك فإنهم يتابعون الأنوار الذيلية للسيارة التي
 تتقدمهم مباشرة. ولقد كان التحول عن ذلك مستحيلاً. ويتابعون
 القيادة خلف هذا الموكب الذي بات قدرهم السر وراءه كيما
 استتار. وكل زائر يتابع النزول في الحفر المغطاة بالجليد ذاتها. حتى
 منصور توقف عن قضم البسكويت. صارت القيادة أشبه بالتوجه نحو
 الهاوية، ولكن هذه الهاوية فيها ما فيها من المنحدرات الشاهقة،
 والاختيارات الثلجية، والألغام، وسواها من المخاطر التي قد تظهر فجأة.
 وأخيراً ينقشع الضباب، لكنهم ما زالوا يقودون على طريق واقع
 على حافة جرف. لقد باتت الأمور الآن أسوأ بالنسبة إليهم لأنهم
 صاروا يستطيعون رؤية الخطر الحقيق بهم. لقد بدأوا الآن بالانحدار.
 والسيارة تنزاح من جانب إلى جانب. وفجأة تنزلق هم إلى جانب
 الطريق. يفقد سعيد سيطرته على السيارة فتنتلق شتمة من فمه. يبقى
 أكبر ومنصور متمسكين بمكانسيهما بشدة، كما لو أن ذلك قد

يساعدهما إذا انقلبت السيارة. ويرين صمت متوتر من جديد على جو السيارة التي لا تلبث أن تنزلق من جديد لتصحح مسارها ثم لتنزلق مرة أخرى من جانب لآخر، ثم لتتابع سيرها، ثم يمرّون بالقرب من إشارة تنبيه يكاد رعبها يطفئ كل أبصارهم. "انتبه! الغام!" وتكون الإشارة موجودة في نقطة تقع عند حدود المجال الذي انزلقت سيارتهم إليه! بل إنها تقع داخل هذا المجال. إنهم دخلوا حقل ألغام. فجميع تراكمات الثلج في العالم لا يمكنها أن تقيهم شر الألغام المضادة للدروع. "هذا ضرب من الجنون"، يتخيل إلى منصور، لكنه لا يقول شيئاً. فهو لا يريد أن يبدو جباناً. ومع كل ذلك، فإنه الأصغر سناً بينهم. ويلقى نظرة إلى الدبابات المبعثرة على الثلج، حيث يغطي بعضها، كما يغطي بعض السيارات التي لم تستطع مرة متابعة السير. ويصلي منصور. فمع أن سلوكه في بعض الأحيان كان مخالفاً للإسلام، إلا أنه الآن داهب من أجل تطهير نفسه، ومن أجل رمي الأفكار الفاسدة وراء ظهره وتصيير نفسه مسلماً نقياً. وفي الوصلة الأخيرة من الطريق المنحدر من الجبل يخال منصور نفسه في حالة دهول عن النفس. ويدخلون السهول الخالية من الثلوج بعد فترة بدت لهم وكأنها الأبد الذي لا يريد أن ينتهي. فالساعات الأخيرة من رحلة السفر إلى المزار الشريف بدت لهم وكأنها لم أطفال، بالمقارنة إلى الساعات التي سبقتها.

وعلى الطريق المؤدي إلى المدينة، تتجاوزهم سيارات بيك آب محملة برجال مسلحين بكثافة. وهناك جنود ملتحون يجلسون فوق شاحنات مكشوفة وهم يحملون بنادق الكلاشينكوف المصوبة نحو كل اتجاه. شاحنات تتخبط في طريقها وهي تسير بسرعة ستين ميلاً في الساعة فوق طريق مليء بالأحاديث. أما المشهد الطبيعي المحيط فمشهد

صحراوي، تتخلله سهوب متدرجة، وتلال صخرية. ومن وقت لآخر، يرون قرب واحة خضراء صغيرة، أو بالقرب من قرى ذات بيوت من الطين. وعند مدخل المدينة يتوقفون عند متراس يقوم رجاله بإيقافهم عنده. رجال أجلاف يقومون بتسييرهم داخل خط عبور هو عبارة عن حبال مربوطة إلى قذائف مدفعية.

ويقودون سيارتهم إلى داخل المدينة وقد أعياهم التعب والمشقة. والملفت أنهم تمكنوا من إتمام الرحلة بكاملها في اثني عشرة ساعة، "إذاً، هذه كانت رحلة عادية بالكامل عبر نفق سالانغ"، يقول منصور. "ماذا عن أولئك الذين تستغرق الرحلة منهم عدة أيام؟ واو!.

ويكون الجنود المسلحون جاهزين فوق الأسطح. فالاضطرابات أمر كان متوقفاً عند بداية السنة الجديدة، ولا توجد قوات حفظ سلام دولية في هذه المنطقة، إذ لا يوجد فيها سوى اثنين أو ثلاثة من أمراء الحرب المتخصصين. أما الجنود المنتشرون فوق الأسطح فكانوا من جنود الحاكم الذي ينتمي إلى قبيلة هزارة. أما الجنود الذين هم في الشاحنات، فهم من الطاجيك المتمين إلى القائد عطا محمد. وثمة زي عسكري خاص، هو الإشارة الفارقة إلى رجال القائد الأوزبكي عبد الرشيد دوستم. كل الأسلحة مصوبة نحو الأرض، حيث يتحول الألوف من الزوار في الجوار أو يجلسون في جماعات لتبادل الحديث: إما بجانب المسجد، أو في ساحته، أو على الطرقات المحاذية له.

والمسجد الأزرق آية في التجلي والروعة في إشراقه وسط العتمة. إنه أجمل الأبنية التي كانت قد شاهدها عينا منصور على الإطلاق. أما الأنوار الفاهرة للمسجد فهي هدية من السفارة الأميركية، وذلك لمناسبة زيارة السفير إلى هذه المدينة عشية رأس السنة. والمصاييح الحمراء تضيء الميدان المحيط بالمسجد، ذلك الميدان الذي هو حاشد بالزوار.

هذا هو المكان الذي سيتوسل فيه منصور الصفع والغفران
والنظهر من الذنوب والخطايا. هنا سيعود طاهراً نقياً. فهو يكاد أن
ينمى عليه الجرد إلقاء نظرة على للمسجد الكبير. ولأنه جائع، فإن
الكوكاكولا والبسكويت المحشو بنكهة الكيوي والموز هي أشج الزاد
الذي يمكن أن يتوفر للمسافر.

"المطاعم حاشدة بالحجاج"، قال منصور. وهكذا، فإن أكبر قد
أوجد لهم زاوية على بساط في مطعم مظلم في شارع الكباب. أما
الرائحة التي تخرق كل شيء، فهي روائح لحوم الضأن المشوية التي تُقدّم
مع الخبز والبصل غير المقطّع.

وبعض منصور على بصلة، فيشعر وكأنه لمل. فهو يريد أن يرسل
عقيرته بالصباح طرباً. لكنه يكتفي بالجلوس في هدوء، ويملاً معدته
بالطعام، مثله في ذلك مثل سواه. فهو لم يعد طفلاً قاصراً، وهو يحاول
أن يحافظ على مظهر في السلوك يضارع مظهر سعيد وأكبر: مظهر
الشخص البارد، الهادئ، الرصين.

* * *

وفي صباح اليوم التالي، يستيقظ منصور على صوت المؤذن،
على عبارة الله أكبر، التي تصدح من مكبر الصوت. وينظر مباشرة
من الشباك في اتجاه الجامع الأزرق الذي يتلأأ تحت أشعة شمس
الصباح. ولثة اللثات من الحمام البيضاء تملأ في سماء ذلك المكان.
هذه الحمامات تسكن في برجين قريبين من الضريح. ويقال إن حمامة
رمادية إذا انضمت إلى ذلك السرب، لا بدّ من أن يتحول لونها
إلى اللون الأبيض في غضون أربعين يوماً. كما أن هنالك قولاً
مفاده: إن الحمامة السابعة من كل ست حمامات تكون عبارة عن
روح نقية.

وإلى جانب أكبر وسعيد، يدفع منصور بنفسه إلى داخل الصيوان المسور. وكانت الساعة حوالي الساعة والنصف صباحاً. وبفضل من بطاقة أكبر الصحافية، فإن الثلاثة يشقون طريقهم نحو المنصة. وكان الكثيرون قد أمضوا ليلتهم في هذا المكان من أجل تأمين مكان لهم يكون قريباً إلى المكان الذي سيرفع فيه حامد كارزاي، الذي هو الآن رئيس أفغانستان، الراية. فالنسوة يجلسن إلى جانب معين، وبعضهن يتلفعن بعباءات البوركاء، وبعضهن يكتفين بمنديل أبيض فقط. وعلى الجانب المقابل يجلس الرجال. وبينما تجلس النساء مصغيات صامتات على أديم الأرض، فإن جناح الرجال يشهد تدافعاً ومداً وجزراً. والأشجار الخارجية سوداء بالأناس الذين تسلقوا أغصانها. ورجال البوليس يتحولون بين الناس ملوحين بسياطهم، لكن المزيد والمزيد من الزوار يتدفقون من خلال فتحة الصيوان؛ حتى إن بعضهم لا يتورع عن القفز من فوقه متحاشياً لسع السياط. فالأمن هنا مشدد، لأن حضور جميع وزراء الحكومة هو أمر متوقع.

ويدخل الرسميون الحكوميون، يتقدمهم حامد كارزاي، وهو يلبس عباءة حريرية مخططة بالأزرق والأخضر. لقد اختار هذا اللباس لكسي يمثل فيه كل أفغانستان. فمن القبة المصنوعة من جلد الخراف، وهي قبة تأتي من قندهار في الجنوب، إلى العباءة الآتية من الشمال، إلى القميص الآتي من المناطق الغربية المحاذية لإيران.

يشرب منصور بعقه ويحاول المزيد من الاقتراب. فهو لم يسبق له أن رأى كارزاي من قبل. وكارزاي هو من الباشتون من قندهار، وكان قد قام هو شخصياً لفترة وجيزة من الزمن بمساندة طالبان. لكنه بعد ذلك استخدم مركزه كزعيم لقبيلة بوبولزاي لكسب مؤيدين له للقيام بمقاتلة الطالبان. وعندما شرع الأميركيون في حملة القصف

الجوي، غادر على متن دراجة نارية في مهمة تكاد تكون انتحارية، جال فيها على زعماء انقبائل في معازل طالبان لإقناعهم بأن طالبان قد انتهى أمرها. ومن الذائع أن هؤلاء الزعماء قد ائتمنوا من شجاعته أكثر مما ائتمنوا من حديثه. بعد ذلك كان على وشك أن يلقي حنفي بنيران أميركية صديقة. وفي مؤتمر الأمم المتحدة الذي انعقد في بون، والذي رسم خريطة مستقبل أفغانستان، تم اختياره كقائد جديد لبلاد.

"لقد حاولوا تدمير ثقافتنا. لقد حاولوا سحق تقاليدنا وعاداتنا. لقد حاولوا مسح إسلامنا"، نادى كارضاي بصوته فوق الجموع. "لقد حاولت الطالبان تليخ الإسلام، والقيام بمرنا جميعاً إلى حماة الأوحال، بمحاولة إعلان الحرب على العالم أجمع. لكننا نعرف ما الذي يدعو الإسلام إليه. فالإسلام هو السلام. والسنة التي تبدأ في هذا اليوم، هي سنة 1381، هي سنة التجديد. هذه هي السنة التي ستكون سنة سلام وحياة سكية في أفغانستان، سوف نقوم بحفظ الأمن والسلام، وسنسعى إلى تطوير المجتمع. اليوم نحن نتقبل المساعدة من العالم بأسره، وفي يوم من الأيام سوف نكون قادرين على تقديم المساعدة إلى العالم بأسره"، ينادي كارضاي بصوته فتهتاج الجموع فرحاً.

"إنه يقول نحن؟" يهمس منصور. "سوف نكون قادرين على مساعدة العالم بأسره؟".

إنها فكرة لم تخطر مرة في بال منصور لفرط غرابتها. فمنصور كان قد عاش كل حياته في ظل الحرب. ولم يعرف مرة عن أفغانستان سوى أنها بلد يستورد كل شيء من العالم الخارجي، بدءاً من الطعام وانتهاءً بالسلاح.

وبعد كارضاي اعلى للنصة الرئيس السابق برهان الدين رباني الذي هو رجل ذو وزن كبير وسلطة قليلة. فهو مظهر وأستاذ في جامعة كابول؛ وكان قد أسس حزب اجمعية الإسلامية، هذا الحزب الذي وحد بين بعض فصائل المجاهدين المنفرقة. وكان قد أقتع الاستراتيجية العسكري أحمد شاه مسعود بالانضمام إليه. ومسعود الذي كان قد خرج كبطل قومي كبير بعد النضال ضد الاتحاد السوفياتي، وبعد الحرب الأهلية، وبعد انتهاء المقاومة ضد طالبان. لقد كان قائداً ذا هبة وجلال، وعميق الإيمان، وكان حليفاً للغرب علي الدوام. وكان يتكلم اللغة الفرنسية ويرغب في تحديث بلاده. وقد تم اعتقاله علي يد انتحاريين تونسيين قبل يومين من حادثة الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، بعد أن كان قد حقق لنفسه احتراماً أسطورياً. كان في حوزة التونسيين جوازا سفر بلجيكيان، وقد قاما بتقلع نفسيهما كصحافيين. "أيها القائد، ما الذي سرف تفعله بإسامة بن لادن بعد أن تكون قد أنهيت من السيطرة علي أفغانستان؟". كان هذا هو السؤال الأخير الذي من المقترص أن يكون قد سمعه منهما. وقد تمكن من إطلاق ضحكة قل أن يتمكن الإرهابيان من الضغط علي زناد قبلة مخبوءة في داخل الكاميرا. حتى بعض الباحثون الآن يرفعون صوراً لمسعود بوصفه أسد البانثير.

ويكرس الآن رباني خطابه للكلام عن مسعود، لكن عصر رباني الذهبي كان إبان الحرب ضد الاتحاد السوفياتي. لقد أرغما الشيوعيين علي الخروج من بلدنا، ونستطيع إرغام جميع الغزاة علي الخروج من أفغانستان"، يقول للجماهير.

وبعد الانسحاب الروسي من أفغانستان عام 1989 بأشهر قليلة سقط حصار برلين، وهو حدث استغله رباني، بالإضافة إلى تفكك الاتحاد السوفياتي.

"لولا الجهاد، لكان العالم بأسره لا يزال يروح تحت قبضة الشيوعية. لقد سقط جدار برلين بسبب الهزائم التي ألحقناها بالاتحاد السوفياتي، وبسبب الإلهام الذي أعطيناه للشعوب المقهورة. لقد تسببتنا في تفسخ الاتحاد السوفياتي إلى خمسة عشر جزءاً. لقد قمنا بتحرير العالم من الشيوعية. فالجهاد قد قاد إلى ولادة عالم أكثر حرية. لقد أبعدنا العالم بأسره لأن الشيوعية قد لاقت مقبرتها في أفغانستان".

ويتحسس منصور كاميرته. وكان قد شق طريقه إلى مقربة من المنصة ليصبح على مسافة قريبة من المتكلمين. وهو حريص على النقاط صورة لكارضاي. ويقوم بالنقاط اللقطة تلو الأخرى للرجل الهزيل التحيل. فهذه الصور سوف تكون شيئاً يستحق أن يعرضه على والده. ويتكلم الخطباء واحداً تلو الآخر، كما يتقدمون بالأدعية والصلوات عن المنصة. ويقوم أحد الملاي بتقدم صلوات الشكر لله، بينما يقوم وزير الثقافة الأفغاني بتقدم تصور لأفغانستان تُحلي فيه الأسلحة في المجتمع الأفغاني الساحة مصلحة الإنترنت.

"قوموا باستبدال أجهزة الكمبيوتر بالبنادق"، يادي في الناس. ويضيف قائلاً: إن على الأفغان أن يوقفوا التمييز العنصري ضد الأقليات الإثنية. "انظروا إلى أميركا، حيث يعيش الجميع في بلد واحد، كلهم أميركيون، والجميع يتعايشون دون أي مشكلة".

أما خلال فترة خطابه، فإن السياط كانت لا تتوقف عن الحركة في صفوف الجمهور. لكن لا شيء ينفع. إذ لا تزال أعداد جديدة كبيرة من الناس تحشر نفسها عند البوابة من أجل الدخول إلى الصيوان. والجمهور يصرخ ويادي. وكان من الصعب على المرء في واقع الأمر أن يستمع جيداً إلى الكلمات. فالأمر بكامله بدا أشبه باحتفال شعبي منه بمناسبة دينية شعائرية. فالجنود المسلحون يسيطرون على الأدراج

والسطوح التي تحيط بالمسجد. وهناك ثلة من جنود القوات الأميركية الخاصة المدججين بالأسلحة الأوتوماتيكية ويضعون النظارات الشمسية متمركزين على أحد أسطح المسجد من أجل حماية السفير الأميركي ذي البشرة القرمزية الباهتة. كما أن جنوداً أميركيين آخرين كانوا يحيطون به. وبالنسبة إلى كثير من الأفغانيين فإن وجود الكفار الملحددين في رحاب المسجد هو بمحض ذاته عمل تدنيسي، خاصة قيامهم بالمشي فوق أسطحه. إذ لا يجوز دخول أي شخص من غير المسلمين إلى المسجد. ولذلك يقوم الحراس باحثاث اللامؤمنين إلى الخارج. لكن ليس ثمة الكثير مثل هؤلاء؛ فالسواح الغربيون لا يقومون عادة بالزيارة إلى أفغانستان في الربيع الأول الذي يلي سقوط طالبان. فلم يختفِ سرى عامل إغاثة أو اثنين خلال احتفالات رأس السنة الجديدة.

أما أمراء الحرب الكبار في المدينة، عطا محمد، والجنرال عبد الرشيد دوستم، فقد كان لهما مركزان محفوظان فوق المنصة. فالقائد الطاجيكي عطا محمد يقوم بحكم المدينة، والقائد الأوزبكي دوستم يعتقد أنه هو الأولي بحكمها. ويجلس العدوان اللودان جنباً إلى جنب على المنصة وهما يصغيان إلى الكلمات. بينما يقوم عطا محمد بالتشاغل بحبات سبحة كأنه رجل من طالبان، فإن دوستم يجلس بهية من كان في يوم من الأيام ملاكماً. لقد تعاونوا في غير حماس خلال المحرم الأخير على الطالبان. والآن، فإن الجبهة الباردة بينهما قد انخفضت حدتها مرة جديدة، ودوستم هذا هو العضو الأقل شعبية في الحكومة، وقد تم ضمّه إليها لسبب بسيط هو لأن ذلك قد يردعه عن تخريب انضمام الآخرين إليها. فهذا الرجل الذي ينظر بعينين نصف مغمضتين الآن من فوق المنصة اتقاء لأشعة الشمس وهو يطوي ذراعيه في أسلوب مسالم فوق جسده الهائل، إنما تلتصق باسمه قصص رهيبية أكثر من أي شخص آخر

في أفغانستان. فكعقوبة جرمية جنحية، فإنه قد يأمر جوده بربط الشخص المعاقب إلى إحدى دباباته، ويقودها فوقه حتى لا يبقى من الجسد سوى مرق ممزقة. وفي إحدى المناسبات، اقتيد ألوف من جنود طالبان إلى الصحراء ثم تم وضعهم في حاويات. وعندما جرى فتح الحاويات بعد عدة أيام كان السجاء قد ماتوا، وكانت جلودهم قد تحوكت إلى رماد بفعل الحرارة. ودوستم هذا، معروف أيضاً بأنه سيد الخداع والمراوغة. فقد قام الرجل على خدمة العديد من الأسياد، وقام بخيانتهم الواحد تلو الآخر. فهو كان قد حارب مع الروس عندما قام الإنقاذ السوفياتي بمحومه. وكان قد قيل عنه إنه ملحد ومسرف في معاقرة الشراب. أما الآن، فهو يمثل وجهة نظر محترمة لرعبات الآخرين، ويسبح الله، ويبادي بالمسامة واللاعنف "في العام 1381 لم يكس لأحد الحق في توزيع الأسلحة التي ستقود إلى اشتعال صراعات جديدة. أما هذه السنة فقد آن الأوان لجمع الأسلحة وليس بالتصدق بها على الآخرين".

وبصحت مصور. فهو يعرف أن دوستم معروف بأنه أمي من الناحية الواقعية. فهو يتعلم بكلامه عند قراءته لنص خطابه، وهو يقرأ وكأنه لم يدخل مدرسة بعد. وفي بعض الأحيان يتوقف عن القراءة كلياً ولكنه يعرض عن وقفته تلك برفع عقيرته، والدوي بصوته إلى درجة أعلى.

وبعد ساعات من الخطابات جاء دور رفع الراية أخيراً، راية علي الخضراء الـ: "جندة" التي لم تكن قد رفعت منذ خمس سنوات. وكانت قاعدة سارية العلم ملاصقة للأرض، أما دروة السارية فتواجه المسجد. وعلى وقع قرع الطبول وابتهاج المصور، يرفع كارضاي السارية، وترفع الراية الدينية إلى الأعلى. وهي ستبقى ترفرف هنالك

لمدة أربعين يوماً، ثم تطلق الطلقات النارية وتفتح المعابر. ويندفع العشرة آلاف شخص من الذين كانوا لا يزالون ينتظرون في الخارج، إلى داخل حرم المسجد، صوب الضريح، وصوب الراية.

* * *

شهد منصور ما يكفيه حول الجماهير والاحتفالات وأراد الآن أن يتسوق. فهو يفكر في أمر التسوق منذ وقت طويل. كل فرد من أفراد العائلة يجب أن تكون له هديته، فإذا كان كل واحد يناله طعم هذه الرحلة، فإن والده سيكون أكثر ليونة معه في المستقبل.

لسلك فهو يشتري سجاجيد للصلاة، وماديل، وسبحات للذكر، ثم يشتري حبوب السكر نبات، حبات كبيرة من السكر نبات يقضم الواحد منها قطعة ويمضغها مع الشاي. فهو يعرف أن جدته يسي غول سوف تنفر له كل خطايا السابقة واللاحقة إذا عاد إلى البيت ومعه حبات السكر نبات الكبيرة التي لا يصنع مثلها سوى في مزار الشريف. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه يشتري فساتين وحلياً لعناته، ونظارات شمسية لأعمامه وإخوانه. فهو لم يكن قد رأى نظارات شمسية معروضة للبيع في كابون. ثم حمل كل هذه البضاعة في أكياس بلاستيكية زهرية اللون عليها إعلانات تجارية لسجائر "بلجر" - السجائر الخفيفة المميزة. بعد ذلك يعود إلى ضريح الإمام علي. فهدايا السنة الجديدة لا بد من مباركتها.

يحمل تلك البضائع إلى الديماس الفعلي الذي يوجد فيه الضريح ويصل إلى الملالي الذين يجلسون إلى جانب جدار مطلي بماء الذهب في داخل الضريح. يقوم بوضع الهدايا أمام أحد الملالي الذي يقوم بتلاوة آيات من القرآن، ثم يقوم بـ"بث" أنفاسه فوق الهدايا. وعندما تنتهي صلوات التبريك على الهدايا، يعد منصور توضيب الخوارج في الأكياس البلاستيكية ويسرع.

وإلى جانب الحائط المطلي بالذهب يمكن للزائر أن يتقدم بدعاء أو طلبه. وطبقاً للخطابات الوطنية التي كان قد سمعها، ينحني منصور برأسه نحو الجدار ويدعو طالباً: أن يرزقه الله في يوم من الأيام شعوراً بالاعتزاز لكونه أفغانياً. وأن يكون في يوم من الأيام شاعراً بالفخر بنفسه وبوطنه، وأن تصبح أفغانستان في يوم من الأيام دولة تتمتع باحترام العالم أجمع. دعوة حتى حامد كازاي لم يكن ليستطيع صياغتها بطريقة أفضل. ولأنه بات مفتوناً بالمناظر والأصوات، فقد نسي منصور أن يدعو لنفسه دعاء المغفرة والتطهر من الذنوب، الدعوة التي كانت في الأصل سبب مجيئه، وسبب مجيئه إلى الزار. كما نسي الفتاة المتسولة الصغيرة وجسدها الهزيل النحيل، وعينيها الكبيرتين الذاهبتين العسلتين، وشعرها الملبّد.

ريصادر منصور الضريح قاصداً راية علي. وهنا أيضاً يصادف بعض المشايخ الذين يتقبلون أكياس منصور البلاستيكية. لكنهم لا يحسرون وقتاً كافياً لاستخراج الحاجات من داخل الأكياس. فقافلة الأتس الذين يرغبون في مباركة السحاجيد، والسبحات، والأطعمة، والمناشف هي قافلة كبيرة وممتدة. لذلك فإن المشايخ هنا يكتفون بالنقاط أكياس منصور وتحميرها على عمود الراية والتمتمة ببعض الأدعية فوقها وإعادةها إليه. يرمي منصور بيض أوراق البنكنوت إلى المشايخ، وبذلك تتم مباركة السحاجيد والسكريات مرة جديدة.

وها هو الآن يتطلع إلى توزيع تلك الهدايا على أصحابها، على جدته، ووالده سلطان، وعلى عماته، وأعمامه، وإخوته. ويتحوّل منصور في الجوار باسمًا. فها هو كتلة تامة من السرور. ها هو بعيد عن المكسبة وعن قبضة والده. ويمشي على الرصيف الواقع خارج المسجد برفقة أكبر وسعيد.

"هذا هو أسعد يوم في حياتي إنه أسعد يوم"، يقول منادياً، ويظهر إليه كل من أكبر وسعيد بدهشة، ويصيهما بعض الارتباك، لكنهما يسعدان لسعادته. "كم أحب هذا المزار، كم أحب علياً، كم أحب الحرية! كم أحبكما!" ينادي ويتواهب فوق الرصيف في جنل. فهذه هي المرة الأولى التي يسافر فيها لوحده، وهذا هو اليوم الأول في حياته كلها الذي لم يكن قد رأى فيه أي فرد من أفراد عائلته.

ويقرر الجميع مشاهدة مباراة في لعبة "البوزكاشي". فالمناطق الشمالية مشهورة بوجود أقوى لاعبي هذه اللعبة، وأسرعهم، وأشدهم مراساً. ومن مسافة بعيدة يلاحظون أن المباراة كانت قد ابتدأت بالفعل. وتثور غمامات من الغبار فوق السهل حيث يقوم متنافسون فارس بالتنافس على رمة عجل صغير، مقطوعة الرأس. وتقوم الخيول بالعض والرفس والقفز، بينما يقوم الخيالة وهم يكثفون على السباط بين أسنانهم، بمحاولة اختطاف الرمة عن الأرض. وتنتقل حيازة الرمة بسرعة بحيث يبدو وكأنه يجري تقاذفها بين فارس وآخر. وهدف اللعبة هو نقل الرمة من جهة من السهل إلى مكان آخر ووضعها في موضع يقع وسط مستديرة مرسومة على الأرض. وبعض المباريات تكون من شدة العنف بحيث تتمزق الرمة إلى كتف وأشلأ.

وبالسبب إلى مراقب خارجي لا يعرف اللعبة من قبل، فإن الأمر قد يبدو له أن الخيول تتسابق في السهل ليس إلا، بينما يكون الخيالة مكتفين بمجرد حفظ توازنهم فوق صهواتهم... هذا ويلبس الخيالة معاطف مطرزة وينتعون أحذية جلدية مزخرفة طويلة السيقان، عالية الكعوب. كما يحتمرون قبعات خاصة بلعبة البوزكاشي، والواحدة منها عبارة عن قبة مصنوعة من جلد الحمالان تكون أشبه بقبة البولر المحدة بالفرو.

"إسه كارصاي" يصبح منصور عندما يلمح القائد الأفغاني في السهل، "ودوستم أيضاً".

ويقوم زعيم القبيلة وأمير الحرب بالاختصاص الحيّزة رمة العجل. فلنكي يور المرء كقائد قوي، عليه أن يشارك في المراك العنيف الذي يتخلل مبريات لعبة البور كاشي. لا أن يكتفي بمجرد الركوب فوق الحصان والقيام بحولات حول الملعب في وسط صحب اللاعبين. إذ من الضروري للقائد أن يلقي بنفسه في معمعان المعركة الحماسية. وبما أن لكل شيء منه، فإن بعض الرجال الشجعان يدفعون في بعض الأحيان الجمانا لتصرهم.

وكارصاي يكتفي بامتطاء صهوة حصانه حول أرض المعركة دون أن يكون قادراً تماماً على مجازاة الإيقاع القاتل للفرسان الآخرين. فهذه الزعيم العشائري القادم من الجنوب لم يسبق له أن تمرس بقواعد لعبة البور كاشي الوحشية. وبما أن هذه اللعبة لعبة أبناء السهول، فإن الابن الكبير للسهل، الجنرال دوستم، هو الذي يربح، أو على الأقل، هو الذي يسمح له اللاعب الحقيقي الراجح بأن يربحها. فهو قد ينان لاحقاً ما يستحقه هذا الربح. عندما يجلس دوستم فوق صهوة حصانه كقائد ويقوم بتقبل التهليل والهناف.

وفي بعض الأحيان قد يقوم فريقان على التنافس في هذه اللعبة؛ أما في أحيان أخرى فيلعب كل لاعب لنفسه. والبور كاشي لعبة من أكثر الألعاب عنفاً وضراوة في العالم. وكان المنغوليون هم الذين أتوا بها إلى أفغانستان عندما دمروا البلاد بقيادة قائدهم جنكيز خان. وهي أيضاً لعبة لها علاقة بالمال. فالأناس النافذون من الشعب يدفعون ملايين أوراق البنكسوت الأفغانية كحائزة مالية لكل جولة من جولات هذه اللعبة. كما أنها لعبة لها علاقة بالفوز السياسي. فزعيم القبيلة المحلية إما

أن يكون هو نفسه لاعباً للبوز كاشي، أو أن يكون مالِكاً لإسطبل من الخيول الصالحة لهذه اللعبة مع فرسائها. فالتصر صبر الاحترام.

ومنذ الخمسينيات، حاولت السلطات الأفغانية أن تضع صيغاً رسمية لتلك المبارزات. فالمشاركون يكتبون بمجرد الإيماء بالرؤوس إيجاباً؛ فهم يعرفون سلفاً أن القوانين في هذه اللعبة سيكون من المستحيل الحفاظ عليها وصيانتها في كل حال. فحتى بعد العزو السوفييتي، فإن هذه المباريات قد استمرت، وذلك رغم الفوضى التي كانت تعم البلاد. وكثير من المتبارين لم يكونوا يستطيعون الوصول إلى ميدان اللعبة، حيث كان عليهم عبور مناطق هي ميادين للمعارك العسكرية قبل الوصول إلى مكان المباراة. ولقد حاول الشيوعيون التخلص من معظم التقاليد الأفغانية عميقة الجذور، لكنهم لم يتجرأوا مرة على الدنو من لعبة البوز كاشي. بل على العكس من ذلك، فإنهم حاولوا التقرب من القادة المحليين عن طريق تنظيم مبارزات للبوز كاشي. فلقد كان كل ديكتاتور شيوعي بعد الآخر يظهر فوق منصة مراقبة اللعبة، وذلك تبعاً لمجيئه بعد سلقه عقب انقلاب عسكري دموي. ومع كل ذلك، فإن الشيوعية قد تسببت بتمريق الكثير من أساسيات لعبة البوز كاشي. إذ عندما بدأ نظام الملكية الجماعية، فإن قلة قليلة من الناس باتت تستطيع تملك إسطبل كامل من الخيول جيدة التدريب. أما حيول البوز كاشي الخاصة فقد تم تفريقها على الرياح الأربع لبحري استعمالها كخيول زراعية. وعندما اختفت طبقة ملاكي الأراضي، اختفى معها وجود حيول القتال وفرسائها.

أما جماعة الطلاب فقد حرمت المبارزات وقامت بتصنيفها على أساس أنها نشاطات غير إسلامية. وهذه المباراة التي تدور الآن هي أول مباراة في لعبة البوز كاشي منذ سقوط طالبان.

وكان منصور قد أوجد لنفسه مكاناً مناسباً في المقدمة، وكان عليه في بعض الأحيان أن يقوم بالتراجع عن مكانه في سرعة خشيّة أن تطأه الخيول المشتركة في المباراة. وهكذا، فهو يلتفت ما شاء له نصيبه من الصور لصدور الخيول التي تبدو وكأنها تنقض فوقه؛ وكذلك لسحب المعاج المتصاعدة؛ ولرمة العجل الممزقة، ولحامد كارضاي النحيل الذي يبدو من مسافة بعيدة، وكذلك لدوستم المنتصر. أما بعد انتهاء المباراة فإنه يطلب النقاط صور لنفسه إلى جانب بعض لاعبي البوز كاشي.

وتميل الشمس إلى المغيب ناشرة أشعتها الحمراء فوق السهوب العابقة بالغبار. وينال الزوّار أنفسهم كثيراً من هذا الغبار فوق أجسادهم، وفي خارج المترك يجدون لأنفسهم مقهى. ويجلسون على بسط رقيقة كل واحد منهم في مواجهة الآخر ويأكلون في صمت وهدوء. شوربة، أرز، لحم ضأن، وبصل نيء. ويغرف منصور الطعام غرقاً، ويطلب لنفسه حصة جديدة منه. ويقومون بحدوء بتحية بعض الرجال الذين يجلسون في دائرة أخرى قريبة من دائرتهم بينما هم يتبارزون في لعبة في الأذرع. وعندما يجري تقديم الشاي، يمكن للأحاديث أن تبدأ.

"أنتم من كابل؟" يسألهم الرجال.

ويجيب منصور بلهجة منه أن نعم "أنتم زوّار؟".

يتردد الرجال قبل الإجابة. "إننا في الحقيقة نساfer مع بعض طيور السمّن"، يجيبه رجل عجوز أفرم. "إننا من حيرات. لقد قمنا بجولة كبيرة من قندهار إلى كابل، إلى هنا. هنا حيث تقام أفضل مباريات ديوك السمّن".

ثم يقوم الرجل بعناية بتناول كيس صغير من جيبه. ويخرج من داخله طائر، طائر سمّن صغير أشعث الريش. "لقد ربح هذا الفرخ جميع المبارزات

التي جعلناه يشترك فيها"، يقول. "لقد ربحتنا بسببه مبالغ كبيرة من المال وهو الآن يساوي في ثمنه عدة آلاف من الدولارات"، يقول متباهياً. ويقوم الرجل المحوز بإطعام فرخ السمّن بأصابع معوجة تدل على تقدم صاحبها في العمر، أصابع هي أشبه ببرائن عقاب. ويفض الطائر ريشه ويستفيق. إنه ضئيل الحجم بحيث يمكن تحنّته داخل قبضة رجل ضخّم الجثة. إلهم عمّال كانوا قد نالوا إجازة من العمل. فبعد خمس سنوات من مبارزات ديوك السمّن السريّة خوفاً من الطالبان، فإنهم يستطيعون الآن أن يعيشوا في العلاتية شغفهم بمراقبة طائري سمّن ينقر كل واحد منهما صاحبه حتى الموت. أو حتى إلهم باتوا يستطيعون أن يطلقوا صيحات النشوة عندما يقوم طائر سمّن صغير ينقر غريمه حتى الموت.

"تعال غداً صباحاً عند الساعة السابعة. فذلك هو الوقت الذي نبدأ فيه ألعابنا"، يقول الرجل المحوز.



ينهض منصور من فراشه في الفندق بغتة على صوت المؤذن. وتكون الساعة قد قاربت الثانية عشرة والنصف. تبدأ الصلاة في الجامع في الخارج. إنها صلاة الجمعة. فيشعر فجأة أنه لا يستطيع العيش دون إتمام صلاة الجمعة. فعليه أن يذهب وأن يصل في الوقت المناسب. وكان قد نسي زيه المحلي في كابول، الذي المؤلف من السترة العليا التي تسمدّل فوق سروال فضفاض طويل الساقين. فهو لا يستطيع الذهاب إلى صلاة الجمعة وهو يرتدي ملابس غريبة. وما هو الآن حائر في أمره من أين له أن يشتري ثياباً تكون صالحة للصلاة؟ فجميع المحال هي الآن مغلقة. لذلك فإنه يغضب ولا يتمالك نفسه عن السباب.

"إن الله لا يكثر لطراز الملابس التي أنت تلبسها"، يقول له أكبر بصوت متناوم كسول على أمل أن يتخلص منه ومن حليته.

"عليّ بالاغْتسال، والمياه مقطوعة في هذا الفندق"، يتذمر منصور. لكنه لا يجد لها عمته ليلى كي يلقى عليها بلاءه ولومه. وهنا يقوم أكبر ويدفعه إلى الخارج عندما يبدأ بالتذمر. "ولكن الماء ضروري فلا تجوز صلاة المسلم قبل أن يغسل وجهه، ويديه، وقدميه". يتذمر منصور من جديد، "إنني لن أستطيع الاشتراك في الصلاة".
 "هناك ماء إلى جانب المسجد"، يقول له أكبر قبل أن يغلق عينيه ويستسلم إلى النوم من جديد.

ويهرع منصور في ثياب السفر المنسوجة التي يرتديها. كيف حصل له وأن نسي ثوبه الغليي بينما هو الآن في الزيارة؟ أو كيف له أن يصلي دون قبعة الصلاة؟ يلعن النسيان ويجري نحو المسجد الأزرق ليذكر الصلاة في حينها. وعند المدخل يصادف متسولاً له قدمان مشوهتان. فالساق المتصلبة متورّمة وملتهبة وحائلة اللون وهو يستلقي ماداً إياها في منتصف طريق المسارة. فيخطف منصور قبعة الصلاة عن رأس المتسول.

"سوف أعيدها إليك"، يقول له وهو يجري حاملاً القبعة ذات اللون الأسمر الفاتح. والتي لها طبقة كثيفة من العرق الأصفر الضارب إلى البني حول إطارها.

يتسكع منصور حذاءه عند مدخل المسجد ويدخل حافي القدمين وهو عشي فوق الأرضية الرخامية. لقد باتت الأرضية ناعمة بفضل آلاف الأقدام العارية التي خفت فوقها. يقوم بغسل يديه وقدميه، ويضع القبعة فوق رأسه ويمشي إلى صف المصلين المتجهين بوجوههم صوب مكة المكرمة؛ لقد استطاع إدراك الصلاة. وفي وسط العشرات من صفوف المصلين، حيث يتألف كل صف من مئة مصلٍ على الأقل، يجلس الزوّار رؤوسهم حفيضة في مساحة هائلة. يجلس منصور في

الصف الخلفي ويتابع شعائر الصلاة. وبعد قليل يلاحظ أنه قد صار في وسط جمع كبير من المصلين، حيث أضيفت الآن صفوف كثيرة أخرى ورائه مع قدوم المزيد من المصلين. ويكون هو الشخص الوحيد الذي يرتدي ملابس إفريقية. لكنه يركز انتباهه على الصلاة، فالجبهة لاصقة بالأرض، والوركان مرفوعان، خمس عشرة مرة. ويقوم بتلاوة صلاته التي يعرفها ويصفي إلى خطبة الجمعة التي يقوم ربّاني بالقائها وهي تكرار للخطبة التي كان قد ألقاها في الأمس.

وتأخذ الصلاة مجراها وراء حاجز يحيط بالمسجد الذي يجلس خلاله المريض العاجز في انتظار الشفاء. فأمثاله من المرضى يتم إبقاؤهم خلف أسوار عالية خيفة أن يقوموا بنقل العدوى إلى الأصحاء. إنهم رجال مستون في رمقهم الأخير، لهم وجنات غائرة. كما يوجد بين هؤلاء المرضى أناس مصابون بإعاقات عقلية تامة. وثمة صبي مراهق يصفق بيديه في احتياج بينما يقوم أخوه الأكبر بمحاولة تهدئته. لكن أكثرية هؤلاء المرضى يحذقون بشحوب من خلال قضبان السياج. ولم يكن منصور قد صادف مرة أخرى هذا العدد من المرضى الذين هم على شفير الموت. فرائحة المرض والسقم تفوح من هذه الجماعة كما تفوح رائحة الموت. إذ لا يسمح في العادة إلا للمرضى الذين يعانون من أمراض خطيرة بالجلوس في ذلك الموضع من أجل طلب الشفاء من صاحب المقام. وفي الأعلى، مقابل جدران الضريح يجلس المرضى، أحدهم في محاذة الآخر، وكلما كان مكان الجلوس أشد قرباً من جدار المسجد الأزرق كان المريض أقرب إلى الشفاء.

... 'إنهم سيموتون جميعاً في غضون أسبوعين'؛ يقول في ذهن منصور. ويقع نظره على رجل له عينان سوداوان نفاذتان. وله ندوب عميقة حمراء. أما الذراعان الطويلتان بارزتا العظام، فقد كانتا تعرضتا

إلى المهرش حتى نزلت، شأنهما في ذلك شأن الساقين الطويلتين البارزتين من تحت السترة الطويلة. لكن كان للرجل شفتان جميلتان رقيقتان قرمزيان، شفتان أشبه ببنتي زهرة مشمش ربيعية.

يرتج منصور ويستدير إلى الوراء. وتذهب نظرتة فاحصة المعسكر المقابل. هنالك كان تجمع المرضى من النساء والأطفال. بوركات زرقاء حائلة تحتضن أطفالاً. إحدى الأمهات كان قد غلبها النعاس بينما يحاول طفلها المعوق أن يقول شيئاً ما. لكنه كان كمن يكلم عمالاً تحت غطاء أزرق. لعل هذه الأم قد أمضت عدة أيام من السفر سيراً وهي حافية القدمين كي تتمكن من الوصول إلى قبر الإمام عليّ قبيل حلول اليوم الأول من السنة الجديدة. وربما تكون قد تحشمت حمل الطفل المعوق بين ذراعيها من أجل طلب الشفاء له. فما من طبيب يستطيع مساعدتها؟ ولعل عليّ يستطيع أن يقدم لها هذه المساعدة.

ثمّة طفل آخر يقوم بضرب رأسه بطريقة منتظمة، وهنالك أطفال سواه ناتھون، بعضهم عُرج، وبعضهم عميان، لكن معظم النسوة كنّ قد جنن إلى هنا مع أطفالهن.

هذه المناظر تبعث القشعريرة في جلد منصور. فبعد أن يستولي عليه هذا الموقف المؤثر، فإنه يقرر أن يصير إنساناً جديداً. سوف يكون إنساناً جيداً ومسلماً تقياً. وسوف يقوم باحترام مواقيت الصلاة، ويعطي الصدقات، وبصوم، ويلعب إلى المسجد، ولا ينظر إلى النساء إلا بعد زواجه، وأن يطلق لحيته، وأن يحجّ إلى مكة المكرمة.

وفي اللحظة التي تنقضي بها الصلاة، ويكون منصور قد أخذ على نفسه ما أخذه من عهود، تبدأ السماء تمطر وتكون الشمس مشرقة رغم هطول المطر. فليتمع المبني المقدس، وتتلألأ الأرضيات المرصوفة بالبلاط الزلق. وتشتع حبات المطر الذي ينسكب مدراراً. ويهرع

منصور فيجد حذاءه، ويجد المتسول الذي أعطاه القبعة. يلقي ببعض أوراق البنكنوت إلى المتسول، ويمر في الساحة تحت المطر البارد المنعش، "إنني الآن شخص مبارك" يادي بأعلى صوته. "لقد حصلت على السماح والمغفرة! لقد عدت نقياً طاهراً".

رابعة الفهار

يسرتفع البخار من الأجساد الرطبة، وتتحرك الأيدي بحركات روتينية سريعة، وتدخل عيوب أشعة الشمس من خلال ثقبين في السقف، غامرة أعضاء الأجساد بضوء فائن مثير للصور الذهنية. ففي بداية الأمر يمكن رؤية الأجساد في الغرفة بطريقة غامضة فقط من خلال تصاعد البخار، كل ذلك، إلى أن يعتاد النظر على الضوء السحري. ويسهل التركيز على الوجوه. هذا ليس فعل متعة، بل هو عمل شاق.

وفي قاعتين كبيرتين يجتهد النساء على ذلك أجسادهن، فهن بين مضطجعات، وحالسات، وواقفات. كل واحدة منهن تدلك جسدها، أو تساعد سواها من النساء على تدليك جسدها، أو تقوم بتدليك جسد أطفالها. بعضهن يدينات هائلات الأجساد بطريقة تذكر برسومات الفنان روبن، وبعضهن نحيلات كالعود، ولهن أضلاع نافرة عن مكانها. وهن يقمن بتدليك أجسادهن وبمساعدة سواهن في هذا العمل باستعمال أكف من القنب مصنوعة محلياً. وهكذا، يجري ذلك الأظهر، والأذرع، والأرجل. أما الجلسد السميك في باطن الأقدام فتجري معالجته وحفه باستعمال حجر خاص يسمى حجر الخفان. والإمهات

ينظف أجساد بناتهن اللواتي قاربن سن البلوغ ويراقبنهن بأعين فاحصة. فلم يبقَ هنالك زمن طويل قبل أن تتكوّر صدور أولئك البنات اللواتي تشبه صلوورهن الآن صدور الطيور، أي ألحنّ لن يمضي وقت طويل حتى يصبحن أمهات مُرصعات. والشابات الحيات اللواتي لم يتخطّين بعدُ مستويات المراهقة يحملن ندوباً فوق بطونهن تسبّت بها حوادث الحمل والوضع التي نتجت عن زواجهن في وقت لم تكن أجسادهن فيه قد اكتملت بعد. فعلى وجه التقريب، جميع بطون السيدات هناك هي متشققة البشرة بسبب تكرار الولادات.

وبصرخ الأطفال ويتصايحون، خوفاً أو فرحاً. فمنهم الذين قد خرجوا من الغسل والدلك في أحواض الاستحمام. ومنهم الذين لا يزالون في الأحواض يصرخون من الألم ويتلوّون كسمكة قد علقت في الشباك. ولم يكن أحد منهم ليعطى خرقه يحمي بها عينيّه من حرارة الصابون. فالأمهات يدلّكن أجساد الأطفال بالأيف الحشنة إلى أن تصبح الأجساد البنية غامقة اللون بالأوساخ، ذات لون زهري. فالاستحمام أو الغسل معركة كُتب على الأطفال أن يكونوا هم الخاسرين فيها ما داموا تحت قبضات أمهاتهن.

وتستمر ليلى في إزالة رقائق وحيوط الجلد المتسخ عن جسدها حيث تفصل عنه خيوط بعض ليفة القُتب، لتساقط إلى الأرض. لقد مرّت عدة أسابيع منذ أن حصلت ليلى على حمام جيد. كما ألما لم تُزُر الحمام العمومي منذ عدة أشهر. فالمياه لا تتوفّر بشكل دائم في البيوت، ثم إن ليلى لا تشعر بالحاجة للماسة إلى الاستحمام حيث إن جسدها لا بدّ له من أن يتسخ من جديد في كل حال.

لكنها اليوم قد صحبت أنها وبنات عمها إلى الحمام. ولأنها فتاة غير متزوجة بعد، شأنها في ذلك شأن بنات عمها، فإنهن يشعرن

بالجسد بشكل خاص، ولذلك فالمن يقين على سراويلهن وعلى حاملات لهودهن. ولْيَف الاستحمام الخشنة تتجلبت عادة المرور فوق تلك المناطق من الجسد. لكن الأذرع والسيقان والأرجل والأظهر والأعناق، فإنها تُدلك دلكاً جيداً. وحيات العرق والماء تمتزج فوق وجوههن بينما هن يقمن بأعمال الدلك والحف والفرك؛ وكلما زدن إيماناً في ذلك، حصلن على نظافة أفضل.

ووالدة ليلى، "بيبي غول"، التي يجب أن تكون في حوالى السبعين من عمرها، تجلس عارية في بركة على الأرض. أما شعرها البني الطويل الذي يُلَف عادةً ويخبأ تحت الشال الأزرق الباهت، فإنه ينسدل الآن فوق ظهرها. فهي لا تكاد تحلُ ربطة شعرها سوى في الحمام. وهو شعر طويل تنتهي ذؤاباته الطافية حولها فوق مياه بركة الاستحمام في صحن الحمام. وهي تجلس كما لو أنها في غيبوبة، عيناها مقفلتان، وهي تستمتع في السدف والحرارة. ومن وقت لآخر تبذل جهوداً كسولة قليلة في المساعدة في عملية غسل جسدها. فهي تغمس قطعة قماش لَدلك الوجه في الحوض، كانت قد ناولتها إياها ابنتها ليلى. لكنها سرعان ما تتخلى عن محاولة تنظيف نفسها. إذ إن يدها تكاد لا تقوى على الوصول إلى بطنها، فيذاها ثقيلتان بحيث يصعب عليها غسلهما. أما يدها فيتدلقان بثقل فوق بطنها الكبير. وتبقى جالسة في سكوتها وكأنها أشبه بتمثال ضخم أغبر.

* * *

وتلقى ليلى نظرة نحو أمها من وقت لآخر من أجل أن تتأكد من أنها لا تزال بخير، بينما هي تستمر في أعمال الدلك، وفي الثثرة مع بنات عمها. فهذه الصبية البالغة التاسعة عشرة من عمرها، لها جسد يشبه جسد طفلة، فهي في موقع متوسط بين النساء والبنات. وجميع

نساء عائلة خان هن أقرب إلى البدانة، وهذا ما يلائم معايير الجمال في أفغانستان. فالدهون، وزيت الطبخ، التي يسكبونها فوق الطعام تظهر فوق أجسادهن على شكل البدانة. فمن الزلاية شديدة القسي، إلى قطع البطاطا التي يرشح منها الزيت أو الدهن، إلى قطع لحم الضأن المعالجة بالمرقة المثخنة بالزيت. أما لون بشرة النساء فيندرج من البياض، إلى الشقرة الشاحبة، إلى السمرة الفاتحة. ولون بشرة ليلى حطبي صاحب ونقي، فبشرتها ناعمة كوجنة الأطفال. فالحياة التي تحياها تنعكس على بشرتها الطفولية التي لا تكاد تطل أشعة الشمس عليها، أما يداها فمحشنتان ومجهدتان وكأنهما يدا امرأة عجوز. وقد بقيت ليلى لمدة طويلة تشعر بالدوار والضعف؛ وعندما ذهبت إلى الطبيب في نهاية الأمر، فإنه قال لها إن جسدها بحاجة إلى التعرض لأشعة الشمس لأنها تشكو من نقص في الفيتامين "د".

والغريب العجيب، أن مدينة كابول هي واحدة من أكثر المدن تعرضاً لأشعة الشمس في العالم. فالشمس تشرق عليها تقريباً في كل يوم من أيام السنة، وهي تقع على علو يبلغ ستة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر. فالشمس تتسبب بتشققات في التراب، كما أنها تخفف ما كان يوماً حدائق رطبة، كما أنها تتسبب بحروق في جلود الأطفال. لكن ليلى لا ترى الشمس. فأشعة الشمس لا تكاد تصل إلى الطوابق الأولى في حي مايكرورايون، كما أن أشعتها لا يمكن أن تحترق نسيج البوركا. فليس من شعاع واحد له قيمة علاجية، يمكنه التسرب من شبكة القماش المخصصة للنظر. فهي لا تكاد تسمح لأشعة الشمس بأن تدفئ جسدها إلا أثناء زياراتها القليلة إلى منزل أختها الكبرى مريم، القائم في قرية في الريف، حيث إن لهذا البيت حوش مسور في علقته.

وليلي هي أول من يهض من رقادها في الصباح، كما أنها آخر من يأوي إلى الفراش. فهي التي توقد النار في الموقد في غرفة الجلوس، وترودها بعيدان الحطب بينما تكون الأجساد النائمة لبقية أفراد العائلة نغطاً في نوم عميق. وبعد ذلك تقوم بإشعال الحطب في الموقد المخصص لعلي النساء في غرفة الحمام، هذا الماء الساخن الذي لا يخصص فقط لغسل الأبدان، بل لغسل الثياب، والأواني، ولحاجات الطبخ أيضاً. فينما يكون الطلام لا يزال مُخيمًا، تقوم ليلى بملء القوارير والأواني والطناجر بالماء. ولا يكون التيار الكهربائي متوفراً أبداً في مثل هذا الوقت من اليوم. ولكن ليلى قد اعتادت على العمل والتحرك في النعمة. وفي بعض الأحيان تحس معها مصباحاً صغيراً، ثم تقوم بتحضير الشاي. فالشاي لا يسه من أن يكون جاهزاً عند الساعة السادسة وال نصف عندما ينهض الرجال من نومهم؛ وإلا فإنها تجد نفسها في مشاكل كبيرة معهم. فما دام أن هنالك ماء، فهي تستمر في ملء الأوعية به. فالمرء لا يدري متى ينقطع الإمداد بالمياه، وربما يكون ذلك بعد ساعة أو بعد ساعتين.

إقبال يصبح في كل صباح صيحات منكورة، حتى إنه يتسبب بنوتير أعصاب الجميع. فهو يستلقي في فراشه ممدداً أو متكوماً على نفسه رافضاً النهوض. فهذا الولد البائع النانية عشرة من عمره، يختصر كل يوم مرضاً جديداً آملاً تجنب نفسه قضاء اثني عشرة ساعة في الحانوت. ولكن لا مجال هنا للشفقة. فكل يوم عليه أن ينهض في نهاية الأمر، لكنه لا يتورع عن إعادة تمثيل المشهد نفسه في اليوم التالي.

"أنت أيتها الكلبة"، "أيتها الكسولة"، "ألا تعرفين أن جوربتي متقربان؟" يصرخ في وجه ليلى قاذفاً إياها بالجريرين. فهو يفتعل شراً

مع كل من يلقاه في كل صباح، أما رغبته الحقيقية فهي ترك العمل والذهاب إلى المدرسة.

"ليلي! إن الماء بارداً ليس هناك ما يكفي من الماء الساخن! أين هي ثيابي؟ أين الجوربان؟ أعطني شيئاً! أحضري لي فطوري! لمعي خذائي! لم تأخرت في النهوض من نومك؟".

أما الأبواب فتُصَفَّق وتُفَتَّح بعنف وقوة. وتصبح الغرف والمر والحمام جميعاً كأنها ميدان معركة. فأبناء سلطان يصرحون ويهتفون ويتخاصمون، وأحياناً يكون. وسلطان يجلس عادة لوحده مع صونيا يشربان الشاي ويتناولان إفطارهما. فزوجته صونيا تهتم به وحده، أما ليلي فعليها الاهتمام بكل ما هو غير ذلك. فهي تملأ الأوعية المخصصة لغسل الوجوه، وهي التي تقوم برفع الملابس إلى أمكتها، وهي التي تسكب الشاي، وتغلي البيض، وتحضر الحبز، وتلمع الأحذية. فالرجال الخمسة في البيت يجب أن يتجهزوا للذهاب إلى أعمالهم.

وبكثير من الكره والنفور، تساعد أبناء أخيها الثلاثة: منصور، وإقبال، وإسماعيل كي يتجهزوا للذهاب إلى العمل. وليس من واحد منهم يقول لها شكراً، أو يتعاون معها بشيء. "أبناء جاهلون" تقول ليلي مُهممة عندما يقوم هؤلاء الأولاد الثلاثة الذين يصعروا حتى كبيرهم، بسنوات قليلة، بتوجيه الأوامر إليها.

"إلا يوجد لدينا أي شيء من الحليب؟ ألم أقل لك أن تشتري بعض الحليب!" يقول لها منصور بلهجة معنفة. "أنت أيتها الطفيلية"، يقول لها مضيقاً. فإذا ردت على كلامه مرة استجاب إلى ذلك من جديد بالإجابة القاسية نفسها: "أخبرني أيتها الخرقه البالية". "هذا ليس منزلك، إنه منزلي أنا"، يقول لها بشراسة. وليلي أيضاً لا تحس أن هذا المنزل هو منزلها. فهو منزل سلطان وأولاده وزوجته الثانية.

أما هي، وبليلة، وبيبي غول، ويونس، فإنهم جميعاً يشعرون بأنهم غير مرحّب بهم في هذه العائلة. لكن الانتقال منها ليس خياراً ممكناً. فانقسام العائلة أمر هو أشبه بالفضيحة. هذا بالإضافة إلى أن هؤلاء جميعاً يشكلون فئة من الخدم جيدة؛ وليلى هي واحدة من هؤلاء الخدم في كل حال.

وفي بعض الأحيان تشعر ليلي بحرارة كيف أنه لم يجرِ وهبها هي أيضاً إلى عائلة أخرى عند ولادتها، مثلما حصل مع شقيقها الذي هو أكبر منها مباشرة. "لو حصل لي هذا لكنت الآن قد ذهبت إلى الاشتراك في دورات التعلم على استخدام الكمبيوتر، وإلى دورات تعلم اللغة الإنكليزية منذ نعومة أظفاري، وكان لا بدّ لي من أن أكون قد وصلت إلى الصفوف الجامعية الآن". تخاطب نفسها حالمة، "كما أنه كان سيكون لي ملابس جيدة، وما كنت لأعيش عيش العبيد والخدم". وليلى تحبّ أمها، لكنها تشعر أن لا أحد في الحقيقة يهتمّ لأمرها. فلقد كان مكانها دائماً في أسفل اللائحة، تتلقى الأوامر من الجميع، ولا تستطيع هي حتى أن تطلب شيئاً من أحدهم. في أسفل اللائحة كانت وفي أسفلها تبقى. فيبيبي لم تلد أي أولاد بعدها.

وبعد بليلة الصباح، وبعد أن يكون سلطان وأولاده قد غادروا المنزل إلى أعمالهم، تستطيع ليلي أن تستريح قليلاً، فتشرب الشاي، وتتناول إفطارها، ثم تباشر كنس الغرف للمرة الأولى في لهاها. فهي تستقل من غرفة لأخرى منحنية على مكنتها القصيرة تكنس بها، وتكنس، وتكنس. أما معظم الغبار فيرتفع في الفضاء ويطوف حولها ليعود إلى النزول فوق الأرض وراءها. فرائحة الغبار لا تُفارق ذلك البيت. وهي لا سبل لها للتخلّص منه، فهو يعلق بها ويحسها كيفما تحسركت. بل هو يعلق بأفكارها أيضاً. لكنها تلتقط فتات الخبز،

وقصاصات الورق، وسوى ذلك من الفصالات والختالة. عدة مرات في اليوم لا بد لها من أن تشق طريقها في الغرفة بينما الكنسة تمشي أمامها. فكل شيء يقع على الأرض ويجد طريقه إليها، ولا بد للأرض من أن تتسخ من جديد.

وها هما ذا الوسخ والسخام اللذان تحاول الآن أن تنظوهما في الحمام عن جسدها. فهما ينقشران عنها في لفافات صغيرة. وها هو الغبار الذي يلتصق بها وبكل حيائها.

"لو كان لي منزل فقط لا يحتاج للتنظيف سوى مرة واحدة كل يوم، فيبقى بعدها نظيفاً لآخر النهار، فلا أحتاج إلى القيام بكنسه سوى مرة واحدة في الصباح". تقول ليلى متهددة لبنات عمها. ويوافقن معها. فهن أصغر البنات في عائلتهن ويذقن من الحياة ما تذوقه هي.

وليلى قد أحضرت معها بعض الملابس الداخلية التي ترغب في غسلها في الحمام. فالغسيل يجري عادة في دغشة الظلام على كرسي مرحاض قريب من نقرة التصريف في الحمام، وهي تستعمل من أجل الغسيل عدداً من الأحواض، في أحدها ماء يخالطه الصابون، والآخر خالياً منه. واحد للبياضات، وواحد للثياب الملونة. وهي تقوم بغسل المفارش والبطانيات، والمناشف، وملابس العائلة. ويجري دَعْكُ هذه الثياب وتقويحها وعصرها قبل تعليقها. ويكون تجفيف الغسيل صعباً، خاصة في فصل الشتاء. وقد نُصِبَت أُمَراس خارج العمارة، لكن الثياب تُسَرَّق أحياناً عنها، لهذا فإنها لا ترعب في تعليق غسيلها في ذلك المكان، ما لم تُوَكَّل إلى أحد الأطفال حراسته إلى أن يجف. وإلا فإن قِطْع الغسيل تُحشَر على حبل غسيل منصوب على الشرفة الصغيرة. ومساحة هذه الشرفة لا تزيد عن ياردات قليلة مربعة، وهي تكون عادة مليئة بتموينات الطعام وبالخردوات: كيس من البطاطا، سلة من

البصل، سلة من الثوم، كيس كبير من الأرز، صناديق كرتونية، أحذية قديمة، وقليل من الملابس والأشياء الأخرى التي لا يجرؤ أحد على رميها، حيث إنما قد تظهر حاجة إليها في يوم من الأيام.

وفي البيت، تلبس ليلي كنزات عتيقة مهلهلة، وتتناير ملطخة تتحرجر أذبالها على الأرض. وتقوم تنايرها بالنقاط الغبار التي تعجز الكنسة عن التقاطها. وهي تتعل صندلاً من البلاستيك يرتفع إلى مستوى الكاحل، كما تضع شالاً فوق رأسها. ولا يأتي تلاكو في جسمها سوى من قرطين كبيرين يتدليان من أذنيها، كما من بعض الأساور الناعمة في يديها.

"ليلي!"

بصناديقها صوت تعب ضعيف، ينسرب بين صراخ الأطفال. ولا يكاد هذا الصوت يشق شقشة المياه التي تنساب فوق أرض الحمام كلما قامت النسوة بسكب سطول الماء إحداهن على جسد الأخرى.

"ليلي!"

تستفيق بيبي غول من غفلتها. فهي تجلس حاملة قطعة القماش، شاخصة لا حيلة لها. تتناول ليلي لفة القنب التي تُستعمل للتدليك، وتناول الصابون، والشامبو والطشت إلى أمها الضخمة العارية.

"نامسي على ظهرك"، تقول لها. تناور بيبي غول بمجدها لتلقيه على الأرض. تفرك ليلي وتُمرّخُ الجسد المتمدّد. فجسد أمها وعمر، وهي تستعمل كل قواها لكي تجعله نظيفاً. وهكذا فإن الجلد الأبيض يصير أحمر تحت يدي ليلي. وتضحك بيبي غول؛ فهي أبضاً ترى الجانب الكوميدي لهذه المسألة. البنت الأنيقة الصغيرة إلى جانب الأم الضخمة العجوز. ففارق السن بينهما يقارب الخمسين سنة. وعندما

تضحكان تبسم جميع النساء الأخريات. وفجأة تنفجر عاصفة من الضحك.

"أنت ضخمة جداً يا أمي، وقد تموتين يوماً بسبب شدة بدانتك"، تقول ليلي مashedة أمها بينما هي تغسل أماكن في جسد والدتها، لا تستطيع يدا الوالدة الوصول إليها. ثم لا تلبث أن تدبر أمها لتستلقي على بطنها، تساعدتها في هذا الأمر بنات عمها حيث تقوم كل ابنة بمهمة فرك عضو من أعضاء جسد يبيسي غول الهائل. ثم يتم غسل شعر يبيسي غول الناعم الطويل. فيسكب الشامبو زهري اللون المستورد من الصين فوق فروة رأسها. وتقوم ليلي بتدليك الشعر بعناية وكأنها تخشى أن يتساقط ما بقي من شعر أمها. وتكاد قارورة الشامبو أن تصبح فارغة. فهي من مخلفات عصر الطالبان. أما صورة السيدة المصورة على الزجاج فكان قد جرى إخفاؤها بقلم نخين، ريشته من لبّاد، وحرره لا ينوب في الماء. فعندما قام عناصر البوليس الديني بتمزيق كتب سلطان، فإنهم قد تمزقوا أيضاً علب التعليف، وما عليها من صور. فوجه كل فتاة مصوّر على قارورة شامبو، أو وجه كل طفل مصوّر على قطعة صابون كانت تجري إزالته.

بدأ الماء يبرد. وكان صراخ الأطفال الذين لم يستحموا بعد يتعالى أكثر فأكثر. وبعد قليل لم يبقَ في الحمام الذي كان عابقاً بالبخار الدافئ، سوى الماء البارد فقط. لذلك فإن الأمهات يغادرن أحواض الاستحمام، وعندما يفعلن ذلك تبدو آثار الأوساخ خلفهن واضحة. فمن قشور البيض والتفاح المتعفن الذي يتجمع في الزوايا، إلى عيوب من الأرحال والأوساخ المتبقية على الأرضيات؛ فالنسوة يستعملن الصنادل البلاستيكية نفسها في الحمام، كما هو حالهن عندما يمشين على طرقات القرية، والأمر نفسه يجري في الحمامات الخارجية، وفي الباحات الخارجية للبيوت.

وتدبُ يبي غول إلى الخارج مع ليلي وبنات العم في صف واحد، ثم يلبسن ثيابهن. ولا تكون واحدة منهن قد أحضرت معها غياراً، لذلك فإن كل واحدة منهن ترتدي الثياب ذاتها التي كانت قد وصلت إلى الحمام وهي ترتديها. ثم توضع البوركات فوق جميع الملابس وفوق الرؤوس النظيفة. ولا يدخل سوى القليل من الهواء إلى داخل البوركا، وبذلك يكون لهذه البوركات روائحها المميزة. فالبوركا العائدة إلى يبي غول تفوح منها رائحة لا يمكن تمييزها، فهي خليط من الأنفاس القديمة ورائحة الأزهار الحلوة، وشيء ما فيه حموضة. أما رائحة البوركا العائدة إلى جميع نساء عائلة خان تعبق كلها برائحة دغسان الطبخ، والسبب في ذلك هو أن الجميع يعلقنها على مسامر مغروزة في حائط قرب المطبخ. فالنسوة الآن نظيفات بالكامل تحت ملابسهن وأغطيتهن، ولكن الصابون السائل والشامبو الزهري يقتلان قتالاً بالأسلحة ضد الأقدار القوية الثقيلة. لذلك فإن الرائحة الخاصة بكل امرأة سرعان ما تُستعاد. فهي إما رائحة عبدة عجوز، وإما رائحة عبدة صغيرة.

وتتابع يبي غول سيرها إلى الأمام؛ ولمرة جديدة تتحلف عنها الفتيات الثلاث. فهن يمشين معاً مقهقهات. وعندما يصلن إلى الشارع الخالي، فلأنهن يطرحن حمورهن خلف رؤوسهن. إذ لا يتحول هنا سوى الكلاب والفتية الصفار. وتبدو الريح الباردة منعشة فوق جلودهن التي لا تزال تنضج بالحر. ولكن الهواء هنا ليس نقياً. فالشوارع الخلفية والأرقسة في كابول تعبق جميعها بروائح القاذورات والمجارير. وهناك خندق وسخ يتابع مجراه قرب الطريق الترابي الذي يمتد بين الأكواخ الترابية. لكن الفتيات لسن في دراية بالرائحة القذرة القادمة من الخندق، ولا بالغبائر التي تلتصق بجلودهن مقللة مسامها. وتلامس أشعة

الشمس جلودهن فيفرحن. ولكن فجأة يظهر رجل على دراجة هوائية.

"احتشمن أيتها البنات، يصبح هنّ فيما تنزّ دراجته بقرهن. وتنظر الواحدة منهن إلى الأخريات ويتضحكن لمنظر وجه الرجل المضحك، ولكن عندما يستدير عائداً نحوهن، فإن كل واحدة منهن تغطي وجهها.

"إذا عاد الملك، فإنني لن ألبس البوركا أبداً"، تقول ليلي في لحظة جادة فجأة. "وعند ذلك سيكون لنا بلد يعيش في سلام".

"من المؤكد أنه لن يعود أبداً"، تقول ابنة العم المتحجة معترضة.

"يقولون إنه سيعود للحكم هذا الربيع"، تقول ليلي.

ولكن إلى أن يعود فإن الأسلم هنّ أن يُفطين وجوههن؛ فالبنات الثلاث بمفردهن في كل حال.

وليلي لا تسر لوحدها أبداً. فليس من المستحسن للفتاة الشابة أن تمشي وتحوّل دون صحبة أحد. فمن ذا الذي يلقي إلى أين قد ينظر لها أن تذهب؟ فربما هي تذهب لمقابلة رجل، وربما هي ذاهبة لارتكاب معصية. فليلى لا تمشي بمفردها حتى إلى دكان الخضري الذي لا يعد سوى دقائق قليلة عن شقتها. فهي في العادة تصطحب معها ابن جيرانهم الصغير كما تطلب منه أن يقوم أحياناً بحلب الحاجات لها. ويليلى لم تبقَ مرة واحدة في الشقة بمفردها، ولم تذهب مرة إلى أي مكان لوحدها، كما لم تسبق في أي مكان منفردة، وهي لم تنم مرة واحدة بمأها. فهي تنام كل ليلة على بساطها الصغير بالقرب من أمها، وهي لا تعرف معنى أن يكون للسرة لوحده، ولا تفتقد إلى أمر الاختلاء بنفسها. فالشيء الوحيد الذي تصبو إليه هو مقدار أكبر من الهدوء والسلام، ومقدار أقل من العمل.

وعندما تصل إلى البيت تسود الفوضى؛ فالحقائب والأكياس والأمتعة ماثورة في كل مكان.

"لقد عادت شريفة! لقد عادت شريفة!" تقول بلبله وهي مسرورة لأن ليلى قد عادت وباتت تستطيع تولي شؤون البيت كمضيفة. ونجري شابنام، الابنة الصغيرة لسلطان وشريفة، في الجوار كأنها مهرة صغيرة سعيدة. فهي تقوم بمعاينة ليلى التي تعانق بلورها شريفة. وفي وسط هذا كله تقف صونيا، الزوجة الثانية لسلطان وهي تبسم فيما هي تحمل ابنتها لطيفة على ذراعها. لقد أحضر سلطان شريفة وشابنام من باكستان، على نحو مفاجئ.

"لمدة الصيف فقط"، يقول سلطان.

"بل على الدوام"، تقول شريفة هامسة.

ويذهب سلطان إلى المكتبة ولا يبقى في البيت سوى النساء. ويجلسن في حلقة على الأرض. وتقوم شريفة بتوزيع الهدايا. فستان من أجل لطيفة، شال من أجل صونيا، حقيبة من أجل بلبله، كنزرة صوفية من أجل بيبي غول، وثياب وحلي* بلاستيكية لبقية أفراد العائلة. أما لأبنائها فقد جلبت عدة أثواب خاصة، وجميعها مشتراة من الأسواق الباكستانية، فالملابس غير متوفرة في كابول. وهي قد جلبت معها أشياءها الثمينة الخاصة.

"لن أعود إلى هناك من جديد"، تقول شريفة. "إنني أكره باكستان".

لكنها تعلم أن جميع القرارات هي بين يدي سلطان. فإذا كان سلطان يريد أن يعود، فلا بدّ لها من أن تفعل ذلك.

وتجلس زوجتا سلطان وتثرثان كصديقتين قديمتين، فتقومان بفحص الأقمشة، ونحتربان الملابس والحلي. وتقوم صونيا بتمسيد

الأشياء التي أهديت إليها وإلى ابنتها الصغيرة. فقليلاً ما يقوم سلطان بتقديم الهدايا إلى زوجته الصغيرة. لهذا، فإن عردة شريفة إلى البيت هي حدث يلقي ترحيبها لأنه يقطع الرتابة من حياتها هنا. لهذا، فهي تلبس لطيفة الفستان القصير زهري اللون الذي يجعل تلك الطفلة تبدو كأنها لعبة.

وتبادل السوسة الأحبار. فهن لم يكن قد رأين بعضهن بعضاً منذ أكثر من سنة. وليس هنالك من هاتف في الشقة، لذلك فإنهن لم يتبادلن الحديث أيضاً. والحدث الكبير في كابول هو زواج شاكبلا، الزواج الذي يشرحن تفاصيله بدقة: من الهدايا التي حصلت عليها، إلى الفساتين التي لبسناها، إلى ملابس بنات الأقارب الأخرى، إلى أخبار الخطوبات، والريجات، والوفيات.

وتروي شريفة الأنباء العائدة إلى حياة اللاجئين. من الذي عاد منهم إلى البلاد، ومن هو الذي لا يزال باقياً هناك. "لقد عُقدت خطوبة سليقة"، تقول هن. "كان لا بد من أن تنتهي المسألة على هذه الشاكلة، حتى وإن كانت العائلة تعارض هذه الخطوبة. فالولد مُعذم لا يملك شيئاً؛ كما أنه كسول أيضاً ولا نفع له"، تقول. ويوافق الجميع معها. فجميع يتذكر سليقة، التي تلبس دائماً على آخر طراز، لكنهن يشعرن بالحزن من أجلها لأنها ستقدم على الزواج من رجل منبطل شديد الفقر.

"بعد أن التقينا في الحديقة العامة، أقص عليها أهلها مدة شهر كامل"، تقول شريفة. "ثم في يوم من الأيام جاءت أم الصبي وعمته تطلبان يدها. وقد وافق أهلها؛ فلا خيار آخر أمامهم؛ فالتلف الحاصل قد حصل. أما حفلة الخطوبة فلم تكن سوى فضيحة".

وتُصغي النساء إلى الحديث بأعين مندهشة. خاصة صونيا. فهذه قصص ثلامس جميع حوارها. فروايات شريفة هي قصص الأوبرا الأحب إلى قلبها.

"إنها مضحكة"، تكرر شريفة قولها لتأكيد الحقيقة. فلقد جرت العادة أن تقوم عائلة زوج المستقبل بدفع نفقات الوليمة والفيستان والمصاغ عندما يُخطب فتاة لشاب، وعندما كانوا يخططون للحفلة، فإن والد الصبي دفع بضعة آلاف من الروبيات إلى يد والد سليقة. لكن والد سليقة الذي كان قد عاد من أوروبا ليساعد في حلّ مأساة عائلته، ولدى رؤيته للمبلغ، فإنه لم يتورع عن رميه إلى الأرض. "أعتقد أنك تستطيع أن تقيم وليمة خطوبة بهذا المبلغ الذي لا يكاد يعطى لمن وجبة تقدم لبعض طيور الدجاج؟". قال صائحاً. وكانت شريفة تجلس على سفرة الدرج تستمع إلى كل شيء، لهذا فإن الرواية دقيقة جداً ولا شك في صحتها. "رُدّ أموالك إليك وستكفل نحن بدفع الماتورة"، قال له.

ولم يكن والد سليقة كثير المال أيضاً، فهو في انتظار أن يُمنح له حق الجسوء إلى بلجيكا، وأن يتمكن من استقدام أفراد عائلته إليه هناك. وقد كانت هولندا قد رفضت استقباله من قبل، وهو الآن يعتاش على النقود التي تمنحه إياها الحكومة البلجيكية. لكن حفلة الخطوبة هي احتفال رمزي بالغ الأهمية، والخطوبة في واقع الأمر تكون غير قابلة للمسح. فإذا فسخت، فسيكون أمام الفتاة مشاكل جدية في أن تتمكن من الزواج من جديد، وذلك كائناً ما كانت أسباب الفسخ تلك. وحفلة الخطوبة هي في الوقت نفسه تعبير عن المكانة التي تحتلها العائلة، وعن مدى بحوّة عيشها. ما هو نوع الديكورات؟ ما هي تكلفتها؟ ما هو نوع الطعام؟ ما هي تكلفة الوليمة؟ ما هو نوع الفيستان؟ ما هو مبلغ تكلفته؟ ما هي الأوركسترا، ما هو مبلغ تكلفتها؟ فمثل هذه الحفلة من المعترض بها أن تُظهر للناس مبلغ تقدير عائلة الصبي للابنة التي ستصبح عضواً جديداً في عائلتهم. فإذا كانت المأدبة دون المستوى،

فإن هذا يعني أنهم لا يُقدِّرون الفتاة كثيراً، كما أنهم لا يُقدِّرون عائلتها. كما يدلّ ذلك أن والدها سيزح تحت وطأة الدين الذي ستكلفه إياه حفلة الخطوبة التي لم يفرح بها أحد سوى سليقة وخطيبها، ولكن ذلك لا يعني شيئاً بالمقارنة مع العار الذي تجلبه حفلة رخيصة تقام كيفما اتفق الأمر.

"إنها قد بدأت تمضّ أصابعها ندماً"، تكتشف شريفة النقاب عن تلك الحقيقة. "لأنه ليس لديه مال. فلقد رأت سريعاً كم أنه شخص قليل النفع. ولكن الأمر قد تأخر الآن كثيراً. ذلك ألما لو أقدمت على فسخ الخطوبة، فإن أحداً بعد ذلك لن يريدنا. لذلك فهي تتحوّل مخشخشة بست أساور كان قد أهداها إياها. وهي تزعم ألما أساور ذهبية، لكنني أعرف، كما هي تعرف، ألما أساور معدنية مطلية بالذهب فقط. وهي لم تحصل حتى على فستان جديد من أجل احتفالات رأس السنة. هل سمعتم في حياتكم بفتاة لا تحصل على فستان جديد من خطيبها لمناسبة ليلة رأس السنة؟".

"وهو راتب في بيتهم طيلة كل يوم الآن. وأمها لا تملك أي سيطرة على ما يفعلونه معاً. إنه أمر محزن ومُخزٍ، لقد قلتُ لها ذلك"، تقول شريفة أمام النسوة الثلاث الأخريات اللواتي أمطرها بعد ذلك بأسلتهن.

وماذا عن تلك، وعن تلك، وعن هايتك. فإنّ لا يزال عندهن الكثير من القرىبات في باكستان، لتسقط أخبارهن، من عمّات إلى خالات، إلى بنات عمّ من اللواتي ما زلن يعتقدن أن الأوضاع لا تزال غير آمنة تماماً للعودة إلى أفغانستان. أو أنهن لا يُردن العودة أبداً؛ حيث يكون البيت مدمراً، أو الحقل مزروعاً بالألغام، أو الدكان محترقاً ومنهوباً. ولكن الجميع يتوق للعودة إلى الوطن، مثله في ذلك مثل شريفة. فقد مضى عليها ستة تقريباً منذ أن رأت أولادها آخر مرة.

وتذهب ليلى إلى المطبخ لتحضير العشاء. وتكون مسرورة بعودة شريفة، الأمر قد عاد إلى وضعه الصحيح، لكنها تخشى الخصامات التي ستلي تلك العودة، والتي ستشعب بين زوجة أخيها، وبين أمها. فهي لا تزال تذكر كيف أن شريفة اعتادت أن تطلب منهم جميعاً أن يحزموا أمعتهم وأن يغادروا البيت.

"عذري بناتك وغادري هذا البيت"، اعتادت أن تقول لأم زوجها ييبي غول. "ليس لكم من مكان هنا. ونحن نريد هذا البيت لراحتنا فقط"، صرخت مرة عندما كان زوجها سلطان غائباً. كان ذلك في الزمن الذي كانت فيه شريفة لا تزال تحكم البيت وتحكم قلب سلطان. ولكن فقط خلال السنوات الأخيرة القليلة، وبعد أن جلب سلطان لنفسه زوجة أخرى، فإن لمحتها قد اعتدلت تجاه أقرباء زوجها.

"لكن الآن ستكون لدينا مساحة أقل لتأويننا"، تقول ليلى متتهدة؛ فنحن الآن لم نعد أحد عشر نفرًا بل أصبحنا ثلاثة عشر إنساناً في الغرف القليلة الصغيرة. وهي تقوم بتقشير البصل، وتسيل من عينيها دموع غزيرة جراء رائحته القوية. بل هي تبكي دموعاً حقيقية؛ فهي تكبت في نفسها الشوق، والتوق، وخيبات الأمل. فرائحة الصابون النظيفة التي اكتسبتها في الحمام قد ذهبت الآن عنها وانتهى أمرها. ورذاذ الزيت المقلّي يتناثر من المقلاة على شعرها ويعطيها رائحة دهية شديدة. أما يدها الخشنتان فتولمانها بسبب لدغ صلصة الفلفل الحارة التي تخرق الجلد المنهك الرقيق.

وهي الآن تطبخ عشاءً بسيطاً، فلا شيء مميز رغم عودة شريفة. فليس من عادات عائلة خان الاحتفال بالمناسبات التي تختص بالنساء. ومع كل هذا، فإن عليها أن تظهر ما يشتهي سلطان ويرغبه. من لحم، وأرز، وسبانخ، ولوبيا، وكلها تطبخ بدهن الحرورف.

وفي كل مساء يعود سلطان إلى البيت ومعه رزم من النقود التي يجنيها من مكتباته. وفي كل مساء يقوم بإيداعها في داخل الخزانة ويغفل عليها. وهو في العادة يجلب معه إلى البيت أكياساً كبيرة تحتوي على أكواز رُمان ناضرة، وموز حلو المذاق، وحبّات مندرين وتفايح. لكن الفواكه هي أيضاً من الأشياء التي يُغفل عليها في الخزانة. بحيث لا يأكلها إلا سلطان وزوجته صونيا اللذان يضعان أيديهما على مفتاح الخزانة دون سواهما. فسلطان يعتقد أنه عبء ثقيل عليه أن يقوم بإطعام عائلته الكبيرة، والطعام مكلف جداً خاصة عندما تكون الثمار في غير موسمها.

وتنظر ليلي إلى بعض حبات البرتقال الصغيرة القاسية الملقاة فوق حاجب الشباك. لقد بدأت تلك الحبات تجفّ. ومن أجل ذلك فإن صونيا قد أخرجتها إلى المطبخ؛ لتوضع بتصرف الجميع. لكن نفس ليلي تأبى حتى أن تذوقها. فإذا كان قدرها المحتوم أن تكتفي بالقوّة على الحبوب، فلماذا لن تأكل سوى الحبوب. أما البرتقالات فيمكن لها أن تبقى ملقاة في مكائها إلى أن تجفّ أو أن تتعفن. وترفع ليلي رأسها بقوة، وتضع القدر الثقيلة المليئة بالأرز فوق موقد الس: برعموس. وتسكب البصل المقطّع في وسط مقلاة الزيت، ثم تضيف البندورة، والبهارات والبصاطا. فليلى طاهية ماهرة. وهي تتقن كل شيء تقريباً. ومن أجل هذا، فإنهم يجعلونها تقوم بعمل كل شيء. وخلال الوجبات فإنها تجلس عادة عند الزاوية المخاذية للباب. وتقفز واقفة كلما احتاج أحدهم لأي شيء، كان يحتاج إلى إعادة ملء صحنه مثلاً. وعندما تنتهي من تلبية حاجات كل أحد، تملأ صحنها مما تبقى، وهو لا يعدو أحياناً أن يكون بعض الأرز الدسم والحبوب المطبوخة.

لقد نُشِئت منذ صغرها على الخدمة، فال أمرها إلى أن تكون مجرد خادمة يُوجّه الأوامر إليها كل من يشاء من أفراد العائلة. ومع كل أمر

جديد تلقاه، يتناقص احترامها ومركزها في العائلة. وإذا صادف أن كان أحدهم في مزاج سيئ، فإن الواقعة تقع على رأس ليلي. ولن يعدم من يريد أن يصرف غضبه فوق رأسها أن يجد سبباً لانتقادها، كأن تكون بقعة لم تنظف تماماً عن كنزة، أو كأن يكون اللحم غير تام النضج، إل ما هنالك من أشياء يمكن أن تخطر في بال من يريد أن يجد سبباً للتنفيس عن طبعه المحتقن.

وعندما تقوم العائلة بدعوة الأقارب إلى الطعام، فإن ليلي تنهض في الصباح الباكر، وبعد أن تكون قد حضرت طعام الفطور لعائلتها الخاصة بها، فإنها تنري إلى تقشير البطاطا، وجمع الحطب وتقطيع الخضار. وعندما يصل الضيوف، فلا يكاد يبقى لديها الوقت الكافي لإبدال ملابسها قبل أن تتابع عملها في الخدمة، ثم لصرف ما تبقى من الوقت السدي تستغرقه المناسبة، وهي منكبة على غسيل الصحون والأواني في المطبخ. فهي أشبه ما تكون بـ: سندريلا، إلا وما عدا، أن لا أمراً يوجد في حياة ليلي.

ويعود سلطان إلى البيت مع منصور، وإقبال، وإيمان. ويقوم بتقبيل صونيا في القاعة، بينما يكفي بتحية شريفة تحية مقتضبة في غرفة الجلوس. لقد أمضى معها يوماً كاملاً في السيارة من يشارور إلى كابل ولم يعد هنالك من حاجة إلى المزيد من الحديث معها. ويجلس سلطان وأولاده. وتحضر ليلي وعاء فخارياً للاغتسال مع مغرفة. تضع الوعاء أمام كل واحد منهم بدوره، فيفسلون أيديهم ثم تناولهم المنشفة. وتكون قطعة القماش المشمعة المخصصة قد مدت فوق الأرض حيث يمكن أن تُقدم عليها وجبة الطعام.

ويعود يونس، الأخ الأصغر لسلطان، إلى البيت، فيسلم على شريفة بحسرة. ويسألها عن آخر أخبار الأقارب، ثم ومثل عادته،

يُمسك عن الكلام. فهو قلماً تكتم أثناء الوجبات. وهو هادئ ورابط الجاش، ونادراً ما يتدخل في النقاشات العائلية. ويبدو الأمر كما لو أنه لا يبالي بشيء، ويرغب في حفظ شعوره بالتحاسة لنفسه فقط. فهذا الشاب البالغ الثامنة والعشرين من عمره، لا يشعر باكتفاء في حياته ولا بسعادة.

"إنها حياة أشبه بحياة الكلاب"، يقول. فهو يعمل كل يوم من الفجر حتى المساء، ولا يحصل سوى على الفئات من طاولة أخيه.

ويونس هو الشخص الوحيد الذي تسعد ليلى في خلتمته. فهي تحب هذا الأخ لأنه يأتيها في بعض الأحياء مهدايا صغيرة كمشبك بلاستيكي، أو مشط.

أما في هذا المساء فإن شيئاً ما، يُقلق يونس. لكنه يتأني قبل أن يسأل. وتستشرف شريفة ما يُؤرقه فتقول مجاهرة: "هناك قليل من عدم تيسر الأمور فيما يختص ببلقيسة. فوالدها ميال إلى الموافقة، لكن أمها لا تزال ترفض. وكانت الأم قد وافقت في البداية، لكنها ما لبثت أن تكلمت مع إحدى قريباتها التي لها ابن أصغر سناً، وهو راغب في الزواج من بلقيسة. ولقد عرض أهله فوساً، الأمر الذي جعل الأم في موقف متذبذب. وإن هذه القرية كانت قد بشرت بعض الإشاعات عن عائلتنا. هذا هو كل ما أستطيع أن أقوله لك".

ويعقب وجه يونس، ويحلق بعينه في صمت. فالموقف بكامله محرج. ويقول منصور بلهجة المازي المتهاكم: "الحفيدة لا تزوج جدًا"، لكنه يقول ذلك في سرّه متمتماً، وهكذا يسمع يونس كلمة منصور، ولا يسمعها سلطان. فالأمل الأحمر ليونس يكون قد انعكس، وجُوبه بالسرفض. ويشعر بالتعب، فهو تعبٌ من الانتظار، وتعبٌ من البحث، وتعبٌ من السكني في صندوق كرتون.

"هل لنا بالشاي؟" يقول بلهجة أمرة علّه يقطع استرسال شريفة في الكلام حول الأسباب التي تجعل عائلة بلقيسة غير راغبة في تزويج ابنتها منه. وتهض ليلي. وتكون في بأس من أمرها بأن خطوبة يونس تخرج جر. فهي تأمل بأن يقوم يونس بعد زواجه بأخذها وأخذ أمها لكي تعيشا معه في بيتة الجديد. فهم يستطيعون العيش معاً جميعاً؛ فليلي سوف تكون جيدة معهم، جيدة إلى نحو كبير. فهي سوف تقوم بتعليم بلقيسة، وستريحها من جميع الشؤون والأعمال الصعبة. حتى إن بلقيسة تستطيع أن تستمر في متابعة تعلمها إذا شاءت ذلك. وكل شيء سيحري على ما يرام. وهي مستعدة لتفعل أي شيء من أجل الخروج من بيت سلطان، هذا البيت الذي لا يُقدّر أحد جهودها فيه. فسلطان ينتشر قاتلاً إن طبخها لا يوافق مشتهاه، كما ينتذر من ألها تأكل كثيراً، وألها لا تطيع زوجته صونيا بشيء. ومنصور لا يتركها مرة في حالها بل يلوم على انتقادها وتعنيفها وتوجيه الأوامر إليها. وهو كثيراً ما يقول لها أن تذهب إلى الجحيم. "لست لأبالي بشأن أي شخص ليس له أي شأن في مستقبلي"، يقول لها. "وأنت لا تعنين شيئاً بالنسبة لي. فأنت طفيلية، والحياة بدونك أحلى"، يقول لها وهو يضحك باحتقار. ذلك لأنه يعرف جيداً أن لا مكان آخر لها تلجأ إليه. ويغلب ليس الشاي شيئاً أحضر خفيفاً. وتقوم بسؤال يونس عما إذا كان يريد أن تكوي له بنطاله من أجل أن يرتديه في اليوم التالي. فهي قد انتهت لتوها من غسيل البنطال. ويونس ليس له سوى بنطالين اثنين، وهكذا فإنها تحتاج إلى أن تعرف ما إذا كان يريد أن يلبس البنطال النظيف غداً. ويومئ لها يونس برأسه إيجاباً وسط صمته وهدوئه. "إن عمي شديدة الغباء"، يصّر منصور على القول. "وعندما هي تريد أن تقول شيئاً، فإنني أعرف ما تريد قوله. إلها أكثر شخص مضجر

قد عرفته في حياتي"، ويضحك بازدياد، ويقوم بتقليدها. لقد كبر ليس كابين أخ لعمته التي لا تكبره سوى بثلاث سنوات، بل كسيد لها. وصحيح أن ليلسى تعيد تكراراً ما تقوله عادة، لأنها تخشى ألا يكون كلامها قد سُمع. وهي على وجه العموم تتكلم عن أشياء الحياة الصغيرة لأن هذه الأشياء الصغيرة هي كل حياتها. لكنها تستطيع أيضاً أن تضحك وأن تكون مشرقة، مع بنات عمها، وأخواتها، أو مع أولاد أخواتها. فهي تستطيع أن تُدهش كل واحد بقصصها ونوادرها. ووجهها يستطيع أن يتحول بكامله إلى كتلة من المرح والدعابة. ولكن ليس أثناء عشوات العائلة؛ حيث تكون في الغالب ملازمة الصمت. وأحياناً قد تضحك ليلسى استجابة للبتكات السخيفة التي يطلقها أبناء أخيها، ولكن مثلما كانت قد أخرجت بنات عمها في الحمام: "إنني أضحك من فمي، وليس من قلبي".

ولم يقل أحد أشياء كثيرة خلال العشاء الأول الذي صاحب عودة شريفة من السفر بعد إفشاء الأخبار المخيبة للأمل، والتي تتعلق بلبقصة. فلإيمال يلعب مع لطيفة، وشابنام تلهو بعرائسها، وإقبال يتكلم بصوت مزعج مع منصور، وسليمان يغازل صونيا ويدللها. والباقون يأكلون في صمت، ثم تأوي العائلة إلى النوم. فشريفة وشابنام هما مكانان مخصصان في الغرفة التي تنام فيها ييسى غول، وليلى، وببلبة، وإقبال، وإيمال وفاضل؛ كانوا قد ناموا فعلاً. أما سليمان وصونيا فيحتفظان بغرفتهما. وعند منتصف الليل يكون كل منهم ممتدداً على بساطه، ما عدا فرد واحد من العائلة فقط.

فليلسى تطبخ في ضوء الشمعة لأن سليمان يحب الطعام البهتي أثناء همار العمل. وما هي تحمّر دجاجة بالزيت، وتحضّر أرزاً مطهوّاً، ومرقة الخضار. وبينما هي تنتظر اكتمال نضوج الطعام، فهي تقوم بأعمال

الجلسي. ويشرق نور الشمعة فوق وجهها. فهناك دوائر كبيرة سوداء حول عينيها. وعندما تنتهي من إعداد الطعام ترفع المقلاة من فوق الصاج الحامي، ثم تلف قطعاً من القماش فوق المقلاة وتربطها بعناية لمنع وقوع الغطاء عندما يحملها سلطان وأولاده معهم إلى العمل في الصباح. ثم تقوم بتنظيف الزيت عن أصابعها وتذهب إلى فراشها بينما هي لا تزال ترتدي الثياب نفسها طيلة اليوم. تقوم بإفراغ البساط الذي تنام عليه، وتسحب البطانية فوقها، وتستغرق في النوم إلى أن يُصحبها صوت المؤذن بعد ذلك بساعات قليلة. ويبدأ يوم جديد على صوت "الله أكبر".

يوم جديد له الطعم ذاته، والرائحة ذاتها، مثل اليوم الذي سبقه: إنه طعم الغبار ورائحته.

المحاولة

بعد ظهر يوم من الأيام تضع ليلي بورتها عليها من رأسها نزولاً، وتستعمل حذاء عالي الكعبين مخصصاً للخروج، وتتسلل إلى خارج البيت مارة ببوابة المدخل المحطمة، وبمحاذاة الفسيل المعلق في الباحة الخلفية. وتلتقط لمرافقتها ولداً من أولاد الجيران. يمران الجسر المقام فوق نهر كابول المخفف، ويختفيان تحت الأشجار على واحدة من الطرقات المشجرة القليلة في كابول. يمران بمحاذاة ماسحي أحذية، وبائعسي بطيخ، ويقالين، ورجال لا يفعلون شيئاً سوى التسكع في الجوار. وهؤلاء هم الذين تكرههم ليلي. فهم القوم المتبطلون العائمون أفواههم من أجل لا شيء.

وتكون الأوراق على الأشجار خضراء للمرة الأولى منذ عدة سنوات. فالسماء قلما جادت بالمطر في كابول خلال السنوات الثلاث الماضية، وكانت الشمس قد أحرقت براعم الأشجار إلى ما يشبه الرماد. والآن، وخلال هذا الربيع الأول الذي أعقب فرار طالبان، فإن السماء قد أمطرت كثيراً، لقد كان مطراً رائعاً. وبالرغم من أنه لم يكن كافياً ليملا نهر كابول إلى ضفتيه، إلا أنه كان كافياً لجعل القليل من الأشجار التي ما زالت على قيد الحياة تفرخ وتخرج أوراقاً خضراء.

كما كان كافياً لجعل الغبار ينحلي بين مرة وأخرى، هذا الغبار الذي هو اللعنة المسلطة على كابول. وعندما تخطر السماء، فإن الغبار يتحول إلى أوحال؛ وعندما تجف الأوحال فإنها تتحول إلى غبار تنوم في الأجواء وتدخل الأنوف، وتسبب التهابات في العين، وتغط في الخلق، وتعلق في الرئتين جاعلة إياها موحلتين. وخلال بعد ظهر هذا اليوم، كانت السماء قد أمطرت فصارَت الريح منعشة. لكن الهواء الرطب لا يقوى على اختراق البوركا. وكانت ليلى لا تزال تحس براحة أنفاسها الخاصة المتوترة، كما تحس بنض صدغيها.

وعلى العمارة رقم 4 متعددة الشقق في كابول، والمبنية بالكونكريت، ثمة إشارات كبيرة معلقة وقد كتبت عليها الكلمة التالية: "دورات". وطوابير الناس في الخارج تمتد في صفوف طويلة. فهناك صفوف نحو الأمية، ودورات للكمبيوتر، ودورات لتعلم الكتابة، وليلى تريد أن تسجل في دورة لتعلم اللغة الإنكليزية. وفي خارج المدخل ثمة رجلان يجلسان إلى طاولة لتسجيل الطلبة الجدد. تدفع لى رسم التسجيل وتنضم إلى الطابور مع مئات آخرين من السذجين يحاولون إيجاد الصفوف الدراسية. يهبطون بعض سلام الدرج، ويدخلون إلى داحل قاعة تبدو أشبه بمسحاً محصن ضد القذائف. وتكون لأثار الرصاص والقذائف آثار وأنماط مرتسمة على الجدران. فهذه المواقع كانت تستعدهم لحزن الأسلحة خلال الحرب الأهلية. وهي تقع تحت الشقق السكنية مباشرة. و ثمة ألواح خشبية تفصل كل "غرفة تدريس" عن سواها. وفي كل حجرة ثمة لوح أسود، ومؤشر، وبضعة مقاعد طويلة. حتى إنه توجد مقاعد خشبية في بعض الغرف. وهناك طنين خفيض من الأصوات؛ فالحرارة بدأت تدب في المكان.

وقتدي ليلي إلى قسمها، "الإنكليزية المتقدمة قليلاً". لقد وصلت مبكراً. وهكذا، فإن في الصف زمرة من الشبان الأجلاف.

أبعقل هذا؟ شبان في الصف؟ تعجب لنفسها. إنما تغالب رغبة في أن تستدير وتغادر المكان، لكنها تسرق نفسها وتذهب للجلوس في الخلف. ولثة بتتان أخريان تجلسان في الزاوية الأخرى. والأصوات الآتية من الغرف الأخرى تخرج في طنين خفيض. وأصوات المدرسين الصارفة تخترق الجدران. ويمرّ بعض الوقت قبل دخول الأستاذ. ويبدأ الشبان بالخربشة على اللوح الأسود، ويكتبون كلمات وعبارات جنسية غير عنشمة باللغة الإنكليزية. وتنطلع ليلي إلى الكلمات باهتمام. وتفتح قاموسها الإنكليزي - الفارسي لتبحث عن معانيها، تبحث تحت الطاولة بحيث لا ينتبه الشبان إليها. لكنها لا تتمكن من العثور على تلك الكلمات. وتشعر بنفور كبير من هذا الموقف بجملة: فهي وحيدة، أو شبه وحيدة، مع عصابة من الشبان الذين هم في مثل عمرها، حتى إن بعضهم أكبر منها سنّاً بقليل. كان عليها ألا تأتي إلى هذا المكان أبداً. إنما تشعر بالندم. ماذا إذا شرع أحد الشبان بالتحدث إليها؟ يا للفضيحة. وكانت قد نزعرت البوركا عنها. إذ لا يمكن لفتاة أن تلبس البوركا وتغطّي وجهها في غرفة صف، هذا ما كانت تعتقده. والآن ها هي قد كشفت النقاب عن وجهها.

ويصل المدرس فيقوم الشبان بسرعة بمحو الكلمات التي كانوا قد كتبوها على اللوح. وكانت ساعة الدرس عذاباً. فقد كان على جميع التلاميذ التعريف عن أنفسهم، وأن يصرّح عن عمره، وأن يقول شيئاً ما باللغة الإنكليزية. ويشير الأستاذ الذي هو شاب نحيل إليها بمسطرته ويطلب منها أن تقدّم نفسها. تشعر أنها تفضح كل دغيلستها في حضور هؤلاء الشبان. كما تشعر بالتقذر، والفضيحة،

وبالمساس بالشرف. ما هذا الأمر الذي أقدمت عليه؟ لم يدرك بخلها مرة إنما ستصادف شيئاً في الصف نفسه. هذا أمر لم تتصوره أبداً، والخطأ ليس خطأها.

لكنها لا تجرؤ على المغادرة. فلا بد من أن المدرس سوف يسألها عن السبب. ولكن عندما تنتهي الحصة الأولى، فإنها تسارع إلى الخروج. فترمي البوركا فوق رأسها وتندفع. وعندما تبلغ سلامة بيتها تقوم بتعليق البوركا فوق المسمار على الجدار.

"أمر رهيب، هنالك صبيان في الصف".

فتحت الأخريات أفواههن دهشة. "شيء عاقل"، تقول أمها. "عليك ألا تعودى إلى هناك مرة ثانية".

ولم تكن العودة واردة في ذهن ليلي أصلاً. فالطالبان قد يكونوا رحلوا عن البلاد، إلا أنهم لم يرحلوا بعد من ذهن ليلي، كما أنهم لم يرحلوا بعد من أذهان بيبي غول، وشريفة، وصونيا. فالنساء في مايكرورايون مسرورات لانقضاء زمن طالبان، فهن يستطعن الآن الاستماع إلى الموسيقى، بل يستطعن الغناء، والرقص، وطلاء أظافر أقدامهن، ما دام أن لا أحد يراهن. وهن يستطعن الاحتماء دائماً خلف غطاء السوركا. ويلي طفلة من أطفال الحرب الأهلية، حيث كانت السيادة كلها للملاي، ومنظمة طالبان. فهي طفلة الخوف. وهي تبكي من داخلها. وكل محاولاتها للانفلات، أو للقيام بأي شيء يكون مستقلاً بها أو نابعاً منها، قد باء بالفشل. فخلال خمس سنوات من حكم طالبان، كان تعليم البنات ممنوعاً. وما هو تعليمهن عاد أمراً مباحاً. إلا أنها تقضي نفسها عنه بنفسها. ولو كان سلطان قد سمح لها بإكمال تعلمها في المرحلة الثانوية لما كان عندها الآن من مشكلة. فالصفوف في باكستان كانت غير مختلطة.

تجلس على أرضية المطبخ لتقطيع البصل والبطاطا. بينما تنهك صونيا بتناول بيضة، وبارضاع لطيفة. وليلى لا تطيق أن تتكلم معها. الفتاة الحمقاء التي لم تتعلم حتى الألفباء. بل التي لم تكلف نفسها حق جهد المحاولة للتعلم. وكان سلطان قد أحضر لها مدرسة خصوصية لتعلمها القراءة والكتابة. لكن لم يعلق شيء في ذهنها، فكل ساعة درس جديدة لم تكن لتجاوز تلك التي سلفتها، وبعد أن اقتصر اكتسابها على خمسة أحرف في بضعة أشهر، فلما تحلّت عن متابعة الدراسة أخيراً سائلة سلطان إذا كانت تستطيع إعفاء نفسها من هذه الدروس. وكان منصور قد ضحك ساخراً من فكرة تعلم صونيا، منذ ابتداء تلك الدروس الخاصة بقوله: "عندما يملك الإنسان كل شيء يريد، ولا يعود يعرف أي شيء عليه أن يفعل، فإنه يبدأ بمحاولة تعليم الحمار فن السنط"، وحتى ليلى التي لا تطيق شيئاً يصدر عن منصور، وجدت نفسها تضحك لهذه النكتة.

وتحاول ليلى أن تتعالى على صونيا، فتقوم بتعنيفها كلما سمعتها تقول قولاً سخيفاً، أو كلما وجدت عاجزة عن إدارة موقف، لكن ذلك لم يكن ليحدث سوى أثناء غياب سلطان. فبالنسبة إلى ليلى لا تمثل صونيا سوى فتاة ريفية ساذجة لم ترتفع إلى رتبة غني عائلة سلطان سوى بسبب جمالها. وليلى تكرهها بسبب العديد من المزايا التي خصها سلطان بها، ولأن هاتين الفتاتين، رغم تساويهما في العمر، قد أعطيتا أعمالاً يتية غير متناسبة. فهي لا تحقد على صونيا بسبب ما أخذ شخصية عليها، قصونيا تلازم البيت مظهرة أقل درجات الحضور والمبادرة، مكثفة بمراقبة ما يدور من حولها، وهي مع كل ذلك ليست كسولة بطبعها؛ إذ لطالما كانت عاملة نشيطة في بيت أهلها، فلقد كانت تهم بشأهم في القرية. لكن سلطان لا يسمح لها الآن بأن تتعب.

وعندما يكون غالباً فإنها في العادة تقدم يد المساعدة. ورغم ذلك، فإنها تثير أعصاب ليلي. فهي تبقى طيلة لمارها جالسة في انتظار سلطان، ولا تسنهض من مكانها سوى لدى عودته. أما طيلة غيابها في العمل، فإنها تكفي بارتداء الملابس غير المرتبة. وعندما يحضر إلى البيت، فإنها تعالج بالهدوء وجهها القاتم، وتكحل عينيها، وتضع أحمر الشفاه على شفثيها.

وكانت صونيا قد عبرت الانتقال من حياة الطفلة إلى حياة الزوجة بينما هي في السادسة عشرة من عمرها. لقد بكت قبل حفلة الزواج، لكنها ومثل كل فتاة مهذبة، سرعان ما صارت معتادة على الفكرة. لقد كثرت ونمت دون أن يكون لديها أي توقعات في هذه الحياة، وقد استخدم سلطان فترة محطوبته عليها، التي استمرت شهرين، لمصلحته الخاصة. لقد قام برشوة والديها من أجل تمكينه من الاختلاء بها قبل الزواج. والخطيبان لا يفترض بهما أن ينظر أحدهما إلى الآخر في الفسرة الواقعة بين حفلة الخطوبة وحفلة الزواج، وهي عادة قلما تجري مراعاتها. لكن الذهاب إلى التسوق معاً هو شيء يختلف عن قضاء الليالي معاً. فهذه مسألة لم يكن من المسموح بها. فأخوها الأكبر أراد أن يدافع عن شرفها مستعملاً سكيناً، عندما عرف أن سلطان قد دفع نقوداً لوالديها من أجل السماح له أن يبيت معها في الليلة السابقة ليلة الزواج. لكن أخاها العنيد كان أيضاً قد أسبكت بمبلغ نقدي. وبقيت غطط سلطان سالكة طريقها. فهو من وجهة نظره، يسدي لها خدمة.

"إن عليّ أن أقوم بتحضيرها من أجل ليلة الزفاف، فهي شديدة الصغر، وأنا صاحب خبرة"، قال للوالدين. "فإذا تيسر لنا أن نغضي الآن بعض الوقت معاً، فلن تشكل لها ليلة الزفاف صدمة. لكنني

أعدكما بالآلة أدخل بها". وهكذا، وبالتدريج، فإنه هيّا فتاة السادسة عشرة لليلة العمر.

فمنذ ستين نخلاً وصونيا لا تزال مكتفية بوجودها الهامشي الرتيب. فهي الآن لم تكن لتبقي شيئاً أكثر من الجلوس في البيت، وأن تقوم بزيارات قليلة تتبادلها مع الأقارب، وقستان جديد بين كل وقت وآخر، وإسواره ذهبية كل خمس سنوات.

وكان سلطان قد اصطحبها مرة في رحلة عمل إلى طهران. لقد بقيا خارج البيت مدة شهر، وكانت النساء في مايكرورايون شديداً الفضول والحرص على سماع ما اكتسبته صونيا هناك منها. لكنها عندما عادت، فإنها لم يكن لديها الكثير مما يمكنها روايته. لقد بقيا هناك في منزل بعض الأقارب. وقد قامت هي بملاعبة لطيفة على الأرض، مثل عادتها. وإذا بها لم تشاهد طهران سوى مشاهدة عارضة. ولم تجد في نفسها رغبة في البحث والاكتشاف. والشئ الوحيد الذي أشارت إلى وجوده هناك هو البازارات؛ إذ إنها وجدت فيها أشياء أجمل من تلك التي تعرضها بازارات كابول.

والشئ الأهم في ذهن صونيا هو إنجاب الأطفال، أو بالأحرى، الأطفال الذكور. وها هي الآن حبلى من جديد، وتخشى أن تولد لها ابنة أخرى. وعندما تقوم لطيفة بجذب لِقَاعها واللهو به، فإن صونيا تصفعها وتعيد ربطه حول رأسها. فالاعتقاد السائد: هو أنه عندما يقوم الوليد الأخير باللعب بلِقَاع أمه فإن هذا يعني أن المولود القادم سيكون أنثى.

"إذا كنتُ حاملاً بطفلة، فإن سلطان سيتزوج امرأة ثالثة"، تقول عندما تقوم أختها زوجها بالجثوم قليلاً على أرضية المطبخ في صمت.

"هل قال هو لك ذلك؟" تقول ليلي في دهشة.

"لقد قال ذلك بالأمس".

"إنه لا يقول ذلك سوى لوعبك".

لكس صونيا لا تصغي. "لا بد من أن يكون هذا الجنين أنثى، لا بد من أن تكون أنثى". تقول مهمهمة. والطفلة البالغة سنة واحدة من عمرها والتي تقوم بإرضاعها، تستسلم للنوم بفضل صوت والدتها الرتيب.

وتشعر ليلي ألما في مزاج لا يسمح لها بالتحدث. فهي في حاجة إلى الخروج. وهي تعرف ألما لا تطيق الجلوس طيلة النهار في صوبة صونيا، وشريفة، وبليلة، ووالدتها. "إنني سوف أجنّ، إنني لا أتحمل هذا الوضع أكثر من ذلك". تقول لنفسها. "أنا لا أتمي إلى هذا المكان". وتفكر في فاضل وفي الطريقة التي يعامله سلطان بها. كان هذا هو ما جعلها متأكدة أن الوقت قد حان للوقوف على قدميها، وللمحاولة الانضمام إلى بعض دورات تدريس اللغة الإنكليزية.

فهذا الولد البالغ إحدى عشرة سنة من عمره، ما فتى يعمل كل يوم في حمل صناديق الكرتون في المكتبة، وهو يتناول عشاءه معهم في المساء، وينام على بساطه منكوماً في كل ليلة إلى جانب ليلي. وفاضل هذا، هو الابن الأكبر لمرم أخت سلطان ويلي.

ومرم وزوجها لا يستطيعان إطعام جميع أولادهما. وعندما احتاج سلطان إلى مساعدة في المكتبة، فإنهما قبلا عرضه بأن يعمل فاضل معه في مقابل إطعامه وإيوائه مع أطفاله. هذا هو كل ما يقدمه سلطان مقابل اثني عشرة ساعة من العمل. وكان فاضل يترك يوم الجمعة دون عمل ليזור والديه في القرية.

وقد نجس فاضل. فكان يقوم بترتيب المكتبة، وحمل الصناديق خلال النهار، ويتعارك مع إيمال أثناء الليل. أما الشخص الوحيد الذي

لم يكن ليتألف معه، فهو منصور. منصور الذي اعتاد أن يصفعه أو يضربه على ظهره بقبضة يده كلما ارتكب خطأ. ومنصور هذا قد يكون لطيفاً معه أيضاً في بعض الأحيان. ففجأة قد يصطحبه إلى دكان، ويشتري له ثياباً جديدة، أو حتى قد يأخذه إلى المطعم ويشتري له طعاماً طيباً. وعلى العموم، فإن فاضلاً استساغ الحياة، حيث كان بعيداً عن الشوارع الموحلة في قريته.

ولكن في أحد الأيام، قال سلطان: "لقد ضقت ذرعاً بك. اذهب إلى بيت أهلِكَ ولا تُرني وجهك في المكتبة بعد الآن".

ولقد أصيبت العائلة بالذهول. ألم يكن قد قطع وعداً لمريم بأن يتعهد شأن الصبي لمدة سنة؟ ولم يقل أحد شيئاً، ولا قال فاضل شيئاً. ولكنه وبينما كان يضطجع على بساطه تلك الليلة بكى. ولقد حاولت ليلي تعزيته، لكنها لم تفعل؛ لقد كانت كلمة سلطان هي القانون ببلاده.

وفي الصباح التالي، قامت بحزم أشياءه القليلة وأرسلته إلى والديه. وقد ترك له أمر شرح أسباب إعادته إلى البيت لوالدته.

لقد همت ليلي. كيف يمكن لسلطان أن يعامل فاضل بمثل هذه الطريقة؟ ربما سيكون الدور التالي هو دورها. لقد آن الأوان لها للتفكير في شيء ما.

* * *

وكانت ليلي قد حاكت خطة جديدة. ففي صباح أحد الأيام، وبعد أن غادر سلطان وأولاده البيت، تقوم بوضع البوركا فوق رأسها وتختفي خارج الباب. وفي هذه المرة أيضاً تلتقط أحد أبناء الجيران لتصطحبه معها. وفي هذا اليوم تختار لنفسها طريقاً آخر غير الذي اختارته سابقاً، طريقاً يؤدي إلى خارج مايكرورايون، إلى خارج غابة

الإسمت المربعة. وعند تخوم المدينة ثمة بيوت لحق بها الدمار إلى درجة أنه جعلها لا تزال خراباً خالياً. ومع كل ذلك فإن بعض العائلات اتخذت لها ملاذاً في تلك الخرائب. وعاش أفرادها على التسول من حيرتهم الذين ليسوا في وضع أفضل من وضعهم بكثير، لكنهم على الأقل، يملكون سقفاً فوق رؤوسهم يحميهم. وتقطع ليلى حقلاً صغيراً فيه قطع من الماعز يرعى بينما الراعي يغط في ظل الشجرة الباقية الوحيدة التي لا تزال تستطيع أن تطرح ظلاً. هذه هي منطقة الحدود بين المدينة وبين إحدى القرى. وعلى الجانب الآخر من الحقل، ثمة قرية ديه غودايداد. لكنها أولاً تعرّج على منزل أختها الأكبر منها شاكيلا.

يشوم سعيد بفتح البوابة، وسعيد هو الابن البكر لـ "وكيل"، الرجل الذي تزوجته شاكيلا منذ مدة قصيرة. وسعيد هذا كان قد فقد إصبعين من إحدى يديه عندما انفجرت به بطارية سيارة كان يقوم بإصلاحها. لكنه يقول لكل من يستفسره عن السبب بأنه قد تعرّض بالنفس؛ وبذلك قد يتبادر إلى ذهن السائل أنه كان يحارب في إحدى المعارك. وليلى لا تألف هذا الشاب، فهي تجده ساذجاً وحلقاً. فهو لا يحسن القراءة ولا الكتابة، ويتكلم كأنه مجرد فلاح صغير، مثله في ذلك مثل والده وكيل. وهي ترتعب لدى التفكير فيه. يعطيها ابتسامة ملتوية ويمسح بعينه مساحة البوركا التي ترتديها بينما هي تمرّ به. وهنا تعثرها رجفة أخرى. فهي ترتعب من فكرة أن يربطها قدرها إلى نير واحد معه. فكثيرون من أفراد العائلة بذلوا جهوداً لتحقيق ذلك. فإن كلاً من شاكيلا ووكيل كانا قد طلبا هذا الطلب من بيبي غول.

"لا يزال الوقت مبكراً على تزويجها"، كانت بيبي غول قد أجابتهما.

"لم يعد أوان تزويجها بعيداً جداً"، يجيب سلطان. لكن لا أحد كان قد سأل ليلي نفسها. وما كانت ليلي لتجيب لو سُئلت. غالبية المهذبة لا تجيب عن أسئلة حول عما إذا كانت تحب فلاناً من الناس أو لا تحبه. لكنها كانت تأمل ألا تتجرع هذه الكأس.

وتصل شاكيلا إلى ملاقاتها، بأرداف متمائلة، وابتسامات ضافية، وإطالة حاضرة. لقد تبين أن جميع المخاوف من زواجها من وكيل لا أسس لها. إذ لقد عادت إلى مزاوله عملها كمدرسة لعلم الأحياء. أما أطفاله فيحبونها ويقدرونها، فهي تمسح أنوفهم وتغسل ثيابهم. وقد جعلت زوجها يقوم بإجراء إصلاحات في البيت. كما أعطاهما مالاً اشترت به ستائر جديدة، وفرشاً لينة. وهي ترسل الأطفال إلى المدرسة، أما وكيل وزوجته السابقة فلم يكن أمر تعليم الأولاد أحد اهتماماتهما. أما ما قاله أكبر الأبناء متذمراً من الجلوس في غرفة الصف مع أطفال صغار، فقد ردّت عليه شاكيلا بالقول: "سيكون الأمر أكثر مدعاة للخرج لك في المستقبل إذا اخترت عدم الذهاب إلى المدرسة".

وها هي شاكيلا تجدد نفسها الآن فوق الكواكب. إذ أعيراً صار لها رجل. فعيّناها تلمعان. وهي تبدو مفرمة. فبعد خمس وثلاثين سنة تحوكت فتاة عنراء عانس، وبطريقة ذكية، إلى دور صاحبة البيت.

تقبّل كل من الأختين أختها على عذبيها، وترفع البرقع عن وجهها، وتبتعدان عن المدخل. ليلي تتعل حذاء عالي الكعبين، وشاكيلا تتعل خفين مرتفعين لها بُكُلّ ذات لون مذهّب، إلحماً خفّاً الزوج. فالأحذية تتخذ لها أهمية خاصة عندما يتعلز إبداء محاسن الجسد، أو مفاتن الثياب، أو جمال الشعر والوجه.

وتقفزان فوق برك المياه، ويختبان الخوض في الوحول المتخثرة أو في الأحاديث العميقة، بينما الحصى تنثر تحت النعال الرقيقة. إنه الطريق

إلى المدرسة. فليلى هي الآن في طريقها للتقدم إلى وظيفة مدرسة. وهذه هي عيادتها السرية الآن.

لقد عملت شاكيلا تحريماً في مدرسة القرية حيث تعمل هي، فوجدت أن لا مدرسة للغة الإنكليزية متوفرة هناك. ورغم أن ليلي لم تكن قد أكملت سوى تسع سنوات دراسية فقط، فإنها تشعر بالثقة أنها تستطيع تدريس المبتدئين. إذ إنها كانت قد حضرت بعض دورات مسائية لتدريس اللغة الإنكليزية أثناء فترة وجودها في باكستان.

وكانت المدرسة واقعة خلف حصار الأوحال هذا. والجدار الذي يسورها هو من الارتفاع إلى درجة لا تسمح بالنظر إلى خلفه. وثمة رجل عجوز يربض عند المدخل. ومهمته هي التأكد من عدم دخول من ليس له شغل يستدعي دخوله، خاصة إذا كان رجلاً، حيث إن هذه المدرسة هي مدرسة للإناث، وإن جميع طاقم التدريس هو من الإناث أيضاً. أما ملعب المدرسة فقد كان يوماً باحة مزروعة بالعشب، أما الآن فهو عبارة عن قطعة أرض مزروعة بالبطاطا. وحول قطعة الأرض المذكورة بُنيت غرف ملاصقة للسور الخارجي. وبذلك يكون لغرفة الصف ثلاثة جدران: الجدار الخلفي الذي هو قطعة من السور وجداران جانبيان. أما الجانب المواجه لحقل البطاطا فقد بقي مفتوحاً. وهكذا، فإن مديرة المدرسة تستطيع مراقبة كل ما يجري في جميع الصفوف. وقد وضعت في كل صف بعض المقاعد الخشبية الطويلة، وبعض الطاولات والكراسي التي لا ظهر لها، ولوحاً أسود. والفتيات الكبيرات هنّ وحدهن من يحقّ لهن الجلوس على الكراسي خلف الطاولات، وعلى المقاعد. أما الفتيات الصغيرات فيجلسن على الأرض ويستابعن النظر إلى ما يكتب على اللوح الأسود. وكثيرات من

التلميذات لا يستطيعن أهلنّ دفع أثمان الدفاتر، لكنهن يكنّ على الواح صغيرة سوداء، أو على قصاصات من الورق تتوفّر لهنّ.

والقوضى والتشويش يسودان المكان. وفي كل يوم تحضر طالبات جديّدات لتطلب الانتساب إلى المدرسة؛ لذلك فإن الصفوف لا تنفك تنامي أعدادها أكثر فأكثر. لقد كانت الحملة التي قامت بها السلطات لإعادة فتح المدارس جليّة. ففي طول البلاد وعرضها رفعت بافطات كبيرة تحمل رسومات لأطفال في طريقهم إلى المدارس، أما العبارة الوحيدة التي تكفي بحدّ ذاتها فهي: "العودة إلى المدرسة". والصور تقوم بالإعبار عن البقية.

وعندما وصلت شاكيلا وليلى، كانت المديرية مشغلة مع فناة شابة تريد الانضمام إلى المدرسة كتلميذة. وهي تقول إنّها قد أتمت دراسة ثلاث سنوات دراسية، وتريد أن تتابع الدراسة من السنة الرابعة. "إنني لا أستطيع العثور على اسمك في لوائحنا". تقول لها المديرية بينما هي تتصفح دفتر اللوائح الأسماء كان قد بقي بفعل الصدفة فقط، في حצרانة، إلى ما بعد انقضاء فترة حكم الطالبان. وتبقى الشابة صامتة.

"هل تحسّنين القراءة والكتابة؟" تسألها المديرية.

تتردّد الشابة. وفي لحاية الأمر تعترف أنّها لم تدخل المدرسة مرة من قبل.

"لكنني أرغب الابتداء من السنة الرابعة" تقول هامسة. "إذ من المخرج لي أن أوضع في صف الصغار جدّاً".

وتجيبها المديرية بأنّها إذا كانت تريد أن تتعلّم أي شيء فإن عليها بالابتداء من القاعدة، أي من الصف الأول. وهو صف يضم الفتيات اللواتي هنّ في أعمار تتراوح بين الخامسة وبين سنوات المراهقة. وهذه

الشابة سوف تكون هي الأكرم بيهن. لذلك، فهي تشكر المديرية وتصرف.

ثم يأتي دور ليلى. وتذكرها المديرية منذ فترة ما قبل الطالبان. فلطالما كانت ليلى تلميذة في هذه المدرسة، والمديرة ترحب بها الآن كمدرسة.

"لكن عليك أولاً أن تستجلي"، تقول لها. "عليك أن تلجسي إلى الوزارة، وزارة التعليم، وأن تأخذي معك أوراقك من أجل التقدم إلى الوظيفة هنا".

"ولكن، لا يوجد لديكم معلمة للغة الإنكليزية، ألا تستطيعين تولي مسألة الأوراق بدلاً عني؟ أو، ألا أستطيع مباشرة عملي الآن، ومتابعة مسألة الأوراق في وقت لاحق؟" تسألها ليلى.

"هذا مستحيل. عليك أن تحصلي أولاً على موافقة شخصية من السلطات، هذه هي القواعد".

وتصل الصرخات العائدة للفتيات الصاعبات إلى المكتب المفتوح. وتقوم مدرسة بضمهن بعنف بقضيب لتهديتهن بينما هن يدخلن إلى غرف التدريس. وتذهب شاكيرا لشرح درسها.

وتخرج ليلى إلى خارج بوابة المدرسة وهي تشعر بالإحباط. وتتضاؤل جلبة التلميذات في سمعها. وتغوص طريقها عائدة في الأحوال إلى بيتها ناسية أنها تعود بمفردها فوق كعبين مرتفعين. كيف يمكنها الوصول إلى وزارة التعليم دون أن تقع الأنظار عليها وينكشف أمرها؟ فالخطة كانت تقضي بأن تحصل أولاً على الوظيفة، ثم تقوم بإعلام سلطان بالأمر. إذ لو أنه عرف عن هذه الخطة مسبقاً، فإنه لا بد من أن يسدس إصبعه فيها. لكن إذا كان قد تيسر لها الحصول على الوظيفة وقضي الأمر، فإنه قد يسمح لها الاستمرار فيها. والتعليم في كل حال

كان يقتصر على تدريس ساعات قليلة كل يوم؛ وكل ما في الأمر أنه سيكون عليها أن تنهض من نومها حتى في وقت هو أبكر من المعتاد، وأن تضاعف جهدها في العمل أكثر من ذي قبل.

فشهادتها المدرسية لا تزال في باكستان. وهي تشعر وكأنها على حافة اليأس من الأمر كله. لكنها لا تلبث أن تتذكر الشقة الكالحة والأرضيات التي لا يفارقها الغبار، في مايكرورايون، لذلك فهي تذهب إلى أقرب مكتب تلغراف حيث تقوم بمخاطبة أحد الأقارب في بيشاور وتسألهم القيام باستخراج أوراقها، ويعدونها ببذل ما يقدرون عليه من جهد لاستخراج الأوراق وإرسالها إليها مع أي شخص عائد إلى كابول. فالخدمات البريدية في أفغانستان كانت لا تزال معطلة، ومعظم الأشياء ترسل مع الأشخاص المسافرين.

وتصلها الأوراق في غضون أسابيع قليلة. وتنفى الخطوة التالية، وهي الذهاب إلى وزارة التعليم. لكن كيف لها بالوصول إلى هناك؟ فهي لا تستطيع الذهاب بمفردها. وتطلب من يونس مرافقتها، لكنه لا يصدق أن بإمكان من هو مثلها أن يعمل. "إنك لا تعرفين ما هو نوع الوظيفة التي قد يعطونك إياها"، يقول لها. "ابقي في البيت واهتمي بشؤون والدتك العجوز".

أما أخوها المفضل فلا أمل فيه يرجى. وأما منصور، ابن أخيها، فإنه لن يستجيب لسؤالها سوى بالشخير والازدراء. وها هي تدور في حلقة مفرغة. ولقد بدأت السنة الدراسية منذ وقت ليس باليسير. "لقد تأخرت المسألة جداً"، تقول لها أمها. "انتظري حتى السنة القادمة".

وتمتلئ ليلي يأساً. "ربما أنا لست حادة في رغبتني بالتعليم"، تقول لجعل دفن هذه الفكرة أمراً أسهل عليها.

وها هي الآن تراوح مكانها، تراوح مكانها في وحول المجتمع وفي
 غابر التقاليد. لقد وصلت إلى طريق مسدود في نظام راسخ في تقاليد
 البلد القديمة التي تشل نشاط نصف سكانه. ووزارة التعليم لا تبعد
 سوى مسافة مسار نصف ساعة في الحافلة، لكنها نصف ساعة
 مستحيلة. وليلى غير معتادة على الصراع للحصول على شيء ما بل
 على العكس، فإنها معتادة على الاستسلام والخضوع للأمر الواقع. لكن
 لا بد من إيجاد طريقة للخروج من المأزق. وكل ما عليها هو البحث
 عن المخرج.

لأنَّ الله خالق

إنَّ الضحجر والاحتباس اللذين لا ينتهيان، جرّاء الواجب الكتابي الذي أعطي له على سبيل القصاص يكادان يخفقان فاضل. فهو يريد أن يقفز من مكانه ويصرخ احتجاجاً، لكنه يلجم نفسه كولد في الحادية عشرة من عمره يُعاقب لعدم إتمامه لواجب مدرسي. وتحرك يده بعير هداية فوق الصفحة. ويكتب بأحرف صغيرة حتى لا يستهلك الكثير من مساحة الورقة، فإن الدفاتر المدرسية بالغة التكلفة. والضوء الآتي من فنديل الكاز يطرح نوراً شاحباً على الورق، فكأنما هو يكتب على ظلمات المتراقصة، هكذا يحلّ إليه.

وفي الزاوية تجلس جدته مُحملقة به بعين واحدة. فالعين الأخرى كانت قد فُقدت عندما وقعت مرة في التتور. والأفران الأفغانية التقليدية هي تجاويف في داخل الأرض. وأمه مرم تقوم لأرضاع صغيرها عسب البالغ السنة الثانية من عمره. وفاضل منهك، ويصبح خطه عَكْشاً. وعليه أن ينتهي من كتابة الفرض حتى وإن استغرقه ذلك الليلة بكاملها. فهو لا يستطيع تحمّل ضربات مسطرة المعلم فوق عُقَد أصابعه. وهو لا يستطيع احتمال العار الناتج عن ذلك.

إد عليه أن يكتب العبارة التالية عشر مرات: إن الله هو الخالق،
إن الله هو الخالد، إن الله هو القدير، إن الله هو الجميل، إن الله هو
الحق، إن الله هو الحي، إن الله يرى الجميع، إن الله يسمع الجميع، إن
الله هو الذي يحيط بكل شيء، إن الله هو الذي يقدر على الجميع،
إن الله...

وسبب هذا القصص هو عدم قدرة فاضل على إعطاء الإجابة
الصحيحة خلال درس عن الإسلام. "إنني لا أحسن الإجابة
الصحيحة مرة"، يقول لأمه متذمراً. "لأنني عندما أشاهد المعلم
أصبح مرتبكاً وأنسى كل شيء. فهو دائم العبوس، ويصعب غضبه
عليّ حق وإن أخطأت خطأ صغيراً في إجابتي، إنه يكرهني". فمن
البداية إلى النهاية، سار كل شيء سراً غير صحيح عندما طُلب إلى
فاضل أن يتقدم إلى اللوح الأسود ليعطي إجابات عن أسئلة حول
الله. وكان قد قام بتحضير دروسه، لكنه عندما لمض إلى قرب اللوح
فإنه ما عاد يتذكر شيئاً مما حفظه. ولا بدّ من أن عقله يكون
منشغلاً بشيء ما، بعيد عن الدرس بينما يكون جالساً للمذاكرة.
ومدرس الدين رجل ذو لحية طويلة، وعمّة، وجلباب تحتة بنطال
نضفاض.

"إذا كنت لا تستطيع أن تتعلم هذه الأشياء، فإنك لن تستطيع
الاستمرار في هذا الصف"، يستتج المعلم جازماً. وبعد أن أغنى
فاضل كتابة الإجابات عشر مرات، فإنه لا بدّ من أن يكون قد
حفظ الإجابة عن ظهر قلب. وهنا فإنه يتمم في سرّه ثم يكرّر
الإجابة على مسمع أمه. وأخيراً ترسخ الإجابة في ذهنه وتُشفق
الجسدة على حفيدها. فهي لم تدخل مدرسة قط، وتعتقد أن هذه
الأمثلة لا بدّ من أنها مرهقة بالنسبة إلى طفل صغير. وهي ترفع كواب

مستعملة ما تبقى لها من يديها مرتشفة الشاي فيسمع لارتشافها له شرح ومرخ.

"عندما كان النبي محمد (ص) يشرب، فإنه لم يكن يحدث صوتاً"، يقول لها فاضل بتحهم. "وكان كلما ارتشف رشفة أزال الكأس عن شفثيه، وبعد كل ثلاث رشفات يحمد الله"، روى لها. وتسترق الجدة العوراء نظرة إليه وتقول: "أحقاً هكذا؟".

أما القسم الثاني من الواجب فهو عن حياة النبي محمد (ص). وقد وصل فاضل إلى الفصل الذي يتحدث عن عادات النبي (ص) وها هو يقرأ مُمرراً متبائنه تحت الكلمات، من اليمين إلى اليسار.

"كان النبي محمد (ص) لا يجلس سوى على الأرض، ولا يقعد سوى متربعاً. ولم يكن هنالك أي مفروشات في بيته. فحياة الإنسان يجب أن تكون شبيهة بحياة المسافر الذي يرتاح في الظل، ثم يتابع الطريق. والمنزل يجب ألا يكون أكثر من مكان للاستراحة، وللوقاية من القُر والحَر، والاحتماء من الحيوانات المفترسة، وأن يكون فيه مكان تُحفظ فيه محبوسية الإنسان.

"وكان من عادة النبي محمد (ص) أن يستلقي على ذراعه اليسرى. وعندما يجلس للتأمل فإنه كان يحب أن يسوي الأرض بماسحة أو بعضا، وإلا فإنه يجلس على الأرض محيطاً ساقيه بذراعيه. أما عندما يستام، فإنه يستلقي على جانبه الأيمن، بينما يضع كفّ يده اليمنى تحت وجهه. وفي بعض الأحيان يستلقي على ظهره؛ وفي بعض المرات يضع ساقاً فوق أخرى، لكنه كان يحرص دائماً على أن تبقى كل أعضاء جسده مستورة. وكان يكره النوم على البطن متجهاً بوجهه إلى الأسفل كما كان ينهي الناس عن فعل ذلك. ولم يكن يحب النوم في

غرفة مظلمة، أو على سطح منزل. وكان يقتسل دائماً قبل الذهاب إلى الفراش، ويتلو أدعية إلى أن يدخل في النوم. فإذا نام أرسل غطيظاً هادئاً. أما إذا استيقظ أثناء الليل ليتبول، فإنه يفضل يديه ووجهه بعد ذلك. وكان يرتدي منزراً يستر به عورته قبل اللجوء إلى النوم لكنه كان في العادة ينزع عنه القميص. وحيث إن البيوت كانت تخلو من مراحيض في تلك الأيام فإن النبي (ص) قد عشي بضعة أميال إلى خارج نطاق المنازل ليضمن أن يكون محتجباً عن الأبصار. ويختار لنفسه أرضاً سهلة ليحتجب الرشاش. وكان يحرص على الاحتجاب عن الأنظار وراء صخرة أو مُرتفع. وكان يستحم خلف ستارة، أو محتفظاً بعجزه، إذا استحم تحت ماء المطر. وكلما نظف أنفه استعمل غرفة".

ويستمر فاضل في القراءة بصوت عالٍ عن عادات النبي (ص) في الطعام. فهو يحب التمور، ويفضلها ممزوجة بالحليب أو بالزبدة، كما كان يفضل رقة الحيوان الذبيح وحانبه، وهو لم يأكل بصلاً ولا ثوماً، لأنه كان يكره النفس غير الطيب؛ وقبل أن يجلس لتناول طعامه فإنه يخلع نعليه، ويفسل يديه؛ ويستعمل يده اليمنى لتناول الطعام، ولا يأكل سوى من الجانب المقابل له من القصعة، ولا يمس يده أبداً إلى منتصفها. وهو لم يستعمل السكاكين بل يستعمل أصابعه الثلاثة لتناول الطعام. وكلما دخلت مُضغطة لحم إلى فمه شكر الله.

ويُقفل الكتاب.

"الذهب إلى فراشه يا فاضل".

كانت مريم قد ربت فراشه في الغرفة التي تناولوا فيها طعامهم. وكان ثلاثة من إخوته يغطون هناك في نومهم من قبل. ولكن كان لا

يزال على فاضل أن يتعلم الصلاة، فهو يكرّر ويكرّر كلمات عربية لا يفقه معناها من القرآن الكريم، ثم ينهالك على بساطه بكامل ثيابه. فعليه أن يكون في مدرسته عند الساعة السابعة من صباح اليوم التالي. وهو يرتعد خشية. ذلك أن درسه الأول سيكون عن الإسلام. ويستسلم للنوم منهكاً، لكنه ينام في غير راحة، ويعلم بأنه يخضع لامتحان ويجب إجابات غير صحيحة. وهو يعرف الإجابات لكنها لا تحظر في باله.

وتتجمع غيوم ثقيلة فوق رأسه في سماء القرية. وبعد أن ينام تُمطر السماء، وتقع حبات المطر فوق السقف الترابي وتقرقع فوق المساحات المبلّطة بالحجارة. وتتجمع النقاط فوق أغشية البلاستيك التي تغلف الشبايك. ويدخل تيار من الهواء البارد إلى داخل الغرفة؛ تستيقظ حدّته وتنقلب إلى جانبها. "تبارك الله"، تقول عندما تلاحظ غزارة المطر. ثم تستدير إلى جانبها من جديد، وتعود إلى النوم. أما حولها فتصاعد أنفاس الأطفال الأربعة في وداعة وهذوء.

وعندما يتمّ إيقاظ فاضل من نومه عند الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي، يكون المطر قد توقف، وتكون الشمس قد أرسلت أشعتها الأولى فوق المرتفعات المحيطة بكابول. وعندما يغتسل بالماء الذي تحضره له أمه، ويلبس ثيابه، ويحمل حقييته على ظهره، تكون الشمس منشغلة بتخفيف نُقع المطر. ويصبح حانقاً ونكدّ الطبع، ويعتقد أن أمه لا تسرع بما فيه الكفاية عندما يطلب منها تلبية شيء له. أما هاجسه الوحيد فهو درسه عن الإسلام.

ومريم تدلّل ولدها الأكبر. فهي تخصه بأفضل الطعام وأعظم العناية. ولهم بمسألة تزويده بما يكفي من الطعام لعمل دماغه. وفي

مناسبات نادرة، عندما تستطيع أن تدخر بعض النقود، فإنه هو الذي يكون أول من يحصل على قطعة ثياب جديدة. فهي تعلق عليه آمالاً كبيرة، وهي تذكركم كم كانت قاعة منذ أحد عشر عاماً؛ فزواجها من كرم الله كان سعيداً. وهي تذكركم مولد فاضل، وتذكركم فرحها عندما أقيمت مأدبة كبيرة، وتلقى ولداً هدايا رائعة. وكان هنالك تبادل زيارات وكثير من الفرح. وبعد ذلك بسنتين وُلدت لها ابنة؛ ولكن لم يكن هنالك لا مأدبة ولا هدايا.

وقد استمر زواجها من كرم الله لوضع سنوات فقط. وكان فاضل في الثالثة من عمره عندما قُتل أبوه. وصارت مريم أرملة، واعتقدت أن الحياة قد أفلتت في وجهها. وقامت والدته زوجها العوراء، بالتعاون مع والدتها، هي، بيسي غول باتخاذ قرار بأن عليها أن تتزوج من حازم، الأخ الأصغر لكريم الله. ولكن حازماً لم يكن يشبه أخاه الكبير، فهو لم يكن في مثل ذكائه، ولا في مثل قوته. وقد دمّرت الحرب الأهلية حانوت كريم الله، وصار عليهم أن يتدبروا معيشتهم براتب حازم الذي يعمل مأموراً في الجمارك.

أما فاضل، فلا بدّ له من أن يدرس ويتعلّم ويصبح مشهوراً، هذا ما تأمله أمه. وكانت في بداية الأمر قد فكرت بأنه يجب أن يعمل في مكتبة شقيقها سلطان. فقد تراءى لها أن المكتبة قد تكون بيئة تجارية مناسبة. وسلطان قد أخذ على عاتقه مسؤولية إطعامه، وفاضل يأكل عند خاله أفضل مما يأكل في البيت. لقد أمضت النهار الذي أعاد فيه سلطان ولدها إليها وهي تبكي. فقد أخذها قلق بأن يكون فاضل قد أساء السلوك، ولكنها تعرف أيضاً تقلّب مزاج أخيها سلطان، فأيقنت أن فاضلاً لم يعد في حاجة إلى هذه المهنة التي قوامها حمل الصناديق.

ثم قال لها أخوها الأصغر يونس بأنه سيحاول إدخال فاضل إلى مدرسة الاستقلال التي هي إحدى أفضل المدارس في كابول. وكان فاضل محظوظاً، إذ بدأ الدراسة فيها من الصف الرابع. وتقدّمت جميع الأمور نحو الأفضل، هذا ما أيقنته مريم. وهي عندما تفكر في أمر إسماعيل، ولد سلطان، الذي يكاد لا يرى أشعة الشمس أثناء عمله من الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل في أحد عمال والده، فإنها تصاب بالدعر.

فهي تداعب شعر فاضل بينما هو يسرع إلى خارج البيت، لينطلق في الطريق الموحد. وهو يحاول أن يتجنب البرك قافراً من جزيرة لأخرى. إذ على فاضل أن يجتاز نخوم القرية كي يصل إلى محطة الأوتوبيس. ويركب في مقدمة الحافلة، وهي المكان المخصص للجلوس الرجال، ويتحمل وعورة الرحلة إلى كابول في الحافلة التي لا تنفك أن تكون في نزول وصعود في الحُفر الكثيرة التي تعتور الطريق.

ويكون فاضل هو أحد أوائل الواصلين إلى غرفة الصف. ويجلس في مقعده في الصف الثالث من المقاعد. ويتوالى وصول الصبيان واحداً تلو الآخر. فمعظمهم هزيلو الأجساد، وشاحبو الهيئة. بعضهم يرتدي ثياباً واسعة جداً بالنسبة إليه، ولعلها ثياب قد مرّرت إلى صاحبها بعد أن ضاقت على أخ يكون أكبر منه. وهالك خليط طريف من الأزياء في الصف. فالبعض ما زال يرتدي الزي الذي فرضته طالبان على الصبيان. فالجهة الخلفية من البنطلونات جرى توسيعها بإضافة رُقْع من القماش خيطت في الوسط بما يناسب ازدياد نمو الأولاد. والبعض منهم يلبس بنطلونات يعود تاريخها إلى السبعينيات، وأقمشة استخرجت من أرضيات "المتحّات"، ثياب ربما قد لبسها إخوتهم الكبار قبل وصول طالبان إلى السلطة. وأحد الأولاد يرتدي بنطلوناً من الجينسر. لكن

يسنطونونه بدا أشبه بالبالون المربوط ربطاً محكماً حول الحصر. والبعض يلبس "شرلويل" ذات "محور" واسعة (bell-bottoms). فالتياب الخارجية لأحد الأولاد قصوة وشديدة الضيق بحيث برز من فوق خط حصر بسنطاله، سرواله الداخلي. وأحد الأولاد قد نسي رفع سحاب بسنطاله. فحيث إنهم قد اعتادوا على ارتداء اللبس التقليدي منذ الصغر، فإنهم لم يستعدوا بعد على الملابس الإفريقية التي تقتضي وجود سحاب، مع ما للسحاب من آليات خاصة. وبعضهم يلبس القمصان القطبية المخترمة التي تلبس في دور الأيتام الروسية، إلا أن جميع هؤلاء الأطفال يشتركون معاً في النظرة الجائعة المستوحشة قليلاً. وأحد الأطفال يلبس سترة رسمية مهلهلة تتغضن بين كتفيه.

ويلعب الأطفال، ويتصايحون، ويتقاذفون بعض الأشياء حول الغرفة. ويتعال الصرير بينما تنزاح المقاعد عن أمكتها. وعندما يُقرع الجرس ويدخل المدرس، يكون الأطفال الخمسون كل على مقعده. وهم يجلسون على مقاعد خشبية عالية مثبتة إلى مناضد أمامها. وكل مقعد هو في الأصل، مصمم لجلوس تلميذين فقط، ولكن، ومن أجل استيعاب الجميع، فإنه يتم إحلاس كل ثلاثة منهم على مقعد واحد أحياناً.

وعندما يدخل الأستاذ ينتصب جميع التلاميذ وقوفاً في لمح البصر احتراماً له.

"السلام عليكم"، يقول الأستاذ ماشياً بتؤدة بين المقاعد، وملقياً نظرة للتأكد من أن الجميع قد أفردوا الكتب المناسبة، وأنجزوا الفروض المطلوبة. كما يقوم بالفتيش على الأظافر، والتياب، والأحذية. فإذا لم تكن هذه الأشياء نظيفة بالكامل، أو على الأقل ليست مُستعانة، فإن هذا يعني الإخراج من الصف.

وبعد أن ينتهي الأستاذ من كشفه، ويتأكد أن الجميع قد أدوا فروضهم لهذا الصباح، فإنه يقول: "سوف نتابع درسنا".

"الحرام"، وهنا يرفع صوته ويقوم بتدوين هذه الكلمة غير المألوفة على السبورة. "هل يعرف أحدكم ماذا تعني هذه الكلمة؟".

ويرفع أحد الأولاد يده "السلوك الرديء هو الحرام".

"إنه مُصيب. السلوك الرديء الذي لا يتفق مع الإسلام، هو الحرام"، يقول الأستاذ. "فعلى سبيل المثال قتل شخص ما، دون سبب. أو إنزال العقاب بشخص ما، دون سبب. وشرب الكحول حرام، وكذلك تعاطي المخدرات هو عطيية. وأكل لحم الخنزير حرام. أما الكفار فلا يهتمون بشأن الحرام. فأكثر ما يراه المسلمون حراماً يعتبرونه هم جيداً. وهذا شيء عاطل".

وينظر الأستاذ حول الصف. ويرسم جدولاً على اللوح يكتب فيه ثلاث كلمات: حرام، وحلال، ومباح. فالحرام هو كل شيء سيئ وممنوع، والحلال هو كل شيء جيد ومسموح به، أما المباح فهو ما يقع تحت الظن وليس له وجه واضح.

"فالمباح هو كل ما ليس جيداً ولكنه لا يعتبر عطيية معروفة أيضاً. على سبيل المثال أن يأكل المرء لحم الخنزير بدلاً من أن يتعرض للجوع حتى الموت؛ أو القيام بالقنص؛ أو القيام بالقتل حفاظاً على البقاء".

ويكتب الأولاد ويكتبون. وفي النهاية يقوم المدرس بطرح أسئلته الاعتيادية ليتأكد من أنهم قد فهموا الأمثلة.

"إذا كان رجل يستحل الحرام، ماذا نسميه عندئذ؟" لا أحد يجيب.

"نسميه كافرًا"، يجيب أستاذ الدين عن السؤال الذي طرحه بنفسه.

"وהל الحرام جيد أم سيئ؟"

ترفع جميع الأيدي تقريباً في الهواء. لكن فاضل شديد الارتباك؛ فهو يخشى أن يعطي إجابة غير صحيحة. لذلك فهو يقلص نفسه إلى أصغر حجم ممكن في صف المقاعد الثالث. ويشير المدرس إلى أحد الصبيان فيقف منتصباً بجانب منضدته ويجب قائلاً: "سيئاً".

وكان ذلك هو الجواب الذي يريد فاضل قوله. فالكافر شخص

رهيب.

الغرفة الرهيبة

إيمال هو أصغر أبناء سلطان. فهو في الثانية عشرة من عمره، ويعمل اثني عشرة ساعة في اليوم. وهو يعمل كل يوم، أي سبعة أيام في الأسبوع، ويجري إيقاظه من نومه كل فجر. لكنه يتكوى على نفسه من جديده إلى أن تجبره ليلى أو أمه على النهوض. يغسل وجهه الشاحب، ويلبس ثيابه، ويتناول بيضة مقليه مستعملاً أصابعه في غمس الخبز في صفار البيضة، ويشرب الشاي.

وعند الثامنة صباحاً يفتح إيمال باب كشكه الصغير في الـ "لوبي" المظلم في أحد فنادق كابول. فهو يقوم هنا ببيع الشوكولا، والبسكويت، والمشروبات الغازية والمذاغات. بعد النقود في سأم. فهو يُطلق على محله لقب "الغرفة الرهيبة". فقلبه يدمى، ومعدته تنقبض، في كل مرة يقوم فيها بفتح باب محله. فهذا هو المكان الذي يجب عليه أن يجلس فيه إلى أن يحضر أحد لاصطحابه إلى البيت في السيارة عند الساعة الثامنة من المساء، ذلك عندما يكون الظلام قد خيم تماماً في الخارج. عندها يذهب مباشرة إلى بيته ليتناول عشاءه ويندس في فراشه.

وعنارج باب محله مباشرة يوجد هنالك ثلاثة أحواض. ويحاول

موظف الاستقبال جاهداً أن يلتقط بواسطتها كل الماء المتسرب من السقف. ولكن، وبصرف النظر عن عدد الأحواض التي توضع، فإن هنالك ثقباً كبيراً من الماء تبقى دائماً خارج باب إعمال. وعليه، يصبح على المارين إلى دكانه نحاشي الأحواض والنقع معاً. والـ: "لوبي" يكون في الغالب مُعتمداً. فخلال النهار تُراح السناير الثقيلة عن الواجهات، ولكن ضوء النهار لا يمكنه الوصول إلى الزوايا الممتعة. وفي المساء، إذا كان هناك من تيار كهربائي فإن المصابيح تُضاء. أما إذا انقطع التيار الكهربائي، فيُستعاض عن مصابيح الكهرباء بمصابيح زيت كبيرة توضع على نُضد الاستقبال.

وعندما بُني هذا الفندق في الستينيات، فإنه كان أحدث فندق في كابول. فسردهته كانت حافلة بالرجال الذين يلبسون بذلات أنيقة، وبالنساء اللابسات تنانير قصيرة، واللواتي هنّ من ذوات تصفيقات الشعر الحديثة. وكانت المشروبات تُقدّم على أنواعها مثلما تُعرّف الموسيقى الغربية. حتى إن الملك بنفسه كان يأتي إلى هذا المكان أحياناً ليتناول العشاء وليشارك في بعض المناسبات.

ففترة الستينيات والسبعينيات كانت تمثل أكثر فترات الحكم في كابول لسياسية: فقد جاءت أولاً فترة حكم زاهر شاه، ثم ابن عمه داود، الذي حُدّ من الحريات السياسية، وملأ السجون بالمساجين السياسيين، ولكنه أبقى على المستوى الظاهري، على الحفلات، وعلى أصاليب الحياة الغربية الحديثة. والمبنى يحتوي على مقاصف، وعلى نوادٍ ليلية. وعندما بدأت البلاد تتلاشى فإن الفندق تبعها في ذلك. أما أثناء الحسب الأهلية، فكاد يصيبه الدمار الكامل. فالغرف التي تواجه المدينة باتت منحورة بالرمصاص، والقذائف التي تتساقط على الشرفات، والصواريخ التي تخترق السقوف.

وبعد الحرب الأهلية، عندما استتبَّ الأمر لطالبان، فإن أعمال الترميم وتحديث الفندق قد استطل أمرها كثيراً. لقد كان هناك ثُدرة في النزلاء. وهكذا فإنه لم تكن هنالك من حاجة إلى الغرف المخطمة. ولم يأبه المالاي الحاكمون لأمر تطوير السياحة؛ بل على العكس من ذلك، فإنهم كانوا لا يرغبون سوى في أقل عدد ممكن من الأجناب في البلاد. لقد سقط السقف والتَوَّتِ الممرات تحت هيكل البناء الذي لم يعد وطيداً.

والآن، ولأن نظاماً جديداً يريد أن يترك بصمات سلطته فوق كابول، فإن العمل قد بدأ على سد ثغرات المبنى، وعلى إبدال زجاج النوافذ المخطم. ويقوم إيمال بمراقبة أعمال الترميم، أو يتابع باهتمام صراع الكهربائيين المغموم مع المولّد عندما يكون الإمداد بالطاقة الكهربائية ضرورياً من أجل تشغيل الميكروفونات ومكبرات الصوت أثناء الاجتماعات. قال "لوبيسي" هو الميدان الحيوي لإيمال فهو يتنوّض في مياهه، ويتحوّل في أنحائه. ولكن، وعلى وجه العموم، فإن الأمر لا يعلو أن يكون مضجراً بالكامل، وموحشاً تماماً.

وفي بعض الأحيان يقوم إيمال بالتحدث مع الناس في هذه القاعة الموحشة: يتكلم مع الرجال الذين يقومون بأعمال النظافة والكس، مع موظفي الاستقبال، مع البواب، مع رجال الحراسة، مع نزيل أو اثنين من النزلاء، ومع سواهم من أصحاب الأكشاك. وهم مثله، نادراً ما يكون لديهم زبائن. فأحدهم يبيع مجوهرات أفغانسية تقليدية من وراء نضد. وهو الآخر يقضي لماره ضجيراً. فالطلب على المجوهرات بين زبائن هذا الفندق ليس كبيراً. وثمة صاحب محل آخر يبيع التذكارات بأسعار لا يقبلها أحد ولا يعود إلى أهل بسببها مرة أخرى.

وكثير من واجهات المحال يغطيها الغبار، أو تكون هذه الواجهات محبوبة يستأجر من الواح الكرتون. "الخطوط الجوية الأفغانية، آيربانا"، عبارة مكتوبة فوق لوح زجاج مكسور. ففي يوم من الأيام كان لأفغانستان شركة خطوط جوية تمتلك العديد من الطائرات. وكان يخدم المسافرين على متنها مجموعة من الموظفين رفيعي المستوى، وكانت جميع المشروبات متوفرة على لائحة الطعام. وقد دُمّر عدد من الطائرات خلال الحرب الأهلية، أما ما تبقى منها فقد مُرّق إلى شظايا على يد الأميركيين خلال مطاردتهم لأسامة بن لادن، وللأسف عمر. طائرة واحدة نجت من القنابل؛ نجت لأنها كانت جاثمة في مطار نيودلهي في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وهذه هي الطائرة التي ستعيد بعث آيربانا؛ فهي لا تزال تطير من كابول إلى نيودلهي ذهاباً وإياباً، لكن طائرة واحدة ليست بكافية لإعادة فتح مكتب آيربانا في الفندق.

وفي طرف معين من الرواق يقع مطعم يقدم أسوأ طعام في كابول رغم أنه يوظف أفضل الشغل. ويبدو الأمر وكأن إدارة المطعم تريد تعويض زبائنهم عن الأرز الذي لا طعم له، وعن قطع الدجاج الجافة، وعن الجزر السيخ.

وفي وسط السرواق ثمة حجرة صغيرة تبلغ مساحتها بضعة ياردات مربعة. وهناك سياج خشبي يحدّد الحدود بين أرض اللوبيسي وبين المسجدة الخضراء المبسوطة في داخله. ويرى الضيوف، والوزراء، والمسؤولون الحكوميون، والخدم هناك جنباً إلى جنب، جالسين على السجاجيد الصغيرة الممدودة فوق المسجدة الخضراء. ففي الصلاة يتساوى الجميع. كما أن هنالك أيضاً قاعة أكبر مخصصة للصلاة في القبو، لكن معظم الناس يودون صلاتهم في

دقائق قليلة على هذه السجادة الممدودة بين مجموعتين من الكراسي والأرائك.

وعلى امتداد النهار، فإن جهاز التلفاز المنصوب فوق طارئة مستقلة في اللوبي، ثبت منه البرامج اللّعبة. فالتلفاز المذكور يقع مقابل كشك إيمال لبيع الشوكولا، لكنه نادراً ما يُبالي به. وتلفزيون كابول - القنال الأفغاني الأول والأخير - ليس فيه الكثير من البرامج الممتعة. فهناك البرامج الدينية، والنقاشات الطويلة، وبعض أشرطة الأنباء القليلة، والكثير من الموسيقى التقليدية على خلفية صور ساكنة تمثل المناظر الطبيعية لأفغانستان. وهذا القنال يوظف مذييعات أعجبار لكنه لا يعرض صوراً لمغنيات أو راقصات. "ليس الناس جاهزين لمثل ذلك بعد"، تقول الإدارة. وفي بعض الأحيان يجري عرض بعض أفلام الكرتون البولندية أو التشيكوسلوفاكية. ويخرج إيمال كالعادة لمشاهدة هذه الأفلام لكنه يُصاب بالخيبة عادة. عندما يكشف أنه كان قد شاهدها سابقاً.

وفي حراج الفندق يقع ما كان يوماً يعتبر مصدر فخر له، إنها بركة السباحة، لقد تم افتتاحها على وقع الطبول وخفق الأعلام في يوم صيفي صافٍ، وكل مواطن في كابول، أو بالأحرى أي ذكر فيها، كان يُرحّب به في ذلك الصيف. لكن بركة السباحة لقيت نهاية تيمسة. فالمياه تتحول فيها بسرعة إلى لون بني فاتح؛ إذ لم يكن أحد قد فكّر في أمر تركيب جهاز تنقية. وحيث إن البركة صارت تتسخ أكثر فأكثر، فإن الأمر قد آل إلى إغلاقها. فبعض الناس ادّعى بأنه قد أصيب بطفح جلدي، وبسواء من الأمراض الجلدية التي انتقلت إليه من بركة السباحة هذه. وانتشرت إشاعات تقول إن عدداً من الناس قد توفي بسبب هذه الإصابات، لذلك فإن البركة قد أفرغت مرة ولم يجرِ ملؤها، ولا استعمالها من جديد.

والآن، لمة طبقة سميكة من الغبار تغطي أرضيتها الزرقاء السماوية. وشجيرات الزهور العفواء المفروسة عند حوافها لا تشكل سوى محاولة عقيمة لتغطية قبح منظرها. وبحوار البركة هنالك قاعة لكرة المضرب. وهي ليست قيد الاستعمال أيضاً. وما زال دليل هاتف الفندق يُدرج رقم مدرب التنس. لكنه الآن محظوظ بالعثور على مهنة أخرى. فخدماته لم تكن مطلوبة كثيراً في هذا الربيع الأول من حياة كابول الجديدة.

* * *

وتتألف إمام إيمال من جولات مضطربة بين دكانه، وبين المطعم، وبين أثاث الردهة الشاحبة. وضميره يأبى عليه سوى أن يُبقي عينه على المحل، إذ لربما جاءه زبون. فمرة كان هنالك طلب شديد على المحل وكانت المواد تطلو عن الرفوف بسرعة. كان ذلك عندما هربت طالبان، فقد باتت ممرات الفندق إذًاك نعيمٌ بالصحافيين الذين عاشوا لعدة أشهر، مع جنود تحالف الشمال، يحافظون على بقائهم بتناول الأرز المستعفن والشاي الأخضر، وها هم الآن يملأون أحوافهم ببضائع إيمال من أمثال "سينكرز" و"باوتقي" المهربة إلى داخل البلاد، من باكستان. كان الصحافيون يشترون قارورة الماء بما يعادل الخمسة دولارات للقارورة الواحدة. وعلبة الجبن الطري المستديرة بمبلغ أربعة عشر دولاراً للعلبة الواحدة، وبقول الزيتون بما يعادل ثروة مقابل كل حبة فيه.

فالصحافيون لم يكونوا آبهين لأمر الأسعار لقد فتحوا كابول، وهزموا الطالبان. كانوا متسخين، وذوي لحى طويلة مثل الجنود القذائين أنفسهم، أما النساء منهم فكان يلبسن أزياء الرجال، ويتعلنن الأحذية الوسخة. فالعديد من هؤلاء كانوا من ذوي الشعر الأصفر، والبشرة الشقراء الزهرية.

وفي بعض الأحيان كان إيمال ينسرق إلى سطح الفندق حيث يرى المراسلين يتكلمون عبر ميكروفونات ضخمة في مواجهة الكاميرات. ولم يعد هؤلاء يشبهون الجنود الفدائيين. بل إنهم الآن قد اغتسلوا، وسرّحوا شعورهم. وصارت القاعة مليئة بأنواع غريبة من البشر، وجلّهم خفيف الدم، عجز ويتكلم مع إيمال. وكان إيمال قد تعلّم شيئاً من اللغة الإنكليزية في باكستان حيث إنه قد عاش معظم سنوات عمره كلاجئ هناك.

ولم يسأله أحد عن سبب وجوده خارج المدرسة. إذ لم تكن أي من المدارس مفتوحة في تلك الأيام. وهو يحسن عدّ الدولارات واستعمال الآلة الحاسبة، ويحلم بأن يصير تاجراً كبيراً. وكان فاضل معه. وكان الصبيان يراقبان العالم اللاعنيادي الذي غزا الفندق فجأة، بكل عناية، وبعينين مشدوهتين، بينما كانا يفرقان المال غرقاً. ولكن، وبعد مرور بضعة أسابيع، فإن رجال الصحافة ما لبثوا أن غادروا الفندق، ذلك الفندق الذي ينام العديد منهم في غرفه الخالية من الماء والكهرباء والشبائيك. لقد انتهت الحرب، وتمّ تنصيب قائد جديد، ولم تعد أفغانستان مكاناً مثيراً.

وعندما غادر الصحفيون، فإن الوزراء الأفغانيين الجدد للتعيين، وسكرتاريهم، ومساعدتهم، قد انتقلوا إلى الفندق: فمن رجال البشتون السمر القاديين من قندهار، إلى المنفيين العائدين من المهاجر في بدلاقم المنيطة حصيصاً لهم، إلى أمراء الحرب الذين حلقوا ذقونهم حديثاً، وقد ملأوا جميعاً أرائك هو الفندق. ولم يلق أحدهم أيّ بال نحو إيمال، ولا اشترى شيئاً من الأشياء المعروضة في دكانه. فلم يشتر واحد منهم قطعة من الـ "باونتي" مرة، وكانوا يشربون من الصنابير. ولم يكن أحدهم يسمح بتبديد أمواله لشراء بضائع إيمال المستوردة:

زيمتون إيطالي، وجبة فرنسية طرية تدعى "كيري". فكل طعام يتعدى الثمر، لم يكن ليغريهم بالشراء.

ومن وقت لآخر، كان صحافي أو سواه يجد نفسه في هذا الفندق من أفغانستان فيدخل إلى محل إيمان.

"ألا تزال هنا؟ لم تعد إلى مدرستك؟" هذا ما يسأله الصحفيون إياه.

"إنني أذهب إليها بعد الظهر"، هذا هو الجواب الذي يجيب به إيمان عن هذا السؤال، عندما يسأله إياه زائر من زوار الصباح.

"إنني أذهب إليها في الصباح"، يكون الجواب إلى من يسأله هذا السؤال في المساء.

لم يكن ليحسرو على الاعتراف أنه، أشبه في ذلك بمشتردي الشوارع، لا يذهب إلى المدرسة. ولأن إيمان ولد صغير غني؛ ووالده تاجر كتب، وأب شغوف بالأدب والتاريخ، وأب يعلم أحلاماً كبيرة، وعنده خطط كبيرة لإمبراطوريته القائمة على تجارة الكتب، لكنه أب لا يثق بأحد سوى بأولاده للقيام بالإشراف على محلاته، والد لم يأبه لأمر تسجيل أولاده في المدارس بعدما أعيد فتح أبواب تلك المدارس في كابول عقب احتفالات عيد النوروز، في الاعتدال الربيعي الأول. وكان إيمان قد التمس من أبيه أن يعيده إلى المدرسة، لكن سلطان بقي مصراً على موقفه: "إنك ستصبح تاجراً. وإن أفضل مكان لتعلم التجارة إنما هو في الدكان".

وصار إيمان على الدوام سيئ الصحة، قليل المرح أكثر فأكثر. لقد استحال وجهه شاحباً وجلده باهتاً. واحتودب جسمه الصغير وققد مسروته. كانوا يطلقون عليه لقب "الولد الكتيب". وعند عودته إلى البيت كان يتقاتل ويتجادل مع أخويه، إذ إن هذه هي طريقته الوحيدة

للتنفيس عن طاقته الحبيسة. وكان ينظر إلى ابن عمته فاضل بعين الغيرة والحسد. فقد دخل الأخير مدرسة الاستقلال، وهي مدرسة تلقى دعماً من الحكومة الفرنسية. فيها هو فاضل يرجع إلى بيته ومعه الدفاتر، وأقلام الرصاص، ومسطرة، وفنجان، ومبراة، ويكون الوحل يغطي بنطاله، وفي جعبته أحمال من القصص الطريفة.

"الولد الفقير اليتيم فاضل يستطيع الذهاب إلى المدرسة"، كان إيمال يشكو أمره لمنصور أخيه الأكبر. "لكن أنا الذي لي أب قد قرأ جميع الكتب في العالم، عليّ أن أعمل اثني عشرة ساعة في النهار. كان ينبغي عليّ أن ألعب كرة القدم، وأن يكون لي رفاق وأصدقاء يأتون إليّ"، يتابع شكواه.

وكان منصور يوافقه. فهو لم يحب أن يرى إيمال واقفاً في الدكان المعتم طيلة النهار. وهو أيضاً رجا سلطان أن يسمح لأصغر أبنائه بالذهاب إلى المدرسة. "سرسله في وقت لاحق"، قال الأب. "لاحقاً نرسله؛ أما الآن، فإن علينا أن نتعاون. فهذا هو الوقت الذي نضع فيه الأسس لإمبراطوريتنا".

وماذا يستطيع إيمال أن يصنع؟ هل يهرب؟ هل يرفض النهوض من فراشه في الصباح؟

وعندما يكون والده مسافراً، فإن إيمال يغامر بالخروج إلى خارج اللوبيسي؛ فهو يفلق باب دكانه، ويتمشى إلى مواقف السيارات لعل وعسى أن يجد أحداً يتحدث معه، أو رفيقاً يقذف وإياه حصاة. وفي أحد الأيام جاءه عامل إغاثة بريطاني. فهو كان قد وقعت عينه على سيارته فجأة، سيارته التي كانت جماعة الطالبان قد سرقتها منه. ولقد ذهب إلى الفندق باحثاً عنها. فثمة وزير، يدعى أنه قد اشتراها بطريقة قانونية، يملك الآن هذه السيارة. ومنذ ذلك الحين صار عامل الإغاثة يمر

على دكان إيمال. وصار إيمال يسأله على كيفية تقدّم الأمور بخصوص سيارته.

"حسناً، هل تصدق؟ لقد ذهبت السيارة ولن تعود إلي"، قال الرجل. "سارقون جدد حلّوا محل السارقين القدامى".

ونادراً ما كان يحصل أي شيء يكسر الرقابة، فيحتلّ اللوبيسي بالناس، بحيث يختفي صدى وقع الأقدام فيه عندما يتخذ إيمال طريقه نحو المراحض. مثلما حصل مرة عندما قُتل وزير الطيران. فمثلته في ذلك مثل سواه من الوزراء الآتين من خارج المدينة، جعل عبد الرحمن إقامته في الفندق. وخلال مؤتمر الأمم المتحدة في بون، المؤتمر الذي عُقد إثر فرار طالبان، وعندما صار لأفغانستان الآن حكومة جديدة جرى تشكيلها على عجل، فإن عبد الرحمن كان له ما يكفي من الدعم لتتمّ تسميته وزيراً. وكان أخصامه ينعنونه بأنه مستهتر ومحتال.

وقد حصلت تلك المأساة عندما ترك ألوف من الحجاج واقفين ينتظرون في مطار كابول بعد أن احتالت عليهم مؤسسة سفريات. لقد باعت تلك المؤسسة تذاكر سفر على متن طائرة وهمية. وكانت أميرانا قد استأجرت طائرة شارتر مكوكية إلى مكة، لكن لم يكن هنالك على متن رحلتها ما يكفي من المقاعد لإرهاب الجميع تقريباً.

ولقد شاهد الحجاج فحاة طائرة أميرانا تدرج على مدرج المطار فقاموا باقتحامها. لكن الطائرة لم تكن ذاهبة إلى مكة، بل كانت تقلّ وزير الطيران إلى نيودلهي. أما الحجاج المتشحون بتياب الحج البيضاء فقد مُسحوا من الدخول إلى الطائرة. وعندما صاروا في حالة غضب، فإلّهم ضربوا الطيار واندفعوا إلى داخل الطائرة حيث وجدوا الوزير

الذي كان في أوج راحته مع لفيف من مساعديه. ولم يتورّع الحجاج عن سحبه إلى الممر بين المقاعد وأوسعوه ضرباً حتى الموت.

وكان إيمال بين أوائل الذين عرفوا هذا الخبر. لقد باتت ردهة الفندق تغصُّ بالناس الذين يريدون معرفة التفاصيل. "وزير يضره الحجاج حتى الموت؟ من الذي يكون وراء هذه الحادثة؟".

وحيكّت نظرية عن المؤامرة تلو الأخرى. وكلها روايات كانت تصل إلى أسماع إيمال. "أتكون هذه بداية انتفاضة مسلحة؟ أيكون هذا عصياناً قُبلياً؟ أيريد الطاجيك القضاء على البشتون؟ هل هو حادث نأر شخصي؟ أم أن الأمر يتعلق بحجاج يائسين؟".

وفجأة صارت الردهة أكثر فظاعة من المعتاد. أصوات هادرة، وجوه قلقة، أناس مهتاجون، لقد انتابت إيمال رغبة في البكاء.

عاد إلى "الغرفة الرهيبة"، وجلس وراء نضده، وأكل قطعة من الـ "سنيكرز". إذ لا يزال أمامه أكثر من أربع ساعات قبل أن يحين أوان الصرافه.

قام عامل التنظيفات بكس الأرض وانتهى من إفراغ سلال المهملات.

"تبدو لي شديد الحزن يا إيمال".

"جيكار خون"، قال إيمال. أي: إن قلبي يعتصر ألماً.

"هل كنت تعرفه؟" سأله عامل التنظيفات.

"مَن؟".

"الوزير".

"لا"، قال إيمال. "أو بالأحرى نعم. أعرفه معرفة بسيطة".

بدا من الأفضل أن يكون قلبه يعتصر ألماً بسبب موت الوزير بدلاً من أن يكون ذلك بسبب طفولته الضائعة.

النجار

مركز منصور لاهناً إلى مكتبة والده. وهو يحمل طرداً صغيراً.

"متنا بطاقة بريدية"، يقول نافخاً. "لقد حاول أن يسرق مني بطاقة بريدية منا".

حيات من العرق تنسكب عن وجهه. لقد قطع القسم الأخير من المسافة جرياً.

"ومن هو؟" سألته أبوه. يضع آله الحاسبة فوق التضد، يدخل رقماً في دفتر الحسابات، وينظر نحو ولده.

"إنه النجار".

"النجار؟" يسأل سلطان، ذاهلاً. "أنت متأكد؟".

وبعجرفة، كما لو أنه قد أنقذه من عصابة مافيا خطيرة، يسلم الابن المغلف الأسمر إلى والده. "متنا بطاقة بريدية"، يكرر. "عندما كان على وشك المغادرة بدا وكأنه حجل مرتبك. لكن بما أن لهارة ذاك، كان هو الآخر، فإني لم أفكر أن الأمر يتعدى ذلك. وسألني عما إذا كان هنالك أي شيء آخر يمكن له أن يعمل من أجلنا. قال إنه في حاجة إلى العمل، فأجبته أنني سوف أسألك. فبعد كل شيء لقد انتهى

العمل بتركيب السرفوف. ثم وقع نظري على شيء ما، في جيب صدرته. 'ما هذا؟' سألته. 'ماذا؟' قال. وقد بدا عليه الارتباك. 'الذي في جيبيك؟' قلت له. 'هو شيء جلبته لنفسي'، قال. 'أرني إياه'، قلت له. رفض. وفي نهاية الأمر قمت بسحب المغلف من جيبه بنفسي. وهاكه أمامك لقد جرّب أن يسرق منا بطاقات بريدية. لكن خطته باءت بالفشل، فلقد كنت أراقبه جيداً".

ومنصور قد زخرف القصة إلى حدّ كبير. لقد كان يجلس وهو يغطّي نسومه كالمتعاد عندما كان جلال الدين على وشك المغادرة. فالحقيقة أن عبود، الولد الذي يقوم بالتنظيف، هو الذي أمسك بالنجار. لقد رآه عبود يأخذ البطاقات. "ألا تريد أن تري منصور ما يوجد في جيبيك؟" قال. لكن جلال الدين اكتفى بمتابعة سورة.

وهذا الولد الذي يقوم بالتنظيف فقير من عشيرة هزاره التي هي من أقلّ الإثنيات درجة في السلم الاجتماعي في كابول. وهو قلما تكلم. "أر منصور ما يوجد في داخل جيبيك"، نادى في أثر النجار. وعند ذلك فقط تفاعل منصور بسحب البطاقات البريدية من جيب جلال الدين، وها هو ذا الآن يصبو إلى نيل الاستحسان من أبيه. لكن سلطان يستمر في تصفّح رزمة الورق التي أمامه بهدوء، ويقول: "وأين هو الآن؟".

"أرسلته إلى منزله لكنني قلت له إنه لن يخرج من هذه الفعلة بسهولة".

ويبقى سلطان صامتاً، ويتذكر عندما جاء إليه النجار في مكتبته. فلقد كانا من القرية نفسها، وكانا عملياً جارين. وجلال

الدين لم يتغير منذ تلك الأيام فهو لا يزال غيبلاً كالعصا، وله عينان كبيرتان حائفتان بارزتان. بل لعله الآن قد صار أكثر نحولاً من ذي قبل. ومع أنه لم يتجاوز الأربعين من عمره فإن عموده الفقري قد بدأ بالانحناء. وعائلة جلال الدين فقيرة لكنها جيدة الاحترام. وكان والده أيضاً نجاراً، لكن نظره قد سبى منذ سنوات قليلة فلم يعد قادراً على العمل.

ووجد سلطان أن من دواعي سروره أن يقوم باستخدام جلال الدين فهو حاذق في عمله، وسلطان بحاجة إلى الرفوف الجديدة. فحتى الآن كانت الكتب لديه لا تزال ضمن منسوب التنوع العادي حيث يمكن ترتيبها بشكل مستقيم صعوداً ونزولاً مع جعل اسمها مقروءاً على عمودها الفقري. فهي على رفوف تحاذي الجدران، بالإضافة إلى عرصات الكتب المستقلة بذاتها، الموجودة على الأرض. لكنه الآن يحتاج إلى رفوف يمكنه أن يعرض عليها الكتب بطريقة صحيحة. أراد أن تكون لديه رفوف مائلة لها حافة رفيعة بحيث يمكن عرض غلاف الكتاب بكامله عليها أمام الناظر. وستبدو مكتبته أشبه بالمكتبات الغربية. لقد اتفقا على أجرة تبلغ خمسة دولارات أميركية في اليوم، وقد عاد جلال الدين في اليوم التالي ومعه شاكوش، ومنشار، ومسطرة، ومسامير، وبعض ألواح الخشب. وتحولت غرفة التخزين التي هي في آخر المكتبة، إلى ورشة نجارة لجلال الدين الذي يستعمل القشوم، ويعالج المسامير، طيلة النهار، تحيط به رفوف وبطاقات برديّة. والبطاقات السريديّة مصدر مهم لدخل سلطان. فهو يقوم بطباعتها في باكستان، لبيعها بربح كبير. وفي العادة، فإن سلطان يختار الصور التي يحبها، دون أن يفكر مرة في أي تعويض على المصور، أو على الرسام. فإذا وجد صورة، حملها إلى باكستان وقام بإعادة إنتاجها. وبعض المصورين

منحوه صوراً دون أن يطالبوه بأي نقود. لقد كانت البطاقات تباع جيداً، وأفضل زبائنه هم الجنود التابعون لقوات حفظ السلام الدولية. فعندما يكونون في دورية لهم في كابول، فإنهم يعرجون على مكتبة سلطان لشراء البطاقات البريدية: بطاقات تحمل صور نساء بلبس البوركاه وأطفال يلهون فوق الدبابات؛ ملكات من الأيام السالفة وهن لا يمسات الفساتين الجريفة؛ ثمائيل بوذا في باميان قبل، وبعد، أن تقوم طالبان بنسفها؛ حيول بوزكاشي؛ أطفال في الأزياء الوطنية التقليدية؛ مشاهد طبيعية برية، كابول في الماضي، وكابول اليوم. وكان سلطان حاذقاً في اختيار الصور. والجنود عادة لا يغادرون مكتبه إلا وكل واحد منهم قد اشترى دزينة من البطاقات.

والأجر اليومي الذي يتقاضاه جلال الدين يساوي في قيمته بالضبط قيمة خمس عشرة بطاقة بريدية. وفي الغرفة الخلفية كانت تلك البطاقات مخزنة. مئات البطاقات من كل صورة مخزنة في داخل الحفائب وفي خارجها، مع أربطة بلاستيكية، وبدون أربطة، في صناديق كرتون، وعلى الرفوف.

"نقول مثنى بطاقة"، قال سلطان مفتكراً. "أعتقد أن هذه هي المرة الأولى؟".

"لست أدري. لقد قال إنه كان عازماً على دفع ثمنها، لكنه نسي أن يفعل ذلك".

"أجل، إنه يستطيع أن يحاول جعلنا نصدق ذلك".

"لا بد من أن شخصاً ما، كان قد طلب منه الإقدام على سرقتها"، يقول منصور. "فهو ليس من الذكاء إلى درجة تسمح له ببيع هذه البطاقات ثانية. وهو بالتأكيد لم يقدم على سرقتها ليقوم بتعليقها على الجدار".

تسقط شتائم من فم سلطان. فوقته ضيق ولا يتسع لهذه الأمور. فقي غضون يومين عليه أن يسافر إلى إيران، وذلك للمرة الأولى منذ مدة طويلة. وهالك أشياء كثيرة ينبغي عملها، لكن عليه التعامل مع هذه المسألة قبل سواها. لا أحد أبداً يسرق من سلطان وينجو بجلده. "أبقى عينك على المكتبة وسأقوم بالذهاب إلى منزله. علينا أن نستقصي عن هذه المسألة حتى قعرها"، يقول سلطان. ويقوم باصطحاب رسول معه، رسول الذي يعرف النجار معرفة جيدة. وهكذا، ينطلق إلى قرية ديه سودايداد.

وتسحق السيارة طريقها في القرية متبوعة بسحابة من الغبار. ثم يصلان إلى المر الذي يقود إلى منزل جلال الدين. "تذكر، لا لزوم لأحد أن يعرف عن هذا الأمر شيئاً؛ ليس من الضروري للأسرة يكاملها أن يعلق العار بها". يقول سلطان مخاطباً رسول.

وفي دكان القرية الواقع عند زاوية، حيث المر يقود إلى منزل جلال الدين، تقف مجموعة من الرجال، ويكون في جملتهم فايروز، والد جلال الدين. يمشي هما ويشد على يد سلطان، ويقوم بمعاينته. "تفضلاً واشربا فنجاناً من الشاي"، يقول لهما بمحبة. إذ من الواضح أنه لا يعرف شيئاً عن البطاقات البريدية. والرجال الآخرون أيضاً يرغبون بالتحدث ببعض الكلام مع سلطان؛ فبعد كل شيء لقد لمض هذا الرجل بشؤون نفسه من لا شيء. وقد نجح في تحقيق شيء ما، في هذه الحياة.

"إننا لا نريد سوى مقابلة ولدك"، يقول سلطان. "أستطيع العثور عليه؟".

ينصرف الرجل المحزون، ويعود ومعه ابنه في إثره. وينظر جلال الدين إلى سلطان نظرة الخائف المرتعد.

"إننا في حاجة إليك في المحل؛ هل تستطيع مرافقتنا إلى هناك لفترة وجيزة؟" يقول سلطان. ويومئ جلال الدين بالموافقة.

"يجب أن نمر مرة ثانية لتشربا الشاي عندنا"، ينادي الأب في إثرهم.

* * *

"أنت تعرف سبب زيارتنا"، يقول سلطان بخفاف عندما يجلسان معاً في المقعد الخلفي من السيارة التي يقودها رسول. وهم الآن في طريقهم إلى منزل مردزجان شقيق وكيل، الذي هو شرطي.

"لقد أردت أن أشاهد تلك البطاقات فقط. وكنت أنوي إرجاعها. لقد أردت فقط أن أريها لأطفالي، إنها صور جميلة."

يجبن النجار في الزاوية، وتكون كتفاه مترنختين، وهو يحاول أن يجعل حجمه منكمشاً إلى أصغر قدر ممكن. ويجعل قبضتي يديه معقودتين معاً بين ساقه، ومن وقت لآخر يفرز أظافره في براجم أصابعه. وعندما يتكلم ينظر في سرعة وعصبية إلى سلطان، وهو أشبه ما يكون بفرخ دجاج أشعث مذعور. ويستلقي سلطان في مقعده، ويقوم باستجوابه في هدوء.

"أريد أن أعرف عدد البطاقات البريدية التي أخذتها."

"لم آخذ سوى البطاقات التي رأيتها."

"لا أصغتك."

"لأنني أقول لك الحقيقة."

"إذا لم تعترف أنك أخذت المزيد من البطاقات، فسأخبر البوليس عنك."

يلتقط النجار يد سلطان ويمطرها بالقبلات. يستعيد سلطان يده في سرعة.

"توقف عن هذا السلوك المسخيف؛ ولا تتصرف معي تصرف المعنوهين".

"أقسم لك بالله وبشرقي، إنني لم آخذ أي بطاقات سواها. لا ترمني في السجن، أرجوك، سادفع لك الثمن، إنني رجل شريف، سامحي، لقد كنت أحرق، سامحي، لدي سبعة أطفال؛ اثنتان من بناتي تشكون من شلل الأطفال، وزوجتي حامل لمرة جديدة، وليس لديها أي شيء تأكله. إن أطفالنا يتضورون جوعاً، وزوجتي تبكي كل يوم لأنني لا أكسب من الرزق ما يكفي لإطعامنا جميعاً. إننا نقتات على البطاطا والخضار المسلوقة لأننا لا نملك حتى ثمن الأرز. أمي تقوم باستمطاء الفضلات من المستشفيات والمطاعم. أحياناً يكون هنالك بعض الأزر السلوك الذي يمكن توفيره. وأحياناً يتبين أن المطاعم قد قامت ببيع الفضلات للسوق. وفي الأيام الأخيرة الماضية لم يتوفر لنا حتى الخبز. وإنني أيضاً أطعم أطفال أختي الخمسة، فزوجها عاطل عن العمل، وإنني أعيش مع والدي العجوزين، ومع جدتي".

"إن الخسار متروك لك. اعترف أنك قد أخذت المزيد توفّر على نفسك دخول السجن"، يقول سلطان.

لكن النقاش يظل يراوح في حلقات تدور على نفسها. النجار يبعي فقره، وسلطان يريد منه الاعتراف بسرقة المزيد من البطاقات. كما أنه يريد أن يعرف لمن كان يقوم ببيعها.

عبروا كل مدينة كابول، حتى خرجوا منها إلى الريف مرة ثانية. ورسول يقود السيارة بمحاذاة طرقات موحلة، وبين الأناس المستعجلين للوصول إلى منازلهم قبل هبوط الظلام. وثمة بعض الكلاب الشاردة التي تتقاتل على عظمة. ويتراكم الأطفال بأقدام حافية. وثمة

امرأة متلفعة بالبوركا توازن نفسها فوق جسر دراجة هوائية يقودها زوجها، وثمة رجل عجوز يناضل لدفع عربة محملة بالبرتقال؛ وتفرق قدماء في الأخاديد الطينية التي تسببها المطر خلال الأيام الأخيرة. لقد تحول الطريق الترابي الجاف إلى شريان للبراز، والقمامة، وفضلات الحيوانات؛ وكلها دفعت بها المطر الغزير دفعاً إلى الطريق، آتياً بها من الأزقة.

ويتوقف رسول أمام بوابة. ويسأله سلطان أن يذهب ويقرع الباب. ويخرج مردزجان لتحتيتهم جميعاً، ويدعوهم إلى الدخول. وعندما يطأ الرجال الدرج صعوداً، فإنهم يسمعون الخشخشة الهادئة لتنانير النساء. فتساء البيت يختبئ. بعضهن يقفن وراء باب نصف مفتوح، وبعضهن يختبئن خلف الستائر. وثمة طفلة صغيرة تنظر غلسة من خلال شق في الباب لترى من يمكن أن يكون هذا الزائر في ساعة متأخرة من النهار. فخلا عن أفراد العائلة لا يجوز لأحد أن يلقي نظره عليهن. فالصبية الكبار يقومون بإحضار الشاي الذي تقوم بإعداده الأم والأخوات في المطبخ.

"حسناً"، يقول مردزجان الذي يجلس متربعا، لابساً زي التونيك التقليدي فوق سروال منفتح الساقين، وهو اللباس الذي ألزمت طالبان جميع الرجال بلبسه. ومردزجان يحب هذا الزي. فهو قصير القامة وسمين، ويمجد راحة في الثياب الفضفاضة. والآن عليه أن يلبس لغاية العمل زياً لا يحبه كثيراً، إنه اللباس الرسمي القديم للبوليس الأفغاني، قبل بحسب طالبان. فبعد تعليقه في خزانة الثياب لعدة سنوات، بات هذا اللباس ضيقاً على صاحبه نوعاً ما. كما أنه أيضاً ثقيل جداً، كما لو أنه لباس مخصص للشتاء فقط، فهو مصنوع من المعزونات الباقية المنسوجة عالياً. فهذه الأزياء مصنوعة قياساً على نموذج روسي، وهي تصلح

لسيرها أكثر مما تصلح لكابل. ومردزجان يتعرق في طريقه إلى عمله خلال أيام الربيع عندما تصل الحرارة إلى خمس وثمانين درجة (مهرغايث).

ويقوم سلطان بشرح سبب الزيارة في سرعة. ويدعهم مردزجان يشكلمون كسل بدوره. كما لو أن كلامهم يُعرض للمطابقة. يجلس سلطان إلى جانبه، ويجلس جلال الدين في مقابله. ويومئ مردزجان برأسه متابعاً، فاهماً، محافظاً على سلوك سهل غير متشدد. ويقدم الشاي إلى سلطان وجلال الدين، كما يقدم لهما حلوى الطوفي المصنوعة بالقشدة، بينما هما يتحدثان أحدهما إلى الآخر.

"لمصلحتك أنت بالذات، ومن الأفضل لك، حل هذه المسألة برمتها، بدلاً من الذهاب إلى البوليس الحقيقي". يقول مردزجان.

يُطرق جلال الدين في الأرض معتصراً يديه، ويتأني باعتراف، ليس لسلطان، بل لمردزجان. "ربما أكون قد أخذتُ خمسة بطاقة. لكنها كلها موجودة في البيت. وسوف أقوم بردها جميعاً. لأنني لم ألسها".

"حسناً، فأننا ما كنت لألسها لو كنت مكانك"، يقول الشرطي.

لكن سلطان لا يكتفي بذلك. "إنني متأكد أنك قد أخذت أكثر من ذلك بكثير. قل لنا الآن إلى من قمتَ ببيعها؟".

"إن من مصلحتك أن تعترف بكل شيء الآن"، يقول مردزجان. "إذ لو وصل الأمر إلى الاستجواب أمام البوليس، فلن يكون الحال هادئاً كما هو الآن، ولن يقدم لك هناك لا الحلوى، ولا الشاي"، يقول بطريقة مبهمه وهو ينظر إلى جلال الدين.

"لكن هذه هي الحقيقة الكاملة. إنني لم أقم ببيعها، أقسم بالله. وأؤكد لكما"، يقول هذا مقلداً نظره من واحد لآخر. لكن سلطان يبقى على إصراره، ويكرّر كلماته نفسها؛ لقد حان الوقت للذهاب إلى البيت. فكل من تجرّي مصادفته خلال ساعات منع التحول يُلقى القبض عليه. حتى إن بعض الأشخاص قد قُتلوا لأن الجنود شعروا بالخطر بسبب السيارات المارة.

ركبوا السيارة بصمت. ويطلب رسول من النجار قول الحقيقة "وإلا فإن هذه المسألة ستوسّع وتمتد يا جلال الدين"، يقول له. وعندما يصلون إلى منزل النجار يدخل ليحضر لهما البطاقات البريدية. يعود بسرعة ومعه رزمة صغيرة من البطاقات الملفوفة في شال عليه نقوش صفراء وبرتقالية. يفتح سلطان الرزمة ويظهر إلى صوره بإعجاب بعد أن عادت إلى مالكها الصحيح الذي سيعيدها إلى رفوفها. لكنها يجب أن تُستعمل أولاً كدليل على حصول السرقة. يوصل رسول سلطان إلى بيته. ويبقى النجار واقفاً بوجه ذليل عند المنعطف الذي يقود إلى بيته.

* * *

أربعمئة وثمانون بطاقة. يجلس إقبال وإيمال على البساط يعدّان. وسلطان يحاول أن يقدّر كم هو عدد البطاقات التي قد يكون النجار اختلسها. والبطاقات تصوّر مناظر مختلفة. "ففي الغرفة الخلفية ثمة مئات فسوق مئات منها. فلو اختفت رزمة بكاملها، سيكون من الصعب الانتباه إلى اختفائها. ولكن إذا اختفى فقط دزينة تقريباً من عدد من الرزم فإنه من المحتمل أن يكون قد فتح قليلاً من الرزم وأخذ القليل من السبّاقات من كل منها"، يعلّل سلطان ويخمن. "علينا أن نتابع العدّ في الصباح".

* * *

وفي صباح اليوم التالي يقومون بمطابقة العد، ويتبدى لهم النجار واقفاً بطريقة مفاجئة عند الباب. ويبقى ملازماً العتبة ويبدو منكس الرأس أكثر من ذي قبل. ثم يندفع فجأة إلى سلطان ويبدأ بتقبيل قدميه. يسحب سلطان عن الأرض ويقول له بصوت صافر بطيء، "للم شتات نفسك أبها الرجل. فإن مسكتك لا تفيدني بشيء".

"ساعني، ساعني، سأعوض عليك، سأعوض عليك، لدي أطفال جياع في بيتي"، يقول النجار.

"إنني ما زلت على كلامي الذي قلته لك بالأمس. لا أريد منك نقوداً، لكنني أريد أن أعرف لمن قمت ببيع البطاقات. وكم هو عدد البطاقات التي أخذتها؟".

ويكسون فايز، والد جلال الدين، العجوز، حاضراً هنا كذلك هذه المرة، وهو أيضاً يحاول أن يخرج إلى الأرض لتقبيل قدمي سلطان، لكن سلطان يمسك به قبل أن يصل إليهما؛ فهو لا يرغب بأن يرى أحداً يقبل حذاءه خاصة عندما يكون هذا الإنسان جاراً محوزاً.

"يجب أن تعلم أنني قد أمضيت الليل كله وأنا أضربه. إنني شديد التحمل. لقد رتيته ليصبح عاملاً أميناً شريفاً، والآن... ها هو ولدي اللص". يقول فايز هذا الكلام ويحدج ابنه الذي يجبن متراجعاً إلى الزاوية. النجار المحدود يبدو كطفل صغير سرق وكذب وهو على وشك أن يضرب على قفاه.

ويغمر سلطان فايز همدوء عمّا حدث، وأن جلال الدين قد أخذ البطاقات معه إلى منزله، وأنه يريد منه الآن أن يخرج كم هو عدد البطاقات التي أخذها وإلى من قام ببيعها.

"أمهلي يوماً واحداً وسوف أجعله يعترف بكل شيء. إذا كان هناك المزيد مما لم يقله بعد"، يقول فايز راجياً، يبدو الحذاء الذي ينتعله فايز بالياً، وليس في قدميه جوربان، أما بنطاله فمشت إلى حصره بقطعة من الشريط. أما كمّ السترة فلماعتان. وهو له هيئة ابنه نفسها ما خلا أنه أكثر سُمةً وأصغر حجماً، وأكثر تحدياً. فكلاهما نحيلان وهشّان، ويقف الأب أمام سلطان ساكناً. وسلطان نفسه لا يعلم ماذا عليه أن يفصل أيضاً. فهو يشعر بالارتباك في حضور هذا الرجل العجوز الذي قد يكون في مقام والده.

أخيراً يتحرك فايز. فيمشي بإذعان إلى خزانة الكتب التي يقف قريبا ولده. ومثل لمح البصر ترتفع ذراعه في الهواء، وهناك وفي داخل المحل يقوم بصقع ولده. "أيها النذل الحقير الذي لا يساوي شيئاً، إنك عار على عائلتك، ليتك لم تولد، أيها الخاسر المحتال"، يكي الوالد فيما هو يرفس ولده ويضربه. فهو يغرر ركبته في بطن ابنه ويرفس بقدمه خصيتيه ويضرب بقبضتيه ظهر جلال الدين الذي يكتفي بالوقوف حاني الظهر، يحمي صدره بلراعيه، بينما ينحني أبوه فوقه. لكنه يُفلت فجأة ويهرب إلى خارج المحل. يصبح في الخارج بثلاث خطوات طويلة فقط، ويختفي في أسفل الدرجات مندفعاً إلى الشارع.

تبقى قبة فايز المصنوعة من جلد الخروف ملقاة على الأرض. لقد سقطت منه في وطيس المعركة. يلتقطها، يثبتها من جديد فوق رأسه. يقف. يودّع سلطان. وينصرف. ومن خلال الزجاج، ينظر إليه سلطان كيف هو يترنح نحو دراجته الهوائية القديمة، فيظر بمنة ويسرة ويركب دراجته وينطلق بها هدوء قافلاً نحو قريته.

وبعدما ينجلي غبار هذا المشهد المربك، يعود سلطان إلى متابعة العسة. فهو لم يرف له جفن. "لقد عمل هنا مدة أربعين يوماً. لنفترض

أنه كان يأخذ مئتي بطاقة في كل يوم، هذا يجعل الرقم ثمانية آلاف بطاقة. إنني متأكد أنه قد سرق ثمانية آلاف بطاقة على الأقل"، يقول بينما هو ينظر إلى منصور الذي يكفي بتحريك كتفيه. لقد كان أمراً موحجاً مراقبة النجار المسكين وهو يتعرض للضرب على يد والده. ومنصور لا يهتم كثيراً أمر هذه البطاقات البريدية، وهو يعتقد أن عليهم نسيان هذا الموضوع اللعين بكامله بعد أن تمكنوا من استرجاع البطاقات. "إنه لا يملك الجراءة الكافية ليقوم ببيع البطاقات! انس هذا الموضوع"، يقول لأبيه برحاء.

"ربما يكون قد فعل كل ذلك بناء على طلب أحدهم. فأنت تعرف أصحاب تلك الأكشاك الذين درجوا على بيع البطاقات البريدية لمصلحتنا. وبعض هؤلاء لم يشتري منا أي شيء، منذ بعض الوقت. وكنت أظن أنهم قد اشتروا كميات كافية منها، ولكن من الممكن أنهم قد اشتروا بطاقات بريدية رخيصة من النجار. وهو غبي بما يكفي لبيعها لهم مقابل أغنية. ماذا تعتقد؟".

بهز منصور كتفيه مرة ثانية. فهو يعرف والده ويعرف أنه لا يقبل سوى أن يلاحق كل الأمور حتى النهاية. كما أنه يعرف أن والده سيحيل هذه المهمة إليه هو. فوالده مسافر إلى إيران، وسيبقى هناك لمدة شهر.

"ماذا لو قمت أنت ومرفزان بإجراء بعض التفتيشات بينما أكون أنا ما زلت غائباً؟ فالحقيقة ستظهر. لا أحد يمكنه أن يسرقني"، يقول مركزاً النظر نحو منصور. "كان بإمكانه أن يدمر كل تجارتي"، يقول. "نصوّر فقط أنه يسرق آلاف البطاقات البريدية ويقوم ببيعها إلى الأكشاك والمكبات في جميع أنحاء كابول. فيقومون هم ببيعها بسعر منافس جداً لأسعاري فيبدأ الناس بالتحول إليهم بدلاً مني. وبذلك

سأفقد جميع زبائني من الجود الذين يشترون البطاقات؛ كما سأفقد جميع الزبائن الذين يشترون الكتب أيضاً. وسأكتسب سمعة رديئة بأنني أبيع بأسعار هي أعلى من أسعار أي شخص آخر. وفي نهاية الأمر سوف أشرف على الإفلاس".

يُصغى منصور إلى توقعات والده بالخراب يُصَف سمعه. فهو غاضب ومحتاج لأنه قد أعطي مهمة أخرى ليقوم بها أثناء غياب أبيه. فبالإضافة إلى ضرورة قيامه بتسجيل جميع الكتب، وباستلام طرود الكتب الجديدة المرسلة إليهم من أصحاب المطابع في باكستان، وبتصريف جميع الأعمال الروتينية التي تترتب على كون المرء مالِكاً لمكتبة في كابول، والعمل كسائق، بالإضافة إلى فتح محل بيع الكتب الذي يختص به، وما هو الآن يأخذ دور مفتش الشرطة أيضاً.

"سوف أهتم بذلك الأمر"، يقول فوراً. فهو لا يحسن أن يقول شيئاً سوى ذلك.

"لا تكن لئسناً، لا تكن متساهلاً"، كانت هذه آخر كلمات سلطان قبل توجهه إلى طائرة المساء المسافرة إلى طهران.

* * *

وفور مغادرة والده، نسي منصور الأمر كله. ففترة الروع المسافق التي أعقبت زيارته إلى المزار الشريف قد انقضت حقيقةً وفعلاً. فهي لم تَدُم سوى لمدة أسبوع واحد بالضبط. ولم يتحسن فيه شيء بعد قيامه بالصلاة خمس مرات في اليوم. أما لحيته التي أطلقها فلما بدأت تشعره بالحكاك، وكان كل مَنْ ينظر إليه يخبره بأنه يبدو أشعث. وهو لم يُعجبه منظر نفسه في ثوب الـ "تونيك" التقليدي الفضفاض. "إذا كنت لا أستطيع التفكير بالأفكار المباحة،

فإنني أستطيع أيضاً نسيان الأمر كله". قال لنفسه مُعفياً إياها من التقوى والورع بالسرعة التي كان قد ابتدأ معه الأمر كله. فالزيارة لم تكن سوى رحلة استحمام.

ففي المساء الأول الذي أعقب غياب والده، تلقى منصور دعوة من رفيق له إلى خارج المنزل. وعدهما بالذهاب، غير عارف بأنهما قد اشترى بعض المشروبات الأوزبكية والأرمنية بأسعار باهظة من السوق السوداء. "هذه هي أفضل المشروبات التي يمكن أن تتوفر"، قال لهما البائع المتجول، فدفع الصبيان مبلغ أربعين دولاراً أمريكياً مقابل كل زجاجة. فمعظم زبائنه كانوا من الصبية الصغار الهاربين من رقابة أهلهم الصارمة إلى أحضان الشراب حتى فقدان التوازن. ولم يكن منصور قد ذاق شراباً من قبل، فالشراب مادة شديدة التحريم في الإسلام. وفي وقت مبكر من المساء يبدأ رفيقا منصور بالشراب. ويقومان بخلط أشربة مختلفة معاً، وبعد وقت قصير تدرجهما الأرض في غرفة الفندق مقفلة الستائر التي كانا قد استأجراها تخافاً لغضب الأهل. وكان منصور لم يأت للانضمام إليهما بعد، إذ عليه أولاً أن يوصل أخويه إلى البيت. وعندما أتى منصور إلى رفيقه إذ به يجدهما في هرج ومرج وصباح وكل منهما يريد القفز عن الشرفة.

بعد أن شهد منصور هذا المشهد أخذ على نفسه عهداً ألا يقارب الشراب. فإذا كان هذا ما يفعله الشراب برفيقه، فلا بدّ من أن يلقي هو المصير نفسه إن لم يرتدع.

لا أحد يستطيع النوم في منزل جلال الدين فالأطفال يضطجعون على الأرض ويتمحبون بصمت. لقد كانت الساعات

الأربع والعشرون الماضية من أسوأ ما مرّ عليهم من قبل: فهم يشهدون والدهم وهو يتعرّض للضرب من جدهم الذي يناديه بـ: البص. وكل أشياء البيت قد انقلبت رأساً على عقب، وفي فناء الدار يتمشى والد جلال الدين في دوائر لا تنتهي. "كيف يمكن أن يكون لي ولد مثل هذا، يجلب العار لعائلته كلها؟ ماذا جئيت ليحدث لي ذلك؟".

والابن البكر، المنكود، يجلس على الحصيرة في البيت المكون من غرفة واحدة. وهو لا يستطيع أن يستلقي على الأرض لأن ظهره مغطى بالسندوب الدامية بعد تعرّضه على يد والده للضرب بواسطة هراوة غليظة. لقد عاد الاثنان إلى البيت بعد الضربات التي تلقاها الابن في دكان الكتب. وصل الأب أولاً راكباً دراجته، ثم تلاه الابن ماشياً بمحتاراً الطريق الذي يخترق المدينة بكاملها. وقد تابع الأب ما كان قد بدّاه مع ابنه في المحل، ولم يبدِ الابن أي مقاومة. فبينما كان الضرب ينهال على ظهره، والشنائم تنصبّ فوق رأسه وكفيه، فإن بقية أفراد العائلة كانوا يكتفون بالمراقبة في ذعر. ولقد حاولت النساء إخراج الأطفال بعيداً ولكن لم يكن ثمة مكان آخر للذهاب إليه.

فالبيت مبني حول باحة مكشوفة، وأحد جدرانه يحاذي الشارع وعلى طول الجدارين الآخرين توجد مصاطب تقع خلفها غرف لها شبائيك كبيرة مغطاة بمشمعات تقابل الباحة؛ غرفة للنحار وزوجته وأطفاله السبعة؛ وغرفة لأبيه وأمه وجدته؛ وغرفة لأخته وروجها وأطفالهما الخمسة؛ وغرفة للطعام؛ ومطبخ فيه تنور في جوف الأرض رموقد برعوس وبعض الرفوف.

وينام أطفال النجار، كل على وطء مصنوع من خليط من الخرق وفضلات القماش، حتى إن بعض أجزائه مرّمم بقطع الكرتون

والبعض الآخر مُرَّمم بقطع البلاستيك أو الخيش. والابتتان المصابتان بهشل الأطفال توضع كل واحدة منهما جيرة معدنية على ساقها الكسبية وتستعمل عكازاً يُسند إلى تحت الإبط. أما بقية الأطفال فيعانون من طفرة أكزيميا من النوع الخبيث؛ فهم يحكّون البثور الدامية على الدوام.

وبينما نركب العفاريث رأسي رفيعي سلطان في جولة جديدة، يكون أطفال النجار، على المقلب الثاني من المدينة، قد استسلموا للرقاد.

وعندما يستفيق منصور في صباح اليوم الأول الذي تلا سفر والده، فإن لمة شعور غامر بالحرية يجتاحه. فها هو الآن حرّاً يضع نظارته الشمسية التي كان قد اشتراها إبان زيارته إلى المزار الشريف، ويمزق شوارع كابول تمزيقاً بسيارته في سرعة 60 ميلاً في الساعة، ماراً بمحاذاة حمر محملة، وقطعان ماعز متسخة، ومتسولين، وجنود ألمان انضباطيين. ويمدّ إصبعاً في الهواء باتجاه الألمان بينما سيارته تقع وتقوم في الحفر الموجودة على الطريق. لذلك فهو يلعن ويسب، وينطق لسانه بالشتائم بينما المشاة يتفافزون أمام سيارته. ويترك وراءه كل حسي من أحياء كابول المكونة من موزاييك مخير من الخراب المسخورة بالقذائف والقنابل، والمليئة بالبيوت المنهارة، ليدخل في حي آخر شبيه به.

"إن عليه أن يتحمل عواقب عمله، هذا هو تقويم الأخلاق"، كان سلطان قد قال. يُقلب منصور بوجهه في سيارته متهكماً. من الآن فصاعداً، يستطيع رسول أن يحمل الحقائق، وأن يُسلم الرسائل؛ ومن الآن فصاعداً على منصور أن يدلّل نفسه إلى أن يعود والده. فعلا عن

نقل أخويه إلى عملهما في كل صباح حتى لا يشيا به، فإنه لن يقوم بعمل أي شيء. فالشخص الوحيد الذي ينجشاه منصور هو أبوه. ففي حضوره لا يجرؤ حتى على الاحتجاج؛ فهو الشخص الوحيد الذي يحترم ويوقر، ما دام حاضراً على الأقل.

وهدف منصور هو التعرف على فتيات. فهذه مسألة ليست يسيرة في كابول، حيث تقوم معظم العائلات بحراسة بناتها كما يحرس الكنز. وتأتيه فكرة بارعة مفاجئة، فينضم إلى دورة طارئة لتدريس اللغة الإنكليزية للمبتدئين. فلغة منصور الإنكليزية جيدة نتيجة للدراسة التي تلقاها في باكستان، لكنه يحل بأنه لا بد له من أن يجد أصغر وأجمل الفتيات في صف المبتدئين. ولم يكن مخطئاً في ذلك، فبعد انقضاء الدرس الأول كان نظره قد وقع على الفتاة التي فضلها على سواها. وهو يحاول بحذر أن يتحدث إليها. ومرة فإنها حتى سمحت له بأن يوصلها في سيارته إلى بيتها. وبطلب منها المجيء إلى مكتبته لكنها لا تفعل ذلك أبداً. وفي أحد الأيام تتوقف الفتاة عن حضور صف اللغة الإنكليزية. ولا يستطيع منصور الاتصال بها. ويفتقدها. لكة يشعر أولاً وقبل كل شيء، بالأسف عليها لأنها توقفت عن المجيء؛ إذ إنها كانت شديدة الرغبة بتعلم اللغة.

وتتسنى طالبة اللغة الإنكليزية بسرعة. إذ لا شيء حقيقي، ولا شيء دائم في حياة منصور، في هذا الربيع. ومرة يُدعى إلى حفلة عند أطراف كابول. إذ إن بعض معارفه قد استأجروا بيتاً. ومالك البيت يقف حارساً لهم أمامه في الحديقة.

"لقد دخنوا عقرباً بحمفاً"، يخبر منصور صديقاً له في اليوم التالي بحملاس. "لقد سخنوه ليصبح مسحوقاً ناعماً ثم مزجوه بالتبغ وصاروا في مزاج عالٍ، لكنه مزاج غضوب قليلاً"، يتابع منصور الكلام مباهياً.

ثم وفي أحد الأيام يرسل سلطان رسالة تقول بأنه سيكون في البيت في اليوم التالي. ويتزع منصور نفسه فوراً من حياة التسمم. فهو لم ينحز أي شيء من الأشياء التي طلبها منه أبوه. فهو لم يفهرس الكتب، ولم يترتب الغرفة الخلفية، ولم يجهز الطلبات الجديدة، ولم يستلم صناديق الكتب التي تكومت الآن في مستودع السقل. حتى إنه لم يصرف دقيقة في التفكير في مسألة التجار والتجربات حوله.

وشريفة لا تنفك تشاجر معه. "ما عخطبك يا بني، أنت مريض؟".

"لا ليس بي شيء"، يقول لها متفاخراً.

لكنها تتابع مناكדתه. "أغلق فمك الذي يشبه المرحاض وعودي إلى باكستان". يصرخ منصور في وجهها. "منذ أن رجعت إلى هنا، تحول كل شيء إلى عراب".

تبدأ شريفة بالبكاء. "كيف يمكن أن يكون أولادي هكذا؟ ماذا جئت حتى صاروا لا يطيقون وجود أمهم معهم؟".

تصبح شريفة وتولول في وجه أبنائها؛ وتبدأ لطيفة بالبكاء. وتتمايل يميني غول من جانب لآخر؛ وتحلق بليلة في الفضاء. وتحاول صونيا قذلة لطيفة، وتتابع ليلي أعمال الفسيل. وتصفيق منصور الباب ويدخل إلى الغرفة التي يشترك فيها مع يونس. ويكون يونس في سرير يشتر، فهو مصاب بالتهاب الكبد الوبائي، ويلزم السرير طيلة يومه مبتلياً العقاقير. فعيناه صفراوان، وهو يبدو شاحباً وحزيناً أكثر من أي وقت مضى.

وعندما يعود سلطان في اليوم التالي، فإن منصور يصبح شديد التوتر، ويحتب النظر إلى عيني والده النفاذتين. لكنه لا يحتاج إلى أن

يكون شديد القلق في كل حال، لأن سلطان يصب الآن معظم اهتمامه على صونيا. وفي اليوم التالي فقط، وعندما كانا في المكبة، فإن سلطان سأل ولده عما إذا كان قد فعل كل ما طلب منه فعله. وقبل أن يتسنى لمنصور الوقت الكافي للجواب، كان والده قد شرع في إصدار تعليمات جديدة له. فرحلة سلطان إلى إيران كانت بالغة النجاح. فقد أعاد وصل ارتباطاته مع عملائه التجاريين القدامى، وقرىباً جداً ستصل الكرتونة تلو الأخرى من الكتب الفارسية إلى كابول. لكن شيئاً واحداً لم ينسه: قضية النجل.

"ألم تكتشف شيئاً بعد؟". يحملق سلطان في ابنه مندهشاً. "أنقوم بإحباط سعيي؟ غداً عليك أن نذهب إلى الشرطة وتبلغ عنه. لقد قال أبوه إنه سيسلمني اعترافه في غضون يوم واحد، وها هو الآن قد انقضى شهر على ذلك! وإذا وجدت أنه لم يودع بعد في السجن عند عودي من باكستان، فلن تكون ابني"، يقول مهزداً. "فكل من يسرق أشياءي لن يعرف السعادة بعد ذلك أبداً"، يقول بلهجة منكرة بالسوء.

* * *

وفي الصباح التالي، وقبل انجلاء العتمة، تأتي امرأتان تحملان طفلين، وتقرعان باب عائلة خان. وتفتح ليلى الباب متكاسلة. وتصرخ المرأتان ونعولان، وبعد برهة تترك ليلى أنهما جدة التجار وعمته وقد جاءتا بطفليهما.

"نرجوكم سامحوه، سامحوه نرجوكم"، تقولان. "نرجوكم سامحوه بحق الله"، تبكيان. والجدة العجوز تناهر التسعين من عمرها وهي ضعيلة المحجم، ذابلة، ولها وجه يشبه وجه الفأر. إذ لها ذقن حاد شعرائي. إنها جدة النجار لأبيه، وهي التي كانت تحاول استتباط الحقيقة من حفيدها خلال الأسابيع الماضية.

"ليس عندنا شيء نقتات به؛ إننا نتضور جوعاً، انظروا إلى هذين الطفلين. إننا سعوّض عليكم ثمن البطاقات البريدية".

وتسألها ليلي الدخول. وترمي الجدة العجوز جردونية الشكل نفسها على أقدام نساء العائلة اللواتي كنّ قد استفقن على العويل، فدخلن إلى الغرفة. وهنّ يظهرن في ارتباك شديد أمام هذا البؤس الذي تسلل إلى هذا البيت مثل هبة من الهواء البارد. وقد أحضرت المرأتان معهما طفلاً ذكراً في عامه الثاني، كما أحضرتا إحدى البنيتين المصابتين بشلل الأطفال. وتجلس الطفلة الشلاء على الأرض بصعوبة كبيرة. فساقها النحیسة، المصابة بالشلل، والتي تنطبق عليها قضبان الجبيرة المعدنية، تعلق تحتها، وهي تجلس بسكينة ووقار، وتستمع إلى النقاش من حولها.

لم يكن جلال الدين في البيت عندما داهمه البوليس، لذلك فلم أحزنوا والده وعمه بدلاً منه. وقد قالوا بأنهم سيعودون في الصباح التالي لأخذ جلال الدين. ولم ينم أحد طيلة الليل. وفي الصباح الباكر، وقبل أن يعود رجال البوليس، شرعت المرأتان المستتان في طريقهما لاستجداء رحمة سلطان، وعفوه، وذلك بالنيابة عن بقية أفراد العائلة.

"إذا كان قد سرق أي شيء، فإن ما دفعه إلى فعل ذلك هو إنقاذ عائلته. انظرون إليهما، انظرون إلى الطفلين، إنهما نحيلان كعصوين. ليس لديهما ثياب مناسبة، وليس لديهما ما يأكلانه".

والقلوب في مايكرورايون تذوب شفقة، لكن الزهارة لا تؤدي إلى أي تسبحة سوى استنرار الشفقة. فعندما يكون سلطان قد قرّر أمراً، فلا يعود يوسع نساء عائلة خان القيام حيال ذلك بأي شيء. خاصة عندما تتعلق المسألة بشؤون المكتبة.

كان بودنا "أن نساعدكما، لكن ليس بوسعنا عمل أي شيء. فسلطان هو الذي يقرر"، تقول النسوة للمرأتين. "وسلطان غائب عن البيت".

وتستمر المرأتان في العويل والنحيب. فهما تعرفان أن هذا الكلام صحيح، لكنهما لا تستطيعان إسقاط الأمل. تدخل ليلي وهي تحمل البيض المقلي والخبز الطازج وتقدمهما للمرأتين. وتحضر أيضاً الحليب المغلي للطفلين. وعندما يأتي منصور إلى الغرفة تندفع المرأتان وتقبلان قدميه، لكنه يركلهما بعيداً عنه. وهما تعرفان أنه بوصفه بكر أبيه، يحسك بزمام السيطرة أثناء غيابه. ولكن منصوراً كان قد قرر أن يفعل ما طلب منه أبوه أن يفعل.

"منذ أن صادر سلطان عدته فإن جلال الدين لم يعد قادراً على العمل. وإننا لم نأكل منذ عدة أسابيع. لقد نسينا طعم السكر"، تصرخ الجدة باكية. "والأرز الذي نشتره يكاد يكون متعفنًا. وأطفاله يزدادون هزالاً يوماً بعد آخر؛ انظروا إن هذين الطفلين. إنهما مجرد جلد على عظم. إن والد جلال الدين يوسعه ضرباً في كل يوم. وأنا لم أفكر مرة أنني سأرسي لصاً". تقول الجدة. وتعدّها النسوة في مايكرورايون ببذل كل جهد ممكن لإقناع سلطان مع علمهن المسبق بأن لا شيء سينفع.

وفي الوقت الذي اتخذت فيه الجدة والعمة طريقهما للعودة إلى قريتهما برفقة الطفلين، فإن البوليس كان قد حضر وألقى القبض على جلال الدين.

وبعد الظاهر تم استدعاء منصور كشاهد. جلس على كرسي محاذ لطاولة الحاكم، واضعاً رجلاً فوق أخرى. وكان سبعة رجال يصغون إلى الاستحواب. ولم يكن هنالك ما يكفي من الكراسي. لذلك فقد

تشارك اثنان منهما الجلوس على كرسي واحد. أما النجار فكان يُقعى على الأرض، فهم مجموعة مختلطة؛ بعض رجال البوليس يلبسون سترات رسمية شتوية ثقيلة رمادية اللون، وبعضهم يلبسون ملابس تقليدية، وبعضهم يلبسون زيّ البوليس الحربي الأخضر. ولا تُحلّ أشياء كثيرة في هذه الدائرة. وعليه، فإن سرقة بطاقات البريد هي مسألة بالغة الخطورة. وأحد رجال البوليس يقف إلى جانب الباب دون أن يقرر تماماً ما إذا كان ينتمي إلى داخل الغرفة أم إلى خارجها.

"عليك أن تخبرنا لمن قمت ببيع البطاقات؛ وإلاّ فإنه سينتهي بك الأمر في السجن المركزي"، قال له كبير الحكام. وكلمتنا "السجن المركزي" ترسلان قشعريرة في جوانب الغرفة. فالسجن المركزي هو المكان الذي يذهب إليه المجرمون الحقيقيون. ويتراعى النجار على الأرض، ويبدو فاقداً كل أمل وهو يقوم باعتصار يديه اللتين تشتغلان في النجارة؛ لذلك تغطيهما ألوف الندوب الصغيرة، وآثار الجراح تتقاطع فيهما. وتحت أشعة الشمس التي تُشرق من خلال الشباك يمكن رؤية الندوب والجروح التي تسببت بها السكاكين، والمناشير، والمثاقب ليدي النجار، بكل وضوح. وبدا كما لو أن يدي النجار، وليس وجهه، هما اللتان تمثلانه، وهما الآن ما يقوم الرجال السبعة في الغرفة بتركيز المراقبة عليهما، كما لو أن المسألة تختص بيديه ولا تختص بشخصه. وبعد برهة قاموا باقتياده إلى زنزانة صغيرة تبلغ مساحتها عشر أقدام مربعة. حيث لا يستطيع أن يقف فيها، بل جُلّ ما يستطيعه: هو أن ينحني، وأن يقعى، وأن ينام متكوماً على نفسه فقط.

ومصير حلال الدين بات الآن في يد عائلة منصور. فهم الذين يستطيعون سحب شكواهم أو الإبقاء عليها، فإذا اختاروا الإبقاء على

الشكوى، فسيجري إرساله تسلسلاً على امتداد الجهاز؛ وسيكون من المتأخر جداً إخلاء سبيله. ثم يقرّر البوليس في أمره. "إننا نستطيع احتجازه هنا لمدة اثنتين وسبعين ساعة، بعدما يكون عليكم أن تحسموا قراركم"، يقول رئيس الحكام. وبرايه أن جلال الدين يجب أن ينال جزاءه؛ فالفقير ليس سبباً يبرّر السرقة.

"هنالك أناس فقراء كثيرون، وإذا لم نقم بإيقاع العقاب بسبب الجريمة، فإن المجتمع سيصبح منحللاً تماماً. إنه من المهم جداً أن نضع الأمثلة عندما تُكسر القواعد". يناقش الحاكم حسن السمعة الأمر مع منصور الذي بدأ يتساءل عن جدوى هذا العمل برمته. فعندما يتأكد أن جلال الدين قد يواجه عقوبة سجن قد تصل إلى ست سنوات بسبب سرقة للبطاقات البريدية، فإنه يبدأ بالتفكير حول أطفال جلال الدين، وحول نظراتهم الجائعة، وملابسهم الرثة. ويفكر في حياته الخاصة، كم هي سهلة، فهو الذي يستطيع أن يُفِق من المال في يوم واحد ما تُنفقه عائلة هذا النجار في شهر بكامله.

وتحتل باقة ضخمة من الزهور الاصطناعية نصف مساحة الطاولة. وتلك الأزهار قد علقت بما طبقة كثيفة من العبار منذ أمد بعيد، ولكنها مع ذلك تضيئي إشرافاً على الغرفة. فرجال البوليس في مركز دمه خودايداد يحبون الألوان حسبما يبدو؛ فالجدران مطلية بالأخضر الحشيشي، والمصباح أحمر؛ بل أحمر جداً. وعلى الجدار عُلقَت صورة لسبطل الحرب مسعود، مثلما هو الحال في سوى ذلك من المكاتب الرسمية في كابول.

"لا تنسَ أنه تحت حكم الطالبان كانت ستُقطع يده"، يقول كبير الحكام مؤكداً. "لقد حصل مثل ذلك لأناس قد ارتكبوا جرائم أصغر من هذه الجريمة". ويروي الحاكم قصة امرأة أصبحت أماً أرملة عندما

نوفي زوجها. "كان فقيراً جداً، وكان أصغر أبنائه بارداً القديمين لعدم وجود حذاء لديه. وكان الطقس شتاءً وهو لا يستطيع الخروج إلى خارج الباب. والولد الأكبر الذي لم يكبد يصبح في سن المراهقة قام بسرقة حذاء من أجل أخيه الصغير. وعندما أُلقي القبض عليه بالجرم المشهود، فقد تم قطع يده اليمنى. لقد كان في ذلك مبالغة شديدة" يعتقد الحاكم. "لكن هذا النجار قد أثبت عن نفسه أنه شخص رديء جداً. لقد ارتكب السرقة عدة مرات. وإذا كنت تسرق لتطعم أطفالك، فإنك تسرق مرة واحدة"، يقول مبرراً.

ويقوم الحاكم الكبير بإطلاع منصور على جميع الأشياء المصادرة المخزنة في خزانة واقعة خلفه؛ فمن المطاوي، إلى سكاكين المطبخ، إلى سكاكين الجيب، إلى السكاكين التي لها مقابض كبيرة للطنن، إلى المسدسات، إلى الكشافات الكهربائية، وحتى إلى مجموعة من ورق اللعب التي كانت قد صودرت. فالمقامرة من أجل كسب الفلوس يمكن أن تدينك بتمتة أشهر سجنًا. "لقد تمت مصادرة هذه المجموعة من ورق اللعب لأن اللاعب الخاسر كان قد طرح اللاعب الرابع أرضاً وقام بطعنه بهذه السكين. لقد كانا يشربان، ولهذا فإنه عوقب من أجل الطعن والشرب والمقامرة"، يتضحك. "أما اللاعب الآخر فقد أطلق سراحه لأنه صار الآن معوّقاً بالكامل وله في تلك العقوبة ما يكفيه!".

"ما هي عقوبة الشرب؟" يسأل منصور. وهو يعلم أنه وفقاً للشرعية، فإن الشرب هو جريمة كبيرة ويعاقب عليها بعقوبة قاسية. فالقرآن الكريم يوصي بشمانين جلدة.

"كسي أكون صادقاً معك، فإنني عادة ما أغض النظر عن مثل هذه الأشياء. فعندما يكون هناك زواج، فإنني أقول لهم إن هذا بمثابة يوم

إجازة، ولكن يجب أن يتم كل شيء باعتدال، وأن يبقى في داخل النطاق العائلي"، يقول كبير الحكام.
"ولكن ماذا عن الزنى؟".

"إذا كانا متزوجين، فإنهما يُقتلان رجماً. أما إذا كانا غير متزوجين، فإن العقوبة هي مئة جلدة، ويجب عليهما أن يتزوجا. وإذا كان أحدهما متزوجاً، وهو الرجل، والمرأة غير متزوجة، فإنه يتوجب عليه أن يتخذها لنفسه كزوجة ثانية. فإذا كانت هي متزوجة وهو غير متزوج، فإنه يتوجب قتل المرأة ويجب جلد الرجل وسجنه"، قال الحاكم. "ولكنني أنظر إلى هذه المسألة في بعض الأحيان بطريقة أخرى أيضاً. فقد تكون المرأة أرملة، وهي بحاجة إلى مال. عند ذلك فإنني أحاول مساعدتها فأقوم بوضعها على الطريق القويم من جديد".

"إنك تتكلم عن الساقطات، ولكن ماذا عن الأناس العاديين؟".
"مرة كنا قد باغتنا رجلاً وامرأة في سيارة. وعند ذلك فإننا، أو بالأحرى فإن أهلها، أحبروهما على الزواج"، يقول. "وكان ذلك تصرفاً رحوماً، ألا توافقني؟ فبعد كل شيء نحن لسنا مثل جماعة الطالبان"، قال الحاكم. "علينا أن نتحسب رجم الناس بالحجارة. فلقد عانى الأفغانيون بما فيه الكفاية".

* * *

ويغادر منصور مركز الشرطة وهو في تفكير عميق. فلقد أعطاه الحاكم ثلاثة أيام كحد أقصى. فهو لا يزال يستطيع فيها أن يسمع المذنب، لكن إذا تطاول الوقت أكثر من ذلك، فإنه يكون قد تأخر جداً. ولا يسمح مزاج منصور له بالعودة إلى المكبة، لذلك فإنه يذهب إلى البيت لتناول الغداء، وهذه حادثة نادرة جداً. ويرمي نفسه على البساط، ومن حسن حظ الجميع، يكون الطعام جاهزاً.

"اخلع حذاءك من قدميك"، نقول أمه.

"اغربي عن وجهي"، يجيب منصور.

"يا منصور، يجب عليك إطاعة أمك"، تتابع شريفة.

لكن منصوراً لا يجيبها بل يستلقي على الأرض ويرفع رجلاً في الهواء فوق أخرى ويبقى نعليه في قدميه. وتقل أمه فمها وتسكت.

"علينا أن نقرر ماذا ستفعل بشأن النجار"، يقول منصور. ثم يشعل سيجارة، فتبدأ أمه بالبكاء. ومنصور لا يشعل سيجارة مرة بحضور والده. ولكن ما إن يصبح والده خارج البيت حتى يأخذ راحته ليس بمجرد التدخين فقط، بل بإزعاج أمه بالتدخين قبل، وأثناء، وبعد الطعام. وتصبح الغرفة الصغيرة عابقة بالدخان. وتكون بيبي غول تشكو منذ مدة طويلة بسبب قلة تهويه مع أمه. ولكن في هذه المرة تغلبها شهوة التدخين، فتمدّ يدها إليه منمتمة، "أعطيني سيجارة؟".

وبين الصمت لثوانٍ قليلة. هل بدأت هذه الجدة بالتدخين؟ "ماما"، تنادي ليلى منتزعة السيجارة من يدها. لكن منصوراً يناولها سيجارة أخرى، فتغادر ليلى الغرفة محتجة. وتجلس بيبي غول تدخن في سعادة، وتضحك مهدوء. حتى إنما تتوقف عن هزّ جذعها إلى الأمام وإلى الوراء، وترفع سيجارها عالياً في الهواء، مستشفقة دحائها بعمق. "هكذا يمكنني أن أقلل طعامي"، تقول بيبي غول مبررة.

"أطلق سراحه"، تقول بعد أن استمتعت بسيجارها. "لقد نال ما يكفيه من العقوبة، ضرب أبيه له، العار الذي لحقه، وفي كل حال، فإنه أرجع البطاقات البريدية".

"هل رأيت أطفاله؟ كيف سيتمكنون من تدبير أمرهم إذا حُرموا من دخل والدهم؟" تقول شريفة داعمة رأي يبي غول.

"قد نصبح مسؤولين عن موت هؤلاء الأطفال" تقول ليلى التي كانت قد عادت بعدما أطفأت والدتها السجارة. "ماذا إذا سقطوا مرضى ولم يتمكنوا من دفع أجرة الطبيب، عندها سوف يموتون بسببنا أو أنهم قد يموتون من الجوع"، قالت. "وفي كل حال، فإن النجار قد يموت هو الآخر في السجن. فكثيرون لا يستطيعون البقاء على قيد الحياة مدة ست سنوات في السجن، فهو مكان مليء بمرض السل، وبالكثير من الأمراض الأخرى".

"أظهر الرحمة"، قالت يبي غول.

وبهاتف منصور سلطان في باكستان مستخدماً هاتفه الخليوي الذي امتلكه حديثاً، ويسأل والده أن يسمح له بإطلاق سراح النجار. ويختم الصمت على الغرفة ويصفي الجميع إلى المحادثة.

ويسمعون صوت سلطان وهو يصيح من باكستان: "إنه يريد تدمير تجارتي، وتدمير أسعاري، لقد أعطيته أجراً جيداً. ولم تكن من حاجة لديه إلى السرقة. إنه محتال منحرف. إنه مذنب ويجب استخراج الحقيقة منه. لا أحد، بل أحد أبداً ينحو بفعلته بعدما يحاول تدمير تجارتي".

"لكنه قد يواجه حكماً يقضي بسجنه لست سنوات وأطفاله قد يموتون عندما يكون قد خرج من السجن"، يصيح منصور من الجانب الثاني من الخط.

"إذا حُكم عليه بستين سنة، فإن ذلك لا يهمني. إن عليه أن يعاني ويتعذب إلى أن يقول لنا إلى من قام ببيع تلك البطاقات".

"هذا شيء تستطيع قوله لأن معدتك مليئة"، يصرخ منصور. "إنني أشعر برغبة في البكاء عندما أفكر هؤلاء الأطفال الهزليين الذين هو والدهم. إن عائلته قد دُمّرت".

"كيف تجرؤ على مناقضة أباك؟" يصيح سلطان عبر الهاتف. وكل واحد في الغرفة يعرف صوته، ويعرف أن وجهه عابق بالغضب، وأن جسمه بكامله لا بد من أن يكون الآن يرتجف. "أي نوع من الأبناء أنت؟ عليك أن تطيعني في كل شيء. كل شيء. ماذا دهاك؟ لماذا صبرت وقحاً مع والدك؟".

ويفصح وجه منصور عن الحركة الداخلية التي يعانيها. فهو لم يفعل مرة أي شيء سوى ما يأمره به والده. وذلك في ما يتعلق بالأشياء التي يلري والده بها. ولم يكن مرة قد جابه والده جهراً؛ فهو بكل بساطة لا يجرؤ على استشارة غضب أبيه.

"حسناً"، يقول مُغلقاً الخط. ويرين الصمت فوق الرؤوس. وينطلق لسان منصور بالشتيمة.

"إن قلبه أقسى من الحجر"، تتنهد شريفة. وتبقى صونيا ساكنة.



وفي كل صباح، كما في كل مساء، تأتي عائلة النجار. أحياناً تأتي جدته، وفي أحيان أخرى تأتي أمه، أو عمته، أو زوجته. ويكون واحد أو اثنان من الأطفال معهم دائماً. ويحصلون على الإجابة نفسها في كل مرة. سلطان هو الذي يقرّر. وعندما يعود إلى البيت فإن كل شيء سيجد له حلاً. لكنهم يعرفون أن هذا الكلام ليس بصحيح؛ فسلطان كان قد أصدر حكمه بالإدانة.

وفي نهاية الأمر لم يعودوا يتحملون المزيد. ولم يعودوا يفتحون الباب، بل يجلسون بلده متعين ألهم غير موجودين في البيت. ويذهب

منصور إلى مركز البوليس كي يطلب تمديد المهلة؛ فهو يريد انتظار عودة أبيه؛ وإنه سيتولى إقاعه بعد عودته. ولكن رئيس الحكام لا يستطيع الانتظار أكثر من ذلك. فالحجارة التي تبلغ مساحتها عشر أقدام لا تستطيع أن تأوي المساجين لمدة تزيد عن أيام قليلة. ومرة ثانية يقومون بمطالبة النجار بالاعتراف بأنه قد أخذ من البطاقات أكثر مما صرح به من قبل، وبأن يخبرهم لمن قام بينهما؛ لكنه يرفض. وعليه، فإن الأصفاد توضع حول معصمي جلال الدين، ويتم اقتياده إلى خارج الكوخ الطيني.

وحيث إن المركز المحلي للشرطة ليس فيه سيارة، فيقع على عاتق منصور مهمة القيادة بالنجار إلى محطة البوليس المركزية في كابول.

وفي خارج المحطة يكون والد النجار وابنه وجدته. وعندما يصل منصور يقتربون منه في تردد. ومنصور يكره كل لحظة من هذا اللقاء. ففي غياب سلطان عليه أن يتصرف كقاضي متحجر الفؤاد.

"إنني لا أفعل سوى ما طلبه والدي مني". ينسحب من بينهم ويضع النظارة الشمسية فوق أنفه ويجلس في السيارة. تعود الجدة والابن الصغير إلى البيت. ويركب الأب دراجته المخطمة ويلحق بسيارة منصور. إنه لن يستسلم ويريد أن يلحق بابنه قدر ما يستطيع ذلك. ويسرى من في السيارة شكل الرجل العجوز الذي يقود الدراجة وهو يختفي وراءهم عن الأنظار شيئاً فشيئاً.

ويقود منصور سيارته بسرعة أبطأ من المعتاد. فقد تمر سنوات كثيرة قبل أن يرى النجار تلك الشوارع مرة أخرى.

ويصلون إلى محطة البوليس المركزية. وخلال فترة حكم الطالبان كانت هذه الأبنية هي أكثر المباني مدعاة للمقت في كابول.

فهنا عند وزارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المعروفة بوزارة الأخلاق، كان البوليس الديني يتخذ مركزاً رئيسياً له. كان الرجال حليقو الذقون أو الذين تكون لحاهم وسراويلهم شديدة القصّر، وكذلك النساء اللواتي يخرجن إلى الشوارع مع الرجال من سوى أقاربهم، كذلك النسوة اللواتي يخرجن بمفردهن، أو النساء اللواتي يخرجن تحت البوركا، كانوا جميعاً يؤتى بهم إلى هذا المكان. ولمدة قد تطول أسابيع، يتعرضون للإهانة في الأقبية قبل أن يجري نقلهم إلى سجون أخرى، أو قبل أن يحلى سبيلهم. وعندما غادرت الطالبان، فإن غرف الاعتقال فتحت وجرى تحرير السجناء. وقد وجدت في المكان كابلات ومخبرانات كانت تستعمل كأدوات تعذيب. كان يجري جلد الرجال وهم عراة؛ أما النساء فيسمح لهن بطرح وشاح حول أجسادهن أثناء تعذيبهن. وقبل الطالبان جاءت الاستخبارات السوفياتية الظالمة، ثم جاءت قوة البوليس الفوضوية المتابعة للمجاهدين لتحتل المبنى. ويرتقي السجار الأدراج الهائلة إلى الطابق الخامس. ويحاول أن يسير إلى جانب منصور وأن ينظر إليه باستعفاف. ويلو وكان عينيه قد باتتا أكثر كبراً وجحوظاً أثناء فترة احتجازه في الأسبوع الماضي. فعيناه المسترحتان تبدوان وكأنهما على وشك الخروج من وجهه. سامحي، سامحي. سوف أخدمك بالبخان طيلة حياتي. سامحي.

لكن منصوراً يُقي نظره متجهاً إلى الأمام. وعليه ألا يتراجع الآن. فلسطين قد أصدر حكمه وهو لا يقوى على مناقضة سلطان. فهو قد يحرم من الميراث ويُطرد من البيت. وهو بات يشعر من ذي قبل أن أنصاه قد أصبح هو المفضل عند سلطان. فأقبال يستطيع أن يتعلم المحاسبة، وإقبال تلقى وعداً بدراجة هوائية. فإذا عارضه منصور الآن

فإن سلطان قد يحل جميع الأوصار. ومهما يكن شعوره تجاه النجار، فإنه لا يستطيع الخوض في هذه المجازفة.

ويعتقدون حصول الاستطاق وتدوين المحضر. فالنظام يقضي بأن المشتكى منه يُسجن إلى أن يتبين ذنبه أو براءته. وكل شخص يستطيع أن يشكو أي شخص آخر وأن يتسبب له بالسجن.

ويعرض منصور قضيته أمام المحقق، ويقضي النجار على الأرض، وتبذل إماما قدميه الطويلتان المعوجتان، وأظافره المنتهية بحواف ممبكة سوداء. أما صُدِيرَتِه وثوبه فهما عبارة عن مِرْقٍ تتدلّى فوق ظهره. وأما سرواله فيتدلّى من وركيه.

ويكتب المحقق الجالس خلف طاولته الإفادتين بعناية. وهو يكتب بخط أنيق ويستعمل ورق الكربون لاستخراج نسخة.

"ما الذي يجعلك شديد الحرص على البطاقات البريدية من أفغانستان؟" يضحك الشرطي ويجد المسألة مثيرة للاستغراب. ولكن قبل أن يتمكن النجار من الإجابة عن السؤال فإنه يتابع قوله: "قل لي الآن لمن قمت ببيعها؛ إننا جميعاً نعرف أنك لم تقم بسرقتها من أجل أن تقوم بإرسالها إلى أقاربك".

"لقد أخذت متين فقط، وكان رسول قط أعطاني بعضها"، يبدأ النجار بالكلام بتردد.

"إن رسول لم يُعطك أي بطاقات بريدية، أنت تكذب"، يقول

منصور.

"لن تنسى أن هذه الغرفة كانت مكاناً أعطيت لك فيه الفرصة كي تقول الحقيقة"، يقول الشرطي، ويتراجع جلال الدين ويغرقع براجم أصابعه ويزفر بتهيدة راحة عندما يستمر الشرطي في الاستماع إلى منصور حول متي، وأين، وكيف، حصلت المسألة برمتها. وخلف

ظهر المستنطق، ومن خلال زجاج الشباك، بدا أحد المرتفعات المشرفة على كابول واضحاً. بيوت صغيرة متشعبة بحافة الجبل. ممرات تتلوى من أعلى الجبل إلى أسفله. ومن خلال الشباك نفسه يستطيع النجار أن يرى الناس؛ إنهم يبدوون له أشبه بالنمال في سعي إلى الأعلى والأسفل. والبيوت مبنية من مواد مفككة مما تقع عليه يد الإنسان في كابول التي مزقتها الحرب؛ فمن ألواح الحديد المثلمة، إلى قطع الخيش، إلى بعض البلاستيك، إلى بعض قطع الفرميد، إلى قطع متناثرة من الخرائط.

وفجأة يقوم المحقق ويُقعى بجانبه. "أعرف أن لديك أطفالاً جائعين، كما أعرف أنك لست بحرماً. وإني أعطيك الفرصة الأخيرة، فخذها. إذا أخبرتني لمن قمت ببيع البطاقات، فإنني سوف أخلي سبيلك. فإذا لم تقل لي، فسوف أصدر عليك حكماً بالسجن لبضع سنوات".

ويفقد منصور اهتمامه بالموضوع. إذ إن هذه ربما هي المرة الثالثة التي يطرح فيها هذا السؤال على النجار طالباً منه الاعتراف لمن قام ببيع هذه البطاقات. فلربما إنه يقول الحقيقة. ولربما إنه لم يبع أياً منها لأي كان. وينظر منصور إلى ساعته ويتأهب.

وفجأة يخرج الاسم من بين شفقي جلال الدين فيقول مهدوء يكاد لا يكون مسموعاً.

ويُثب منصور.

فالاسم الذي سَمَّاه جلال الدين بملك كشكاً في السوق يبيع فيه روزنامات، وأعلاماً، وبطاقات للاحتفالات الدينية، ولهاسيات الزواج، والخطوبة، والميلاد، وبطاقات برهنية تحمل شعارات حول أفغانستان. ولقد كان الرجل دائماً يشتري تلك البطاقات من متحر

سلطان، لكنه لم يعد إلى شراء مثلها منذ بعض الوقت. ويتذكره منصور جيداً لأنه كان دائم التشكي حول أسعارها.

فيبدو الأمر كما لو أن فلينة كانت قد انفلتت؛ لكن جلال الدين كان يرتجف بينما هو يتكلم.

"لقد جاعني بعد ظهر أحد الأيام فيما كنت أغادر عملي. فتكلم معي وسألني عما إذا كنت في حاجة إلى المال. وبالطبع، فإنني كنت بحاجة إلى المال. ثم سألني عما إذا كنت أستطيع أن أحصل له على بعض البطاقات البريدية. وفي بداية الأمر رفضت، لكنه عاد وأخبرني عن النقود التي يمكن لي أن أحصل عليها إذا ما جلستها إليه. وفكرت في أمر أطفالي وبيتي. فأنا لست قادراً على إطعام الأطفال من راتب النجار. وفكرت في أمر زوجتي التي بدأت بفقدان أسنانها رغم أنها لا تزال في الثلاثين من عمرها. وفكرت في النظرات المعنفة التي تنحى إلي في البيت لأنني لست قادراً على كسب ما يكفي من المال. وفكرت في الملابس والأحذية التي لا يمكن لي شراؤها لأطفالي، وفي الطيب الذي لا نستطيع تأمين أجرته، وفي الطعام الرديء الذي نتأوله، وهكذا، فإنني قلت لنفسي إذا استطعت أن أحصل على القليل منها بينما أنا أعمل في المكتبة، فإنني قد أستطيع حلّ بعض مشاكلي. فسلطان لن ينتبه إلى ذلك. فهو لديه الكثير من البطاقات البريدية وكذلك لديه الكثير من النقود. ثم أخذت بعض البطاقات."

"علينا أن نذهب إلى هناك لمصادرة الدليل"، يقول الشرطي. ينهض ويأمر النجار، ومنصوراً ورجل البوليس الآخر بأن يذهبوا معه. ويقودون السيارة إلى السوق، وإلى الكشك الذي يبيع البطاقات البريدية. ويكون هنالك ولد صغير يقوم بالعمل من خلف فتحة صغيرة.

"أين هو عمود؟" يسأله رجل البوليس. محمود يتناول غداءه. يكون البوليس في ثياب مدنية، فيكشف للصبي عن البطاقة التي يعرف بها عن نفسه ويقول له إنه يريد أن ينظر إلى البطاقات البريدية. ويسمح لهم الولد بالدخول إلى داخل الكشك، وفي منطقة ضيقة واقعة بين الجدار، والرفوف المترصة، وبين النضد. يقوم مصور ورجل البوليس بنزع البطاقات البريدية عن الرفوف؛ وهي البطاقات نفسها التي كان سلطان قد قام بطباعتها وبمحوها في كيس. وهي قد يصل عددها إلى عدة آلاف. ولكن أيها هي التي اشتراها محمود بصورة قانونية وأيها التي اشتراها من خلال الدين، يبقى هذا من الأمور التي يصعب الحزم بها. ويأخذون الولد والبطاقات البريدية إلى مركز البوليس.

ويترك شرطي قرب الكشك بانتظار وصول محمود. أما الكشك نفسه فيتم إقفاله ووضع الاختام عليه. ولن يكون باستطاعة محمود أن يسبح للزبد من بطاقات الشكر خلال هذا اليوم، كما لن يستطيع أن يبيع صور الأبطال والمحاربين أيضاً للسبب نفسه.

وعندما يصل محمود في نهاية الأمر إلى مركز البوليس ورائحته لا تزال عابقة بالكباب، فإن الاستنطاقات تتجدد من جديد. وفي بداية الأمر ينكر محمود أي معرفة له بالنجار. ويدّعي أنه اشترى كل شيء بطريقة مشروعة من سلطان ويونس وإقبال ومنصور. ثم يبدل تكتيكاته ويقول: نعم، في أحد الأيام كان النجار قد اتصل به لكنه لم يشتري منه أي شيء أبداً.

ويكون على صاحب الكشك هو الآخر أن يمضي ليلته موقوفاً. أما منصور فيسمح له بالخروج. وفي المشي يكون والد النجار وعمه وابن أخته وابنه متظرين. يقتربون منه، ويسرون خلفه ويراقبون خوفه

وارتعابه عندما يحث خطاه إلى الخارج. فهو لم يعد يتحمل المزيد. لقد اعتُرف جلال الدين، وهذا أمر لا بدّ له من أن يسرّ سلطان، فالمسألة قد تمّ حلها. والآن بعد أن تمّ البرهان على إعادة البيع، فإن إجراءات الدعوى الجزائية صار يمكنها أن تبدأ.

ويتذكر ما قاله المستطلق العسكري: "هذه هي فرصتك الأخيرة. فإذا اعترفت سمحتُ لك بالعودة إلى أسرتك".

ويشعر منصور بعدم الارتياح. فيندفع إلى الخارج. وتكون أفكاره متوقفة عند كلمات سلطان الأعمدة قبل أن يغادر. "لقد جازفتُ بحياتي فيما أنا أبني تجارتِي. لقد تعرّضتُ للسجن والضرب. لقد أضيت نفسي لأعمل شيئاً ما لأفغانستان، فيأتي بحار حفيظ ويحاول تخريب كل تعبتي في الحياة. لا بدّ له من أن ينال عقابه. لا تكن متساهلاً يا منصور، لا تبدأ بالتراجع".

وفي كوخ ترابي مهتّم في ديه خوداينداد تجلس امرأة لشحذ إلى الهواء. فأطفالها الصغار يكون لأن ليس لديها ما تطعمهم إياه، وهي في انتظار عودة جدهم من المدينة. قلعه يحضر معه شيئاً لهم. ويندفع الصغار إليه لدى دخوله من البوابة فوق دراجته. لكنه يدخل بيدين فارغتين. أما البيت ففارغ أيضاً. ويتوقفون عندما يشاهدون وجهه القاتم. وينصتون قليلاً قبل أن يشرعوا بالبكاء والتعلق به. "أين هو البابا، متى يعود البابا إلينا؟".

والدولي أسامة

يرفع يجمع المصحف أمام جبهته، يقبله، ويقرأ آيات منه عشوائياً. ثم يقبل المصحف مرة أخرى، يضعه في جيبه، ويمدّد من الشباك. فالمسيارة على الطريق متطلقة إلى عارج كابول. إن وجهتها هي نحو الشرق، نحو الحدود المضطربة أبداً بين أفغانستان وباكستان، حيث لا يزال هناك من يؤيد الطالبان والقاعدة، وحيث هنالك، وفقاً لرواية الأميركيين، إرهابيون يختبئون في المنحدرات الجبلية الصخرية التي يصعب الوصول إليها. فهنا يقوم الأميركيون بتمشيط المنحدر الجبلي، وباستحواث السكان المحليين، وينسف الكهوف، وبالتفتيش عن مخايئ الأسلحة، وباكتشاف أماكن الاختباء، وبقصف وقتل القليل من المدنيين، وذلك كله خلال مطاردتهم للإرهابيين. أما الغنيمة الكبرى التي يحملون بها فهي: أسامة بن لادن.

هذه هي المنطقة التي تجري فيها الآن العملية العسكرية التي أطلق عليها تسمية عملية "أناكوندا"، وهي هجوم الربيع الرئيسي ضد القاعدة، كان ذلك عندما قامت القوات الخاصة الدولية تحت قيادة الولايات المتحدة بشن معارك شرسة ضد ما تبقى من أتباع أسامة بن لادن في أفغانستان. إذ يشاع أن العديد من جنود القاعدة لا يزالون

مختفين في تلك المناطق الحدودية، حيث لا يزال أمراء الحرب لا يقرون بالسلطة المركزية في كابول، ولا يزالون يحكمون مناطقهم وفقاً لشريعة القبائل. إذ من الصعب على السلطات المركزية أن تدخل إلى القرى التي تقع في الحزام الحدودي الذي تقطنه غالبية من البشتون، على ضفتي الحدود، وكذلك يصعب الأمر على الأميركيين. ويعتقد خبراء الاستخبارات بأن أسامة بن لادن، وقائد الطالبان للثلاثين عاماً، لا يزال على قيد الحياة في أفغانستان، وأن هذا الإقليم هو المكان الذي يختبئ فيه.

وتجسس يحاول العثور عليهما. أو على الأقل يحاول العثور على شخص ما، يعرف أحداً كان قد رآهما، أو يعتقد أنه قد رأى شخصاً ما، يشبه أحدهما. بالمقارنة مع رفيقه الذي يسافر معه، فإن تجسس يأمل ألا يفسد على شيء. فتجسس يكره المخاطر. ويكره السفر إلى مناطق القبائل، حيث يمكن للشخص أن ينشب في أي لحظة. وفي صندوق السيارة لمة سترتان مضادتان للرصاص، وخوذتان جاهزتان للعمل.

"ما الذي تقوم بقراءته يا تجسس؟"

"إنه القرآن الكريم."

"نعم أعرف ذلك، لكن أنقرأ شيئاً معيماً بالذات؟ أعني هل تقرأ آية تتعلق بالسفر، أو ما شابه ذلك؟"

"لا، إنني لا أفتش فيه مرة عن شيء محدد بعينه؛ إنني أكتفي بفتح الكتاب عشوائياً. أما الآن فإني وقعت على آية تتحدث عن أن من يُطع الله ورسوله، فسيثيبه الله تعالى بإدخاله الجنة، حيث هناك جداول وفسراقة، بينما من أدار ظهره، فسيعاقبه الله عقاباً أليماً. وإنني ألتجأ إلى قراءة القرآن الكريم عندما أكون حزينا أو خائفاً."

"آه، حسناً"، يقول بوب ويسند رأسه إلى زجاج الشباك. إنه ينظر إلى شوارع كابول القذرة، من خلال عينيْن نصف محمضتين.

وبقودان سيارهما بعكس الشمس، فيضطر بوب إلى إغلاق عينيه
تحاشياً لوهج الأشعة.

ويفكر تجمير في هذه المهمة. لقد أعطيت له وظيفة ترجمان في مجلة
أمريكية كبيرة. وفي السابق ونحت حكم الطالبان، فإنه كان يعمل لدى
منظمة خيرية. فلقد كان مسؤولاً عن توزيع الأرز والطحين على
الفقراء، وعندما غادر الأجانب في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، فإن
المسؤولية قد بقيت له وحده. ولكن الطالبان سَدَّوا عليه جميع جهوده،
فتوقفت أعمال التوزيع. وفي يوم من الأيام فجرت قبلة مستودع
التوزيع. وشكر تجمير الله لأنه كان قد أوقف أعمال التسليم، إذ ما
الذي كان سيحصل لو كان المكان مليئاً بالنساء والأطفال المستميتين
في طابور الطعام؟

لكنه يشعر الآن وكأن أجيالاً مضت منذ أن كان يعمل في أعمال
الإغاثة الطارئة. فعندما رجع الصحفيون إلى كابول، فإن المجلة
الأمريكية قد وقع اختيارها عليه. وقد عرضوا عليه راتباً يساوي في
اليوم ما يساويه راتبه المعتاد في أسبوعين. وفكر في أمر عائلته الفقيرة،
فسرك العمل في حفل الإعانة الاجتماعية، وبدأ العمل في الترجمة الفنية
والإنشائية إلى اللغة الإنكليزية.

وتجمير هو المعلم الوحيد لعائلته التي هي عائلة صغيرة إذا قيس
بقياس العائلات الأفغانية. وهو يعيش مع أمه، وأخته غير الشقيقة،
وزوجته، وابته باهار التي هي في السنة الأولى من عمرها. وهم يعيشون
في شقة صغيرة في مايكوروايون، بالقرب من سلطان وعائلته. وأمّه هي
فدروزة التي هي أكبر أخوات سلطان، وهي التي كانت قد زوّجت من
أجل تأمين مال من مهرها لتعليم الأخير.

وفيروزة هي إحدى أكثر الأمهات صرامة وتشدداً. فمذ أن كان تجمير ولداً صغيراً، فإنه قلماً سُمح له باللعب خارج البيت مع غيره من الأطفال. فكان عليه أن يلعب مهدوء، ومن دون ضجة في الشقة الصغيرة تحت العين الرقبة لأمه فيروزة. وعندما كبر قليلاً كانت تلزمه بأداء واجباته المدرسية. ولا تسمح له بالتأخر في العودة من مدرسته، بل إن عليه أن يعود منها إلى البيت مباشرة، وآلاً يزور بيت أحد من أصحابه، أو أن يحضر أحداً من أصحابه إلى البيت للعب. ولم يحدث لتجمير أن احتج على ذلك مرة؛ إذ كانت بمجادلة أمه أمراً مستحيلًا، عاقبته الضرب. و ضربات فيروزة موحجة.

"إنها أسوأ من أسامة بن لادن"، كان تجمير يقول لبوب: كلما أراد أن يخلق أعذاراً لتأخره في الوصول إلى العمل، أو للخروج منه في وقت مبكر. وأصدقائه الأميركيون الجدد يسمعون روايات رهيبة عن أمه "أسامة" هذه. فهم يتخيلونها وكأنها نوع من النساء السليطات، تختبئ وراء بوركنتها. لكنهم عندما يلتقون بها لدى قيامهم بزيارة تجمير فيلهم يجدون امرأة صغيرة الحجم، داكنة الوجه، ذات عينين باحتين، نصف مفتوحتين. وثمة قلادة ذهبية كبيرة عليها آيات قرآنية تتدلى حول عنقها. كانت قد اشترت تلك القلادة من راتب تجمير الأول الذي تقاضاه من الأميركيين. وفيروزة تعرف بالضبط مقدار راتب ولدها، وهو يقوم بتسليم كل شيء إليها. وهي تعطيه شيئاً من الخرجية في المقابل. ويقوم تجمير بإطلاع ضيوفه على جميع الآثار الباقية على الجدران من الأحذية وسواها من الأشياء التي تقوم أمه برميها. وهو يضحك الآن؛ فالطاغية فيروزة قد صارت الآن رواية هزلية.

أما الرغبة الكاوية عند فيروزة فقد كانت تتمثل في رغبتها بأن يصبح تجمير شخصاً ما، له أهميته. وفي كل يوم تستطيع فيه أن توفر

بعض النقود، كانت تقوم بتسجيله في دورة دراسية أو في أخرى: فمن فترات اللغة الإنكليزية، إلى دورات الرياضيات الاستثنائية، إلى دورات استخدام الكمبيوتر. فالمرأة الأمية التي أرغمت على الزواج لتأمين النقود لأهلها، يجب أن تتحول إلى أم جليلة محترمة من خلال ولدها.

ولم يكن تجمير لوى سوى القليل من اهتمام والده. فلقد كان رجلاً لطيفاً لكنه ضعيف الشخصية ويعاني من صحة سيئة. وفي أيامه القديمة الجيدة، كان يرثع كرجل مبيعات ما بين الهند وباكستان. وكان يعود من رحلاته غانماً بالمال أحياناً، وخاسراً في مرات أخرى.

وفيروزة قد تضرب ولدها تجمير، لكنها لم تضرب زوجها مرة، رغم عدم الشك في مقدرتها عليه. ومع مرور السنين تحولت فيروزة إلى امرأة ثدياء، عامرة الصدر، مستديرة الجسم كأنها كرة تمشي، وتضع نظارة سمكة، تتوازن فوق أربعة أنفها أو تدلى من خيط حول رقبتها. أما زوجها بالمقابل، فلقد كان رمادي اللون، هزيلًا، كما كان ضعيفاً ومنهكاً وكأنه غصن يابس. وفيما الزوج يذوي ويتضاءل، فإن فيروزة تسلمت دوره في رئاسة العائلة.

ولم تُرزق فيروزة بعد تجمير بأي طفل جديد، لكنها لم تفقد الأمل مرة بإنجاب المزيد من الأطفال. وبعد أن يمست من تكرار تجربة الأمومة، فإنها ذهبت إلى أحد الميام في كابول. وهناك وجدت كشمش التي كانت عائلتها قد تخلت عنها قرب عتبة الميتم، وقد وجدت ملفوفة بغطاء وسادة قذر. لكن فيروزة تبستها، وقامت بتربيتها وكأنها أخت لولدها تجمير. وفي الوقت الذي هو فيه تجمير على شبه شديد بأمه فيروزة - فالوجه المستدير نفسه، وكذلك الكرش المكورة، بالإضافة إلى المشية التي تشبه الكرج - فإن كشمش كانت مختلفة.

فكشمش فتاة صغيرة متوترة، صعبة المراس، وهي نجلة كالعصا. وجلدها أكثر سمرة بكثير عن سمرة بقية أفراد العائلة. فكشمش لها ملامح جامحة، نائرة تخيط لها، كما لو أن الحياة في داخل رأسها هي أكثر إثارة من العالم الحقيقي الخارجي. فعند اللقاءات العائلية الكبيرة، ولحیبة أمل فيروزة، فإن كشمش تجري وتركض في الجوار مثل مهرة مرحة. وبينما اعتاد تجمهر إطاعة رغبات والدته عندما كان لا يزال ولداً صغيراً، فإن كشمش توسّع نفسها دائماً، وتكون دائماً شتاءً، ويغطي جلدها البثور، والخدوش. لكنها عندما تكون في مزاج هادئ فإن لا أحد يمكنه أن يكون متفانياً وباراً أكثر منها. فلا أحد يعطي أمه مثل تلك القبلات الحسنة، والعناقات القوية. وأنها شرقت فيروزة أو غربت تكون كشمش في أثرها، مثل ظل نحيل في أثر أمها المثينة.

ومثل كل الأطفال، تعلمت كشمش بسرعة الأشياء عن طالبان. ومرة تعرضت كشمش وصديقة لها، للضرب على يد عنصر من الطالبان، على بيت درج. فلقد كانتا تلعبان مع ابنه الذي سقط وتسبب لنفسه بكثير من الأذى. فما كان من الأب سوى أن أمسك بهما معاً وأقال عليهما ضرباً بالعصا. ولم تلعبا بعد ذلك مع صبي. فالتالبان هم أولئك الناس الذين لا يسمحون لها بالذهاب إلى المدرسة مع الصبيان في مايكرورايون؛ وهم أيضاً الناس الذين حرّموا القناء والتصفيق، وهم الذين منعوا الناس من الرقص. والتالبان هم الناس الذين منعوها من اللعب خارج البيت بعرائسها، فالعرائس، ودمى الحيوانات المكسوة بالفرو، ممنوعة لأنها تشبه المخلوقات الحية. وعندما يقوم البوليس الديني بتفتيش بيوت الناس، فإنه كان يحطم أجهزة التلفزة وآلات التسجيل، وعناصره قد يصادرون أيضاً دمي الأطفال إذا وجدوها. فهم ينزعون اذرع الدمى ورؤوسها ويحطمونها تحت نعالهم أمام أعين الأطفال الذاهلة.

وعندما أصبحت فيروزة كشمش أن الطالبان قد هربوا، فإن أول شيء قامت بعمله هو حمل دميته المفضلة لديها إلى خارج البيت كي تجعلها تروى الدنيا، أما نجمير فقد تخلص من لحيته. وأما فيروزة فقد نهشت آلة تسجيل قديمة علاها الغبار وبدأت تلف حول الشقة وهي ترقص وتغني قائلة: "يحق لنا الآن أن نعوض عن خمس سنوات ضائعة".

ومما عادت فيروزة تأخذ على نفسها أمر الاهتمام بأي أطفال آخرين. إذ لم تكد تبني كشمش حتى اشتعلت الحرب الأهلية، فهربت إلى باكستان مع عائلة أحيها سلطان. وعندما عادت من حياة اللجوء، كان الوقت قد حان للتفتيش عن زوجة لابنها نجمير، لا لكي تنم بالمزيد من الأطفال؛ البنات اللواتي تخلى عنهن الأهل في المستشفيات.

ومثل كل شيء آخر في حياة نجمير، فإن العثور على زوجة له كان أيضاً امتيازاً من امتيازات أمه. وكان نجمير على علاقة حب مع فتاة سبق له أن لقبها في صف من صفوف تعلم اللغة الإنكليزية في باكستان. لقد كانا أشبه بحبيبين رغم أنهما لم يتلامسا. فقلما انفردا لوحدهما معاً، لكنهما كانا حبيبين مع كل ذلك. وقد كتب كل منهما إلى الآخر رسائل حب. ولم يتحرراً نجمير مرة على اطلاع والدته فيروزة على أمر هذه الفتاة. لكنه كان يحلم بالزواج منها. لقد كانت قريبة لمسعود، بطل الحرب، وقد عرف نجمير أن أمه قد تخشى المتاعب التي قد تنتج عن هذه القرابة. ولكن كائناً من كانت فتاة قلبه، فإن نجمير لم يكن ليحرر على الإفضاء لأمه عن افتتانه بها. لقد رُبي على قاعدة عدم السؤال عن أي شيء؛ فهو لم يتحدث مرة مع فيروزة عن المشاعر. فلقد شعر أن خضوعه لأمه هو تعبير عن احترامه لها.

"لقد وجدت الفتاة التي أريدك أن تزوجها"، قالت له فيروزة في أحد الأيام.

"أوه"، قال تجمير بحلق منقبض، لكن كلمة احتجاج واحدة لم تفلت من لسانه. لقد عرف أنه قد بات عليه أن يكتب رسالة إلى فتاة أحلامه يقول لها فيها إن كل شيء قد انتهى.
 "ومن هي؟" سأها.

"إنها ابنة عم لك من الدرجة البعيدة، إنها خديجة التي لم ترها منذ كنت لا تزال شديد الصغر. وهي فتاة ذكية ونشيطة وتنتمي إلى عائلة جيدة".

ولقد اكتفى تجمير بالإيماء برأسه بالموافقة. وبعد شهرين من ذلك تقابل مع خديجة للمرة الأولى، في حفلة خطوبة. لقد جلس كل منهما بقرب الآخر طيلة مدة الحفلة دون أن يكلم أحدهما الآخر بكلمة. "قد أتمكن يوماً من محبتها"، قال لنفسه.

وخديجة تبدو أشبه بمغنية جاز فرنسية آتية من عشرينيات القرن العشرين. إذ لها شعر أسود مَوَّاج، مفروق عند أحد الجانبين ومحموم جهة مستقيمة عند مستوى الكتفين، كما أن لها بشرة بيضاء ناعمة، وتضع ماكياجاً مناسباً للأعين السوداء، وتلون شفيتها بلون أحمر. وخدها أسيلان، وشفاتها منفرجتان، وهي تبدو كما لو أنها في جلسة دائمة أمام رسام. لكن وفقاً لمقاييس الجمال الأفغانية، فإنها لا تحسب من بين ذوات الجمال الفائق؛ فهي نحيفة جداً. أما الفتاة الأفغانية مثالية الجمال، فهي الفتاة الكاعب المستديرة في كل شيء: الخدان، والردفان، والبطن.

"إنني أحبها الآن"، قال تجمير. كانا يقاربان غارديس، عندما انتهى تجمير من رواية قصة حياته كلها للصحافي الأميركي.
 "واو"، يقول له بوب. "يا لها من حكاية؟ وهكذا، فإنك تحب الآن زوجتك حقاً؟ وماذا عن الفتاة الأخرى؟".

لم يكن يتمير على أدنى علم بما قد حصل مع الفتاة الأخرى. وهو ما عاد فكّر في أمرها حتى. فإنه الآن يعيش من أجل عائلته الخاصة الصغيرة. فمِنذُ عام مضى كان قد رزق هو وخديجة بابتنة.

"كان أكثر ما تخشاه خديجة هو أن تلد مولوداً أنثى"، يقول مخاطباً بوب. "فخديجة هي دائماً في خوف من أمرها من حدوث حدث ما. وقد تجسّد خوفها هذه المرة بإنجابها لطفلة. وكنت قد قلتُ لها، كما قلت للجميع، بأنني أريد ابنة. فلا يستطيع أحد أن يقول كم أنا حزين، لأنني بعد كل شيء قد حصلت على ما كنت قد تمنيت، أما إذا جاءنا صبي، فلن يقول لي أحد شيئاً لأن كل واحد سيكون مسروراً في كل حال".

"هم م م م"، يقول بوب وهو يحاول أن يفهم المنطق الذي يتبع خلف كل ذلك.

"إن خديجة تقلق الآن من ألا تستطيع أن تحمل مرة أخرى، لأنها تحاول الإنجاب لكن لا شيء يحدث. وهكذا، فإنني أتابع القول لها إن طفلاً واحداً يكفيها. وإن الاكتفاء بطفل واحد أمر جيد. ففي الغرب يكتبسي أناس كثيرون بطفل واحد. وهكذا، فإننا إذا لم نرزق بأي طفل جديد، فإننا سنقول إننا لم نرد إنجاب المزيد من الأطفال، وإذا رزقنا بالمزيد، فعندها سيكون كل شخص مسروراً سعيداً في كل حال".

"هم م م م".

يتوقفان في غارديس لشراء ما يأكلانه. فيشتريان علبة من سحائر هاي لايت بسعر خمسة عشر سنتاً لكل باكيت، ورطلين من الخیار، وعشرين بيضة، وبعض الخبز. وكانا يقومان بتقشير الخیار وكسر البيض عندما نادى بوب فجأة "توقف!".

فإلى جانب الطريق، جلس عشرون رجلاً في دائرة، فيما ينادق الكلاشينكوف العائدة لهم ملقاة على الأرض، كل بتدققة أمام صاحبها الذي يتمنطق بأحزمة الرصاص على صدره.

"هؤلاء هم رجال بادشا خان"، يصرح بوب. "أوقف السيارة".

يمسك بوب بتحمير ويمشيان نحو الرجال. ويكون بادشا خان جالساً في وسط رجاله: إنه أكبر أمراء الحرب في المناطق الشرقية، وأكثر المجاهدين بالعداوة لحامد كارضاي.

فبعد هروب طالبان، تم تعيين بادشا خان حاكماً على مقاطعة باكستيا، المعروفة بأنها إحدى أكثر مناطق أفغانستان عناداً واستعصاء. وكحاكم لمنطقة لا يزال فيها تأييد لشبكة القاعدة، فإن بادشا خان صار رجلاً شديد الأهمية بالنسبة إلى الاستخبارات الأميركية. كانوا يعتمدون على التعاون الميداني، ولم يكن أحد أمراء الحرب في نظرهم أفضل من الآخر أو أسوأ منه. وكانت مهمة بادشا خان إخراج جود القاعدة، واستدراجهم من مكانهم. ثم لا يكون عليه بعد ذلك سوى إعلام الأميركيين. ومن أجل هذه الغاية، فإنهم قد جهّزوه بهاتف يعمل عبر الأقمار الصناعية، هاتف كان يقوم باستعماله على نحو متكرر. ولقد استمر في الاتصال وإخبار الأميركيين عن تحركات القاعدة في المنطقة. أما الأميركيون فلا يكون منهم سوى استعمال قوة النيران ضد قسرة هنا وقرية هناك، وضد زعماء القبائل الذين هم حق في طريقهم إلى حضور حفل تنصيب حامد كارضاي، وعلى القليل من حفلات السرفاف، وعلى مجموعة من الرجال الذين يجتمعون في بيت، وعلى حلفاء أميركا بالذات. ولم يكن أحد هؤلاء على أي علاقة مع تنظيم القاعدة، لكنهم جميعاً يشتركون في شيء واحد؛ عداوتهم مع بادشا خان. وهكذا ثارت الاحتجاجات المحلية ضد هذا الحاكم الجموح الذي

صارت قاذفات الـ B-52، ومقاتلات الـ F-16، فجأة موضوعاً في خدمته لتسوية ضغائنه القبلية المحلية، وقد زادت الاحتجاجات على هذا الوضع إلى درجة جعلت حامد كارضاي يقتنع أنه لم يعد هنالك من طريقة أخرى سوى إزالته عن منصبه.

عند ذلك ما كان من بادشا خان سوى إشعال حربه الصغيرة الخاصة به. لذلك بدأ بإطلاق الصواريخ إلى القرى التي كان يحتلها فيها خصومه، وبذلك اشتعلت نيران الحرب بين الزمر والجماعات المختلفة. وقد قتل الكثير من الأبرياء بينما كان يحاول استعادة سلطته الضائعة. وفي النهاية، كان عليه أن يتخلى عن نضاله، في الوقت الحاضر. وكان بوب يسعى للقاء به منذ وقت طويل، وها هو الآن يجلس على الرمال محاطاً بزمرة من الرجال الذين أطلقوا لحاهم.

يقف بادشا خان عندما يقع نظره عليهما. يحسّ بوب بشيء من البرود، لكنه يعاني تجمد بمرارة، ويدفع به إلى جانبه. "كيف حالك يا صديقي؟ هل أنت بخير؟".

كانوا قد التقوا مرات خلال عملية "أناكوندا". وكل ما كان يفعله تجمد هو القيام بترجمة الكلام فقط.

لقد اعتاد بادشا خان حكم هذه المقاطعة بالاشتراك مع إخوانه الثلاثة، كما لو أنها فناء منزله الخلفي. فمُنذ ستة أسابيع فقط كان قد جعل الصواريخ تنهمر فوق بلدة غارديس. والآن جاء دور بلدة نخوست. لقد تم تعيين حاكم جديد، وهو اشتراكي عاش العقد الأخير كله في أستراليا. كان قد ذهب إليها تخفياً جراء خوفه من بطش بادشا خان ورجاله.

"رجالي مستعدون"، بصّرح بادشا خان لتجمد الذي يترجم الكلام فيخبره بشه بوب على دفتره. "إننا الآن نخطط لما يجب علينا

عمله"، يتابع كلامه ناظراً في اتجاه رجاله. "هل نحسم الأمر معه الآن أم نتروى؟" يتابع بادشا خان. "هل أنتما ذاعبان إلى خوست؟ إذأ، عليكما أن تخبرا أخي أن يتخلص من الحاكم بسرعة محاطة. أن يقول له بأن عليه أن يحزم أمتعته ويقادر كي يلتحق بكارضاي.

هنا يستعمل بادشا خان يديه لتمثيل عملية حزم الأمتعة وعملية الطرد. وينظر الرجال إليه، ثم إلى تجمر، ثم إلى بوب الأشقر المنهمك بشكل محموم بتلوين كل شيء.

"انتبه"، يقول بادشا خان بلهجة ليس فيها من شك حول من الذي يعتقد أنه الحاكم الشرعي للمقاطعات الثلاث، المقاطعات التي يراقبها الأمير كيون بعيني ياشق. ويقوم أمير الحرب باستعمال ساق تجمر وسيلة إيضاح على ما يقصده ويعنيه. فيقوم برسم خرائط، وطرقات، وحدود على فخذه. ويتلقى تجمر صفعة على فخذه مع نطق كل كلمة؛ وهو يقوم بالترجمة آلياً. وتقوم أكبر أئمة كان قد رآها في حياته بالسعي فوق قدمه.

"كارضاي يهتد بإرسال الجيش في الأسبوع القادم. فما الذي ستفعله حول ذلك؟" يسأله بوب.

"أي جيش هذا؟ كارضاي لا يملك أي جيش. ليس لديه سوى بضع مئات من الحراس الشخصيين الذين قام البريطانيون بتدريبهم. لا أحد يستطيع أن يهزمي في منطقتي"، يقول بادشا خان ناظراً إلى رجاله، وهم يتعلون صنادل عتيقة ويلبسون ثياباً رثة. أما الجزء اللامع والمصقول منهم فهو أسلحتهم. فبعض المقابض تغطيها صفوف ملونة من الجمان، وبعضها الآخر لها حواف مزخرفة بكل عناية. والعديد من الجنود الشبان زينوا كلاشينكوفاتهم ببعض الرسومات والملصقات. وأحد تلك الملصقات زهرية اللون تحمل عبارة "Kiss me".

والعديد من هؤلاء الرجال كانوا قد حاربوا في صفوف الطالبان منذ سنة واحدة فقط. "لا أحد يستطيع امتلاكنا، كل ما يستطيعونه هو استئجار خدماتنا"، يقول الأفغان عن أنفسهم، وعن تفسيرهم لتحولهم السريع من جانب لآخر في الحرب. اليوم هم يتحنون إلى بادشا خان؛ وغداً قد يقوم الأمر كيون باستئجار خدماتهم. وأهم شيء عندهم في الوقت الحاضر هو القيام بقتال كل من يعتبره بادشا خان عدواً له. أما مطاردة الأميركيين لرجال القاعدة فأمر عليه أن ينتظر.

"إنه مجنون"، يقول نجمير عندما يعودان إلى السيارة. "إن الأشخاص الذين هم من أشباهه هم المسؤولون عن واقع استحالة عودة الأمن والسلام إلى أفغانستان. فبالنسبة إليه إن القوة أهم من السلام. فهو من الجنون بما يكفي لتعرض حياة الألف من الناس للخطر بمرء أن يبقى هو في موقع القوة والسيطرة. إنني لا أستطيع أن أتخيل الداعي الذي يدعو الأميركيين للتعاون مع رجل مثل هذا الرجل"، يقول.

"إذا كان عليهم أن يعملوا مع الأناس الذين أياديهم نظيفة، فإنهم لن يجدوا منهم الكثير في هذه المقاطعة"، يقول بوب. "لا خيار لديهم".

"لكن الناس الآن لم يعودوا مهتمين لأمر مطاردة الطالبان لمصلحة الأميركيين، فإن أسلحتهم كلها غدت مصوَّبة إلى صدور بعضهم بعضاً"، يقول نجمير محتجاً.

"هم م م م"، يتمتم بوب. "أعجب أن يكون هنالك أي معارك جدية"، يقول مخاطباً نفسه أكثر مما هو يتوجه بالكلام إلى نجمير.

فستجمر وبوب مختلفان جوهرياً حول مقوِّمات الجولة الناجحة. بوب يريد أن يرى أحداً تحدث؛ وكلما كانت حامية، كان ذلك هو الأفضل. أما نجمير فيريد العودة إلى عائلته في أكبر سرعة ممكنة. فبعد

أهـام قليلة يحتفل هو وخديجة بالذكرى الثانية لزواجهما، وهو بأمل أن يكون عند ذلك الوقت في بيته. فهو يريد أن يفاجئها بمدية رائعة.

أما بوب فيريد أحداثاً عنيفة يروي عنها في المجلة؛ أحداثاً تشبه أحداث الأسبوع الماضي عندما كاد أن يُقتل هو وتحمير بسبب قبلة يدوية. قبلة لم تصبهما لكنها أصابت السيارة التي هي خلف سيارتهما. أو كالمشيء الذي حصل لهما عندما اتخذوا ملاذاً في الظلام لأن نيراناً صديقة لم تميزهما بينما هما في الطريق إلى غارديس، فكان أن أزت الرصاصات بالقرب منهما أژا. ومع أنه كان في غابة الخوف والدعر، إلا أن تلك الأشياء تجعل بوب يشعر بأنه يؤدي وظيفة هامة، بينما يقوم تحمير بلعن الساعة التي أقدم فيها على تغيير مهنته. فالميزة الوحيدة لتلك الرحلات هي الأموال التي تُدفع له كبديل مخاطرة؛ وفيروزة لا تعرف شيئاً عن ذلك، لذلك فهو يحتفظ بهذه الأجرور الإضافية لنفسه.

فبالنسبة إلى تحمير، وإلى غالبية سكان كابول، فإن هذا الجزء من أفغانستان هو الجزء الذي أقل ما يتمثلون معه. فتلك المناطق تعتبر ريفية وعنيفة. والآناس الذين يعيشون فيها لا يتألفون مع السلطة الوطنية. فقد تغدو مناطق بكاملها تحت سيطرة بادشا خان وأخيه. لقد كان الحال دائماً هكذا، إنما شرعة الغاب.

يقطعان أراضي صحراوية عارية. ومن وقت لآخر يشاهدان جماعات من البدو، ومن الجمال، تنهادى متخذة طرقاتها ببطء واعتزاز عبر الرمال والكثبان. وفي أماكن قليلة نصب البدو خيامهم الكبيرة التي هي غبراء بلون الرمال. والنساء في تنانيرهن الملونة الفضفاضة يمشين بين الخيام. ونساء قبيلة كوشي يُنظر إليهن على أساس أنهن الأكثر تحرراً في أفغانستان. فما دمن بعيدات عن المدن، فإن الطالبان لم تكن حتى قادرة على إجبارهن على ارتداء الوركا. لكن تلك القبائل البدوية كانت هي

بدورها قد عانت الكثير خلال السنوات الماضية. فبسبب الحروب والألغام صار على تلك القبائل تعديل الطرقات التي طرقتها منذ مئات السنين، وأفرادها الآن يرتحلون ضمن مساحات هي أضيق بكثير من ذي قبل. كما أن الجماع الذي حل في السنوات الماضية قد تسبب بهلاك الكثير من المواشي والماعز والدواب والجمال.

فالجمال الطبيعي يغدو خالياً أكثر فأكثر: فتحتهما الصحراء، وموقعهما الجبل، وكلها ذات ألوان لا تعدو أن تكون تدرجات للون السني. ويلمحان، فوق الجبل أنماطاً متعرجة، يتكشف الأمر بعد ذلك عن أنها شياه، نرعى جنباً لجنب باحثة عن الكلأ في أفاريز الجبل.

ويقر بان من بلدة خوست، وتجمهر يكره هذه البلدة، ففيها وجد زعيم الطالبان الملاً عمر أكثر مناصريه ولاءً. وقبلما لاحظ السكان في خوست وجوارها أن البلاد قد صارت كلها واقعة تحت حكم طالبان. إذ بالنسبة إليهم، لم تتغير أشياء كثيرة. فالنسوة في خوست لم يخرجن مرة إلى العمل أو إلى المدارس. والبوركا كانت تُلبس منذ عهد بعيد، لا يتذكرونه. وهي لم تكن قد فرضتها السلطات، بل العائلات.

وخوست بلدة خالية من النساء، على الأقل في الحياة الظاهرة. فبينما كانت النساء في كابول في الربيع الذي أعقب هزيمة الطالبان، قد بدان بطرح البوركا جانباً، وصار بإمكان المرأة أن يرى نساءً في المطاعم مس وقت لآخر، فإن النساء في خوست نادراً ما تقع الأنظار عليهن حتى وهن مختصات وراء البوركا. فهن يعشن حياتهن مقلداً عليهن في الأحواش الخلفية لبيوتهن، لا يغادرنها للتبضع ولا حتى للزيارة. ففي ظل قانون التحجب، يقتضي الفصل التام بين الرجال والنساء.

ويشوق تجمير وبوب طريقتيها إلى كمال خان، الأخ الأصغر لبادشا خان. وكان قد احتل مسكن الحاكم، فيما وضع الحاكم المعين

حديثاً نفسه في الإقامة الجبرية تحت حماية كبير المسؤولين الأمنيين. وحديقة الحاكم مليئة بالرجال الموالين لعشيرة خان. فالجنود من جميع الأعمار، ابتداءً من الشبان الصغار الحفاة وصولاً إلى الرجال الكبار الشيب، يبن جالس، ومضطجع، ومتحول في الجوار. والجو متوتر ومتلف للأعصاب.

"كمال خان؟" يسأل بجمير.

ويقوم جنديان بإرشادهما إلى القائد الذي يحيط به الرجال. ويوافق كمال خان على إجراء مقابلة صحفية معه فيجلسون. ويصل ولد صغير محضراً الشاي.

"نحن جاهزون للمعركة. وقبل أن يغادر هذا الحاكم المريف، ويعاد أخي إلى منصبه، فلن يكون هنالك أي هدوء أو سلام". يقول هذا القائد الشاب. ويومئ رجاله بالتصديق على كلامه. بينما يومئ أحدهم بحمّة بارزة. فهو الرجل الثاني في سلم القيادة بعد كمال خان. وهو يجلس على الأرض متربّعاً، يشرب الشاي ويصفي.

وكمال خان رجل وسيم في العقد الثاني من عمره، ويناضل بما يتفق مع ثقته بنفسه أن حكم هذه المنطقة هو حق من حقوق عشيرة خان.

"إن الناس يقفون في صفنا. وستحارب حق آخر رجل. وليست المسألة بالنسبة إلينا مسألة رغبة في السلطة"، يقول كمال خان بلهجة ملطّفة. "فالمسألة تتعلق بالناس، الناس الذين لا يريدون سوانا. الناس الذين يستحقوننا. وإتنا لا نفعل شيئاً سوى القيام بتلبية رغبات الناس".

يتسلق الجدار خلفه عتكبوتان طويلتا الأرجل. يأخذ كمال خان جرأباً صغيراً من صدرته، ويستخرج منه بعض الحبوب التي يتلعبها. "إنني لست في صحة جيدة"، يقول يعينين تستجديان التعاطف.

هؤلاء هم الرجال الذين يناهضون حامد كارضاي. وهؤلاء هم الرجال الذين يستمرون في الحكم وفقاً لقانون أمراء الحرب. وهم الذين يرفضون تقبل الأوامر من كابول. فإذا انعدمت الحياة المدنية، فليس للأمر أهمية كبيرة لديهم. فالسلطة هي الشيء المهم. والسلطة تعني شيئين اثنين: الشرف - أي أن تحافظ عشيرة خان على مركزها في المنطقة - والمال. وهذا يعني السيطرة على تجارة التهريب المزدهرة للبضائع الممنوعة، وأخذ الأتاوى للسماح بتمرير البضائع المسموح بها جمر كياً.

* * *

والسبب الذي يجعل الحملة الأميركية شديدة الاهتمام بالنزاع المحلي في غوست لا يعود أساساً إلى تهديدات كارضاي بإرسال الجيش لمحاربة زعماء الحرب. فذلك أمر من المحتمل ألا يحدث لأنه وكما قال بادشا خان: "إذا أرسل الجيش، فإن الناس سوف يقتلون وسوف يتحمل هو اللامة بسبب ذلك".

كلا، بل إن الحملة مهمة هذه الصراعات بسبب القوات الأميركية في هذه المنطقة، القوات الأميركية الخاصة السرية التي يصعب الاتصال بها. كما بسبب العملاء الأميركيين السريين الذين يتحركون حول الجبال في التنقيش عن القاعدة. وجملة بوب تريد مقالاً، مقالاً يتجه بالذات إلى موضوع "مطاردة القاعدة". وأكثر ما يرغب هذا المراسل الشاب الوصول إليه هو أسامة بن لادن، أو على الأقل، الملاً عمر. والأميركيون يراهنون على هذه الصراعات، ويعملون مع كل من الفريقين المتصارعين. إذ إنهم يصرفون الأموال إلى الطرفين ويقومون بمرافقة كل فريق في مهماته العسكرية، ويعملون الفريقين بالسلاح، وبوسائل الاتصال، وبالدعم الاستخباراتي. ويحافظون على اتصالات وثيقة مع كلا الطرفين، وفي كلا الجانبين ثمة مؤيدون سابقون للقاعدة.

والعدو اللدود لعشيرة خان يدعى مصطفى. فهو الحاكم الأكبر في خوست، وهو يتعاون مع كل من كارصاي والأمير كين. وعندما قَتَلَ أحد رجاله أربعة من عشيرة خان خلال اشتباك بالنيران مؤخراً، صار على مصطفى الاحتماء في مركز البوليس لعدة أيام. فالرجال الأربعة الذين يخرجون أولاً من مركز البوليس كانوا مرشحين للقتل، حسب التحذير الصادر عن عشيرة خان. وعندما نفذ الطعام والماء من مقاتلي العشيرة، فإنهم وافقوا على التفاوض. لكنهم اكتفوا بالتفاوض على التأجيل. وهذا لا يعني سوى القليل. إذ بقي أربعة (مجهولون) من جنود مصطفى تحت وطأة حكم بالإعدام معلق فوق رؤوسهم. حكم يمكن القيام بتنفيذه في أي وقت. فالدم لا يثار له سوى بالدم. والاكْتفاء بالتلويح بالثأر فقط، ليس سوى خطة لإطالة التعذيب.

فبعد أن قام كمال خان، وأخوه وزير خان، بوصف مصطفى بأنه محرم بقتل النساء والأطفال، ويجب تصفيته، فإن تجمير وبوب يقومان بالانصراف، ويتلقيان مواكبة وداعية إلى البوابة من قبل غلامين وسيمين يبدوان كفتاتين من فتيات جزيرة البحر الجنوبي. وهما يحدقان باهتمام نحو تجمير وبوب.

"احذروا رجال مصطفى"، يقول الغلامان. "لا يمكنكما الأمان من شرورهم. وهم سيفقدون بكما حالما تديران ظهركما. وعليكما ألا تخرجا بعد حلول الظلام، إذ سيقومون بسلبكما".

ويتجه المسافران نحو العدو مباشرة. فمركز البوليس لا يعد سوى عمارات قليلة عن المنزل العائد للحاكم، والواقع الآن تحت الاحتلال. وهذا المركز هو الآن يضارع السجن. فهو قلعة حصينة، وتبلغ سماكة جدرانه عدة ياردات. ويقوم رجال مصطفى بفتح البوابات الحديدية الثقيلة ويدخل تجمير وبوب إلى الباحة الخلفية؛ وهناك أيضاً

تفوح الرائحة العطرية للأزهار لتحيتها، لكنها ليست رائحة الأزهار التي يتزين بها الغلمان هذه المرة، بل هي رائحة الشتول والشجيرات. ويمكن التميز بسهولة بين جنود مصطفى وبين رجال عشيرة خان. فهؤلاء الجنود يلبسون ملابس عسكرية رسمية بنية غامقة، ويعتدون قبعات صغيرة مربعة، ويتعلون أحذية ثقيلة عالية الساق. وعدد منهم يضع نظارات غامقة اللون ومنديلاً يتخترطم به إلى ما فوق أنفه وفمه. فوجوهم المقتنعة تجعلهم يدون أكثر تهدداً.

ويجري اقتياد تجمير وبوب إلى درج ضيق، وإلى ممرات في تلك القلعة. ويجلس مصطفى في غرفة واقعة في أقصى هذا الحصن. وكما هو الحال مع عدوه كمال خان، يكون هو أيضاً محاطاً بالرجال والسلاح. والأسلحة هي نفسها، واللحى هي نفسها، والنظرات والهيئات هي نفسها أيضاً. وتبدل صورة لمكة المكرمة عن جدار الغرفة التي يتخذها الحاكم مقراً له، كما هو الحال في مقر كمال خان. أما الفارق الوحيد: فهو أن الحاكم يجلس هنا على كرسي خلف طاولة، ولا يقعد على الأرض، هذا بالإضافة إلى عدم وجود غلمان حوله متزينين بالأزهار والورود. والأزهار الوحيدة الموجودة في هذا المكتب هي باقة من أزهار الدفلى الاصطناعية ذات ألوان صفراء وحمراء وخضراء فاتحة. وقرب الزهرية وضع مصحف من القرآن الكريم، ملفوف بقطعة من القماش الأخضر، كما وضع على الطاولة نموذج مصغر عن العلم الأفغاني.

"إن كارضاي يقف إلى جانبنا وسوف نحارب"، يقول مصطفى. "لقد أفسدت عشيرة خان في هذه المنطقة بما يكفي؛ والآن فإننا سضع حداً لهذه البربرية" ويقوم الرجال المحيطون به بالإيماء موافقة على كلامه.

وتسرحم تجمير، وترجم. الكلمات نفسها، والتهديدات نفسها. لماذا مصطفى هو أفضل من بادشا خان، وكيف أن مصطفى سيقوم

بإحلال السلام. وهو في الحقيقة، مثله مثل علوّه، يوجز السبب الذي يجعل السلام الحقيقي أبعد ما يكون عن أفغانستان.

فمصطفى انضمّ إلى جانب الأميركيين في عمليات استطلاع عديده حسب الروايات التي يسمعونها، وهو يروي - مصطفى - كيف ألهم قاموا بمراقبة منزل كانوا على ثقة من أنه يأوي أسامة بن لادن والملاّ عمير، لكنهم لم يعثروا فيه على شيء. وأعمال التحري والاستطلاع الأميركية تستمر، لكنها محاطة بالكتمان الشديد، ولا تقم أي معلومات أخرى إلى تحمير وبوب. ويسأله بوب إذا كان يوسعهما الانضمام إلى حملة استطلاع في ليلة ما. لكن مصطفى يصحك. "لا، هذا أمر بالغ السرية، هذه هي الكيفية التي يريد بها الأميركيون. ولن تؤثر في الأمر درجة حرارة رجائك أيها الشاب"، يقول لهما.

"لا تخسرجا بعد الغسق"، يقول لهما مصطفى أمراً بشدة عند مغادرتهما. "فرجال نجان سيصطادونكما".

وبعد أن يكونا قد أشبعوا تحذيراً متبادلاً من كلا الطرفين، يتجه بحمير وبوب إلى مطعم الكباب المحلي، وهو كناية عن غرفة كبيرة تفرش فيها الوُثُر (جمع وثار، وهو الفراش الوطني اللّين) فوق مقاعد خشبية طويلة. ويطلب تحمير طبقاً من الكباب وآخر من اليبلاف، أما بوب فيطلب خبزاً وبيضاً مسلوقة. فهو يخشى الطفيليات والجراثيم. يأكلان في عجل، ويسرعان عالدين إلى الفندق قبل المغيب. ففي هذه البلدة يمكن لأي شيء أن يحدث، ويحسن بالمرء أن يتوقّى حسبما يحذّره كثيرون.

وثمة حاجز ثقيل من قضبان الحديد المتصالية أمام بوابة الفندق الوحيد في البلدة، ويجري فتحها لهما وإقفالها بعدهما. ويقومان بالنظر نحو حوسست حيث المحالّ مغلقة، ورجال البوليس مقنّعون، والناس

متعاطفون مع القاعدة. فطيرة محملقة من أحد المارة في اتجاه بوب كافية لجعل تجمير يشمر بالقلق. وفي هذه المنطقة ثمة جوائز سخية على اصطاد الأميركيين. فكل من يقتل أميركياً يحصل على مكافأة قدرها خمسون ألف دولار.

وبعضيان إلى السطح لنصب الهاتف الذي يعمل عبر الأقمار الصناعية الذي يحمله بوب. وتحوم طوافة فوقهما. ويحاول بوب أن يحزر إلى أين يمكن لهذه الطوافة أن تكون متجهة. ويتجمع أكثر من دزينة من جنود الفندق حولهما، وينظرون في دهشة إلى الهاتف اللاسلكي الذي يتحدث منه بوب.

"أهو سنكلم مع أميركا؟" يسأل رجل طويل نحيل يضع عمة، ويرتدي ثوب تونيك، ويتنعل صندلاً. وتبدو على هذا الرجل ملامح القائد. فيومي تجمير بالإيجاب، ويتابع الجنود مراقبة بوب. ويتحدث تجمير معهم بأحاديث عارضة؛ فهم مهتمون فقط بالهاتف وبكيفية عمله. فأنغم قلما شاهدوا هاتفاً من قبل. ويهتف أحدهم بصوت حزين قائلاً: "هل تعرفون ما هي مشكلتنا؟ إننا نعرف كل شيء عن أسلحتنا، لكننا لا نعرف شيئاً عن استعمال الهاتف".

وبعد انتهاء حديثه مع أميركا، يهبط بوب وتجمير الدرج، ويتبعهما الجنود.

"هل هؤلاء هم الرجال الذين سوف يقتلوننا عندما يدير كل منا ظهره؟" يقول بوب هامساً.

وكسل جندي يحمل بندقية كلاشينكوف، وبعضهم قد ركز حربة كبيرة على أستون بندقية. يجلس بوب وتجمير فوق أريكة في ردهة الفندق. وتتلوى صورة غير عادية فوق رأسيهما. إنها صورة ضخمة مؤطرة لمدينة نيويورك وتبدو فيها صورة البرجين التوأمين لمركز التجارة العالمي،

وهما لا يزالان قائمين، لكن خط الأفق ليس خط الأفق الحقيقي لنيويورك، إذ تقع خلف البنايات جبال عالية محيطة. وفي مقدمة الصورة بدت حديقة كبيرة حضراء ذات أزهار حمراء. ويظهر أن هذه الصورة قد ألصقت فوق الصورة الأصلية. فإذا بمدينة نيويورك تبدو أشبه ببلدة صغيرة ذات أبنية عشبية تحت سلسلة الجبال الضخمة.

وتبدو هذه الصورة كما لو أنها لا تزال معلقة هناك منذ زمن بعيد، فهي باهتة الألوان ومتحولة قليلاً. إذ لا بد من أن هذه اللوحة كانت معلقة في مكانها منذ وقت طويل قبل أن يتقن أي أحد أن هذه الصورة بالضبط سوف يجري الربط المضحك البشع بينها من جهة وبين أفغانستان وهذه البلدة المعبرّة التي هي خوست، من جهة أخرى. وأن هذه الصورة ستؤدي إلى تلقي هذه البلاد المزبد مما هي لم تكن في حاجة إليه من القصف والقنابل.

"أعرفون اسم هذه المدينة؟" يسألهم بوب.

يهزّ الجنود رؤوسهم بالنفي. فهم لم يكدهم أحدهم أن يكون قد رأى صورة ما هو يتعدّى مبنى طينياً مؤلفاً من طابق واحد أو طابقين. ولا بدّ من أن يكون من الصعب عليهم أن يفهموا أن هذه الصورة تشير إلى المدينة الحقيقية.

"هذه هي نيويورك"، يقول بوب. "إنها أميركا. وهذان المبنيان هما اللذان أقحم رجال بن لادن الطائرتين فيهما".

يقفز الجنود واقفين. كانوا قد سمعوا بمذبح المبرسين. يشيرون ويومنون. أهذا هو شكلهما! يتساءلون لدى انتباههم إلى حقيقة مرورهم قرب هذه الصورة مراراً من قبل دون أن يتقنوا لها ولما تعنيه! وتكون إحدى أعداد مجلة بوب معه فيريهم صورة رجل يعرفها كل أميركي.

"هل تعرفون مَنْ هو هذا الرجل؟" يسألهم، فيهزون رؤوسهم بالنفي.

"إنها صورة أسامة بن لادن".

يفتح الجود أعينهم دهشة وينزعون المجلة من يديه. ويتحتمرون حولها. وكل واحد منهم يريد النظر إليها.
 "هل هذه هي الصورة التي تشبهه؟"
 يؤخضون بكل من الرجل والمجلة.

"إرهاسي"، يقولون عنه ويشيرون إليه مطلقين أصواتاً مستكرة فيما هم يضحكون. فليس ثمة صحف ولا مجلات في خوست ولم يكونوا قد شاهدوا من قبل صورة أسامة بن لادن، الرجل الذي هو سبب وجود تجمير وبوب في خوست.

يجلس الجنود، ويستخرجون قطعة كبيرة من الحشيش، يقدموها إلى بوب وتجمير. يشمها تجمير ويعتذر عن قبولها. "قوية جداً"، يقول مبتسماً لهم.

يلذهب المسافران إلى النوم. وتبقى قرعة البنادق الآلية مسموعة طيلة الليل. وفي اليوم التالي يتساءلان عن القصص التي يجب عليهما تتبعها، وكيف يمكنهما الحصول عليها.

يستحولان في شوارع خوست ويحلقان، لا أحد يقوم بدعوتكما لمرافقة مهام عسكرية مهمة أو لمواكبة عملية تفتيش للكهوف بحثاً عن رجال القاعدة. وفي كل يوم يمران على العدوين اللدودين مصطفى، وكمال خان لينقصيا عما إذا كان هنالك من أخبار جديدة.

"عليكما الانتظار إلى أن تتحسن صحة كمال خان". تكون الرسالة التي يتلفياها في مسكن الحاكم، الواقع تحت الاحتلال.

"لا شيء جديد اليوم"، يكون رجع الصدى في مركز البوليس.

بادشا خان احتفى دون أن يترك أثراً وراءه. ومصطفى يقبع
مرعوباً وراء مكتبه الذي تعلوه باقة الأزهار الاصطناعية. ليس هنالك
من إشارات لقرب وصول القوات الأميركية الخاصة. لا شيء يحدث.
لا شيء سوى فرقة البنادق في كل ليلة، وطائرات الهليكوبتر التي
تحوم في سماء البلدة. فهما في مكان هو الأكثر عصياناً للقانون في العالم،
وهما يشعران بالضجر. وفي النهاية يقرّر بوب أن يعود إلى كابول.
فيفرح بحميم لهذا القرار في سرّه: أخيراً سيخرج من حوست ليعود إلى
مايكرورايون. سوف يشتري كعكة كبيرة للاحتفال مع زوجته
بالذكرى الثانية لزوجهما.

القلب المسحور

انقضت عدة أيام وما زالت ليلي تستقبل الرسائل. رسائل جعلتها تتحسد لشدة عوفها، فقلبي يخفق في صدرها زيادة عن المألوف، وذهنها ينشغل عن أي شيء آخر. فبعد قراءتها لكل رسالة، تقوم بنزيقها إلى مزق صغيرة ثم ترميها في الموقد.

والرسائل تجعلها تحلم. تحلم بحياة أخرى. فهذه الكلمات تعطي أفكارها انطلاقة، وتبعث في حياتها السعادة. والمسائلتان جديدتان على ليلي. ففجأة، صار في داخل رأسها عالم لم تكن مرة لتدري بوجوده من قبل.

"أريد أن أهرب! أريد أن أطير!" تنادي في أحد الأيام بينما هي تكمن على الأرض وراء مكنتها. "أريد أن أخرج من هنا!" يفلت منها صوما بينما هي تقوي مكنتها.

"ماذا تقولين؟" تسألها صونيا التي تنظر إليها من جلستها على الأرض، حيث كانت تحدق إلى الفضاء، وتحرك أصابعها فوق غط الرسومات على وجه السعادة.

"لا شيء"، تجيب ليلي. فهي لم تعد تطيق المزيد. فاليك أشبه يسجن. "لماذا تحيط الصعوبة هنا بكل شيء؟" تقول متأوهة. فهي عادة

تكره الخروج، لكنها تشعر الآن أنها لا تطيق البقاء في الداعل، تذهب إلى السوق. تعود بعد ربع ساعة مع كيس من البصل، فتستقبلها نظرات مليئة بالشك.

"أخرجين من أجل شراء كيس من البصل فقط؟ هل أنت شديدة الحرص على استعراض نفسك بحيث تذهبين إلى البازار في الوقت الذي نحن لا نحتاج فيه إلى شراء أي شيء؟" تقول لها شريفة وهي في مزاج ناقد صارم. "عليك في المرة القادمة أن ترسلي أحد الصبيان الصغار لأداء مثل هذه المهمة".

فالتسوق في الحقيقة هو عمل من أعمال السيدات الكبيرات، فمن غير اللائق بالنساء الشابات أن يقفن من أجل المساومة مع أصحاب الدكاكين أو مع الرجال في السوق. فجميع الدكاكين والأكشاك تعود للرجال، وخلال فترة حكم الطالبان كانت السلطات قد منعت النساء من الذهاب إلى السوق بمفردهن؛ والآن، تقوم شريفة في مزاجها العكر بمنعها من ذلك هي أيضاً.

ولا تردّ ليلي بأي جواب. كما لو أنها مهتمة بالتحدث مع بائع بصل متحولاً فهي تستعمل الكيس بكامله لمجرد أن تُري شريفة أن البصل لازم في المطبخ حقاً.

وتكون في المطبخ عندما يعود الأولاد. وتسمع إيمال يتنحج خلفها وينكمش على نفسه. فترداد سرعة ضربات قلبها. كانت قد طلبت منه ألا يحضر لها أي رسائل جديدة. لكن إيمال يدس رسالة في يدها، كما يدس صرة قاسية. تحببهما تحت ثيابهما، وتندفع إلى صندوقها، وتحبّي كل شيء فيه تحت القفل. وبينما يكون الآخرون مشغولين بتناول طعامهم، فإنها تتسلّل إلى الغرفة حيث تحفظ كنوزها، ويبدن مرتجتين تفتح الرسالة المطلوبة.

"عزيزتي ل. عليك بالجابتي الآن. لئلا يبتلى شوقاً إليك.
كنت رائحة الحسناء أريدون أن تزيلى عني، أم أن علي أن
أعيش في الظلام إلى الأبد؟ إن حياتي هي بين يديك. أرجوك
أن ترسلني لي علامة. أريد أن ألتقي بك، أجيبي. أريد أن
أنتقم الحياة منك. المشتاق إليك ك."

أما الصرة فنحتوي على ساعة يد لها ميناء أزرق، تحيط به دائرة
فضية. نجرها على معصمها، لكنها تنزعها ثانية، وبسرعة. فهي لا
يمكنها أبداً أن تضعها حول معصمها. وما الذي تستطيع قوله، إذا سألتها
أحدهم عن الشخص الذي أعطاها هذه الساعة؟ ويحمر وجهها خجلاً.
ماذا لو علم إخوتها عن هذا الأمر، ماذا لو علمت أمها؟ ويتألم الخوف
والقرف معاً، يا له من عار. فسلطان ويونس سوف يتفقان معاً على
احتقارها وإهانتها. فهي بقبولها الرسائل تكون قد ارتكبت عملاً
لأعلاقاً.

"أستشار كيني الشعور نفسه؟" كان قد سألتها. لكنها لا تشعر في
الحقيقة بأي شيء. فهي يائسة فحسب. وها هي الآن تُقرص عليها
حقيقة جديدة. فللمرة الأولى في حياتها يطلب منها شخص ماءً أن
تجيب، وأن تعبر عن رأيها. فهو يريد أن يعرف ما هو شعورها، وما هو
رأيها وتفكيرها. لكنها لا تشعر بشيء؛ فهي غير معتادة على الشعور
بأي شيء. وهي تُقنع نفسها بأنها لا تشعر بشيء، لأنها تعرف أن من
واجبها ألا تشعر بشيء. فللمشاعر ضربٌ من الخزي والعار، هذا ما
كان قد أدبيل في ذهن ليلي بحكم التربية.

لكن كريماً يشعر. وهو كان قد رآها مرة. كان ذلك عندما
أوصلت هي وصونيا طعام العشاء إلى الأولاد في الفندق. وقد تمكن
كريم من التقاط لحظة سريعة لها، لكن كان ثمة شيء ما، يحيط بها، شيء

جعلته يتيقن أنها هي الإنسانة المناسبة التي يتوق إليها قلبه! إنه الوجه الحنطي المدورا والبشرة الجميلة وتلك العينان!

وكريم يعيش لوحده في غرفة واحدة، ويعمل لمصلحة شركة تلفزيون يابانية. فهو مستوحّد. إذ إنه كان قد فقد أمه بعدما أودت بحياها شظية قنبلة، كانت قد سقطت في الباحة الخلفية لمنزلها أثناء الحرب الأهلية. وقد تزوج والده بعد ذلك بسرعة، من زوجة جديدة. زوجة لم يتفق معها كريم. وهي لم تحبه: فهي لا تهتم لأطفال زوجها الذين كان قد أنجبهم من زواجه الأول، ولا تنفك عن ضربهم عندما يكون والدهم غائبا. ولم يشتك منها كريم مرة. فوالده قد اختارها هي ولم يختار أولاده. فبعد أن انتهى من دراسته، عمل مع والده في صيدليه في جلال آباد. ولكن في نهاية الأمر، لم يستطع أن يطبق العيش مع عائلته الجديدة. أما أخته الأصغر منه، فقد زوّجت من رجل في كابول، وقد تبعهما كريم ليسكن معهما. وكان قد درس أشياء مختلفة، وكثيرة، ومتباينة في الجامعة. وعندما أخلت طالبان كابول، وانددت إليها جماعات الصحافيين حتى ملأت فنادقها، ودور الضيافة فيها، فإن كريما ظهر وعرض مهاراته في اللغة الإنكليزية على من يشتريها منه بأعلى سعر ممكن. وكان محظوظا بحصوله عن وظيفة مع شركة كانت قد افتتحت مكتباً لها في كابول، وأعطت كريماً عقداً طويل الأمد براتب جيد. وكانت الشركة تدفع إيجار غرفته في الفندق، وهناك، قبض لكريم أن يتعرف على منصور، وعلى بقية أفراد عائلة خان. لقد أحب هذه العائلة، كما أحب المكتبة التي تمتلكها، كما أحب مستواها المعرفي والاجتماعي. إنها عائلة مناسبة، هذا ما رآه.

فعندما وقع نظر كريم على ليلي انسحق قلبه. لكن ليلي لم تعد إلى الفندق مرة ثانية؛ وفي الواقع فإنها كانت عازفة عن العودة إلى ذلك

الفندق لمرة جديدة، فإنه ليس بالمكان الجيد الذي يمكن أن نشاهد فيه فتاة شابة حسب اعتقادها.

ولم يستطع كريم أن يوح بعشقه لأي كان، فمنصور قد يكفي فقط بالضحك وتدمير كل شيء، لم يكن هنالك من شيء عظيم الأهمية بالنسبة إلى منصور، كما أنه لم يكن شديد الإعجاب بعفته على وجه الخصوص.

لم يعرف بالأمر سوى إيمال، وقد أبقي إيمال فمه مُغلَقاً. فقد كان إيمال هو مبعوث الغرام الذي اختاره كريم.

فلو كان باستطاعته التقرب أكثر من إيمال، اعتقد كريم، فإنه قد يستطيع أن يعرف المزيد عن العائلة من خلاله. ولقد حالفه الحظ؛ ففي أحد الأيام دعاه منصور إلى الغداء في بيته. وكان من الطبيعي أن يقوم المضيف بتقديم الأصدقاء إلى العائلة. فكريم هو أحد أكثر أصدقاء منصور احتراماً. وقد قام عند حضوره بِجُلِّ ما يستطيعه من أجل أن يحظى باستقبال جيد؛ لقد كان جذاباً، وحسن الإصغاء، ولم يُقَصِّرْ في امتداح الطعام والثناء عليه. وكان من المهم على نحو خاص أن يجعل الجلسة تحبب لأهلها صاحبة الكلمة الأخيرة فيما يختص بيلي. لكن الإنسانية التي جاء من أجلها - ليلي - لم تُره وجهها أبداً، لقد كانت في المطبخ تطبخ. وكانت شريفة وبليلة هما من يحملان الطعام إلى السفرة. فشباب من خارج العائلة نادراً ما تتيسر له رؤية النسوة العازبات. وعندما فرغ من تناول الطعام، ومن شرب الشاي، وصار الجميع علسي وشك الذهاب إلى النوم، تمكن من التقاط لمحة أخرى لها. فبسبب نظام منع التحول ليلاً، فإن ضيوف العشاء كان يجري استقائهم عادة للمبيت، وكانت ليلي تُعَدُّ غرفة الطعام كمنحدر إلى غرفة منامة.

لقد قامت بوضع الوُثُر على الأرض بعد أن أزالَتْ عنها البُسط والوسائد، ورُبِيت وثاراً إضاعياً خاصاً من أجل كرم، والفكرة الوحيدة التي كانت مُملأ رأسها هي أن كاتب الرسائل هو الليلة ضيف في شقتهم. وقد ملأه اعتقاد بأنها موافقة، وتابع صلاته قبل أن يذهب الآخرون إلى مضاجعهم. وكانت هي لا تزال هناك حانية فوق الوثاء، وشعرها الطويل مضفور ومغطى بمنديل بسيط. عاد قافلاً من المعروء مندهش ومضطرب العواطف. لكن ليلي لم يبدُ أنها قد شعرت بوجوده. وطوال تلك الليلة بقيت تراود ذاكرة كرم صورتها وهي حانية فوق الوثاء. وفي صباح اليوم التالي لم تتسنَّ له رؤيتها، رغم أنها هي التي كانت قد أحضرت الماء له كي يغتسل، وهي التي قامت بجلي البيض له، وهي التي أعدت الشاي الذي شربه. بل هي التي قامت حتى بتلميع حذائه بينما هو راقد.

وفي اليوم التالي قام بإرسال أخته إلى نساء عائلة حاد. فعندما يعثر أحدهم على صديق جديد، فلا يكون هو وحده الذي يُقدَّم إلى العائلة بل يُقدَّم إليها أيضاً أقاربه. وأخت كرم هي أقرب الأقرباء إليه. وهي تعلم بأمر افتتان كرم بليلى، وتريد الآن أن تتعرف إلى العائلة معرفة وثيقة. وعندما عادت إلى بيتها أحيوت كريماً بكل ما كان يعرفه من قبل. "إنها ذكية ونشيطة. إنها جميلة وفي صحة جيدة. والعائلة عائلة راقية تماماً. وهذا الزواج سيكون زوجاً متكافئاً مناسباً".

"ولكن ماذا قالت لك؟ وكيف هي؟ وكيف تبدو لك؟" أصغى كرم إلى الإجابات مرة بعد أخرى، بما في ذلك الجواب الباهت الذي يتعلق بوصف ليلي. "إنها فتاة كريمة، مُرضية، كما سبق وأن قلت لك"، قالت له في النهاية. ولأن كريماً لم يعد له أم، فإنه كان يترتب على أخته الأصغر منه أن تتولَّى دور المخاطبة لمصلحته. لكن الوقت كان لا يزال

مبكراً جداً إذ إن الأمر يحتاج أولاً إلى أن تقوم أخته بالتعرف إلى هذه العائلة بشكل أعمق، حيث لم تكن قرابة ما تربطهم بها. وما دام أن لا قرابة عائلية سابقة موجودة، فإن أغلب الظن أن جواب أهل البنت سيكون أولاً بالنفي.

وبعدما قامت الأخت بزيارتهم، فإن كل واحد في العائلة ابتدأ يضيق ليلي بخصوص كريم. ولكن ليلي ادّعت أنها لم تفهم شيئاً. كما ادّعت عدم المبالاة، مع أنها كانت تشتعل في الداخل. إن عليهم ألا يعرفوا شيئاً عن الرسائل. لقد كانت غاضبة لأن كريماً قد عرضها للخطر. وكانت قد قامت بسحق الساعة بحجر، وبرميها بعيداً.

فقبل كسل شيء كانت في عشية من أمرها أن يكتشف يونس شيئاً عن ذلك. فبين جميع أفراد العائلة، فإن يونس كان هو أكثر المتسكين بالطريقة الإسلامية في الحياة، مع أنه لم يكن حتى يتبعها هو نفسه بطريقة كاملة. فكان هو أيضاً الشخص الذي تخصّه بأكثر حبا. وقد نحشت أن يظن بما ظن السوء إذا عرف أنها قد تقبلت أي رسائل. وعندما عُرض عليها وظيفة بنوام حزني بسبب قوة معرفتها باللغة الإنكليزية، فإنه كان قد منعها من تسلّم تلك الوظيفة. فهو لم يستطع تقبل فكرة قيام أخته بالعمل جنباً إلى جنب مع الرجال.

ولا تزال ليلي تتذكر حديثها معه حول جميلة. إذ كانت شريفة قد أحمرها عن موت تلك الفتاة اختناقاً.

"ماذا عنها؟" تساءل يونس. "أنعين الفتاة التي ماتت بسبب تعرضها لصدمة كهربائية من مروحة كهربائية معطلة؟"

فيونس لا يدري شيئاً عن أن رواية المروحة الكهربائية هي مجرد كذبة مركبة، وأن جميلة إنما كانت قد ماتت بسبب أن عشيقها قد قام بزيارة غرفة نومها في الليل. هنا أطلعت ليلي على الرواية كاملة.

"شيء رهيب، شيء رهيب"، قال معقياً. فأومأت ليلي برأسها إيجاباً.

"كيف استطاعت أن تفعل ذلك؟" أضاف قائلاً.

"كيف استطاعت هي؟" قالت ليلي متعجبة. إذ كانت قد أساءت فهم التعبير الذي بدا على وجهه، حتى إنها حسبت أنها استجابة غاضبة حزينة منه للمصير الذي آلت إليه جنية، بعد أن تم خنقها على أيدي أخويها بالذات، لكنها كانت في الحقيقة صدمة الغضب، غضبه لأنها قد سمحت لنفسها بأن يكون لها عشيق.

"لقد كان زوجها موسراً ووسيماً"، قال وهو لا يزال يرتعد من الغضب بعد أن انكشفت له تلك الحقيقة: "يا له من عار"، استمر قائلاً. "وهي تفعلها مع رجل باكستاني. إن هذا يجعلني أكثر إصراراً من ذي قبل، على الزواج من فتاة صغيرة، صغيرة بحيث لا يكون أحد قد قبلها من قبل. كما أن عليّ أن أجعل رمنها قصيراً في يدي" قال بكل شدة. "ولكن ماذا عن عملية القتل؟" سأله ليلي.

"لقد كانت جريمتها هي الأسبق".

وليلي أيضاً تريد أن تكون صغيرة، وأن لا يكون أحد قد قبلها قبل الزواج. فهي في خشية من اكتشاف أمرها. وهي لا تفهم الفرق بين أن تكون الفتاة حائنة لزوجها، وبين أن تتقبل رسائل من فتى. فالأميران ممنوعان، كلاهما أمران سيئان بما يكافئ الآخر، وكلاهما يورثان العار إذا ما اكتشفا. والآن ولأنها بدأت ترى في كريم مخلصاً ومُنقذاً، وطريقاً لها للهرب من العائلة، فهي تخشى ألا يقوم بونس بدعمه إذا تقدم لخطبتها.

فمن ناحيتها، لم تتحدث مرة عن وقوعها في الغرام. فهي تكاد تكون لم تره إذ لقد اكتفت باستراق النظر إليه من خلف الستارة، كما

أنها رآته من الشباك عندما كان قادماً مع مصور. فهذا الشيء القليل الذي رآته منه إنما هو أمر يمكن تمريره بشكل أو بآخر.

"إنه لا يزال صغيراً"، قالت لصونيا بعد ذلك بوقت قصير. "وهو صغير الحجم، ونحيل، وله ملامح أشبه بملامح الأطفال".

لكنه مثقف، ويبدو لطيفاً وقد يستطيع انتشالها من الحياة التي يجب أن تكون مختلفة بالنسبة إليها. ولكن أفضل ما فيه، هو عدم امتلاكه لأسرة كبيرة، فهي لن تجازف من حديد بأن تصبح خادمة. كما أنه يسمح لها بمتابعة دراستها، وبالحصول على وظيفة. ولن يكون في العائلة مواءماً كما أنهما قد يستطيعان السفر معاً، ربما إلى الخارج.

ولم تكن المسألة مسألة نقص في عدد الخاطبين الذين يتقدمون للخطبة ليلي؛ فهي كانت قد تلقت ثلاثة عروض للخطبة حتى الآن. وجميع العروض من الأقارب، أقارب لم تكن لتريدهم. أحدهم كان ابن عمّة لها، وهو أمي، وعاطل عن العمل، بل كسول، وخامل، ولا نفع فيه.

أما الخاطب الثاني، فكان ابن وكيل. وهو ابن ضخم أخرق. وهو الآن عاطل عن العمل، ويساعد والده في قيادة سيارة الأجرة.

"كم أنت محظوظة، ستحصلين على رجل له ثلاث أصابع"، اعتاد منصور أن يناكدها قائلاً: "إنه ابن وكيل، الابن الذي فقدَ إصبعين من يده بينما كان يجوس بأصابعه في محرك سيارة، وهو شخص لم تكن ليلي لتريده ولا لتسناه. لكن شاكيلا، أختها الأكبر منها، تصغط لإتمام هذا الزواج. فهي تريد أن تبقى ليلي حولها، في الفناء الخلفي لبيتها. لكن ليلي عرفت أن معنى هذا، هو أن تستمر في كونها خادمة. إذ إنها ستكون دائماً تحت إمرة أختها، وسيبقى ابن وكيل دائماً تحت إمرة والده.

وهذا سيعني القيام بغسل ثياب عشرين شخصاً وليس ثلاثة عشر فقط، كما هو الحال الآن، هذا ما دار في فكرها، وسوف تكون شاكيلا هي سيدة البيت المحترمة؛ بينما ستبقى ليلي هي البنت الخادمة. ومهما حصل، فلها لن تستطيع الإفلات؛ ومرة جديدة سوف تكون قد وقعت في مصيدة عائلة كبيرة، مثلما هو حال شاكيلا، فراخ، دجاج، وأطفال بدورون طيبة النهار حول تنورتها.

أما الخاطب الثالث فهو خالد. وخالد لم يكن أحد أقربائها؛ وهو شاب لطيف. ولدٌ كانت قد نشأت معه، وهي تألعه على وجه العموم. فهو مهذب، وله عينان دافئتان جميلتان. لكن المشكلة تكمن في عائلته. إذ إن له عائلة رهيبة. عائلة كبيرة يصل عدد أفرادها إلى الثلاثين. ووالده رجل عجوز متشدد، كان قد أفرج عنه لثوّه من السجن، بعد اعتقاله على خلفية قسمة له بأنه متعاون مع الطالبان. أما منزل تلك العائلة فكان مثل معظم البيوت الأخرى في كابول، قد تعرض للنهب خلال الحرب الأهلية. وعندما وصل الطالبان، وفرضوا النظام والقانون، فإن والد خالد تقدّم بشكوى تناول بها بعض المجاهدين من أبناء قريته. وقد تم اعتقالهم وسجنهم لمدة طويلة. وعندما هربت الطالبان فإن هؤلاء الرجال استعادوا نفوذهم في القرية وانتقموا لأنفسهم من والد خالد عن طريق التسيب بإرساله إلى السجن. "لعله بذلك يترتبى"، قال الكثيرون. "لقد كان أحق عندما تقدّم بشكواه".

وكان والد خالد معروفاً بطباعه الحادة التي لا يمكنه السيطرة عليها. أكثر من هذا، لقد كان له زوجتان لا تنقطعان عن الشجار ولا تكادان يلتقيان في غرفة واحدة. وهو الآن يفكر في اتخاذ زوجة ثالثة. "إلهما نصبحان كبيرتين بالنسبة إليّ، وعليّ أن أحصل على زوجة تستطيع أن تجعلني باقياً على شبابي"، كان العجوز السبعيني قد قال.

وليلى لا تستطيع احتمال فكرة الانضمام إلى هذه العائلة الفوضوية؛
وخالد ليس بذي مال، وهكذا فالحما لن يستطيعا أن يبدأ حياة عائلية
منفصلة.

أما الآن، فإن القدر قد جاد بكرم عليها. فوائدها تعطىها الدفع
الذي تحتاج إليه، كما تعطىها سبباً للتعليق بالأمل. فهي ترفض
الاستسلام، وتستمر في النظر إلى الفرص التي تسمح لها بالوصول إلى
وزارة التعليم، وبالتسجيل فيها كمعلمة. وعندما اتضح الأمر أن لا
رجلاً من رجال العائلة مستعد لمساعدتها، فإن شريفة تُشفق عليها.
وهي تعد بالذهاب مع ليلى إلى الوزارة. لكن الأيام تجري دون أن
تنهبا، وهما ليس لديهما موعد. وليلى تفقد أملها، ولكن الأشياء لا
تلبث أن تزهو فجأة، وبطريقة غير اعتيادية.

فقد كانت شقيقة كرم قد ذكرت له الصعوبات التي تصادفها
ليلى في رغبتها بالتسجيل كمعلمة. وبعد أسابيع عديدة من الجهد، ولأنه
يعرف الرجل الذي هو الذراع اليمنى لوزير التعليم، فإنه يتمكن من
ترتيب لقاء بين ليلى وبين الوزير الجديد للتعليم، رسول أمين. وتسمح
والدة ليلى لها بالذهاب لأنها قد تتمكن من الحصول على وظيفة
التدريس التي طالما تمناها منذ وقت طويل. ومن حسن الحظ أن يكون
سلطان مساعداً، وحق يونس لم يفعل شيئاً لتعطيل هذه المساعي. فكل
شيء يسير وفق مشتهاها، فهي تضطجع صاحبة طيبة الليل تشكر الله
وتدعوه بأن يسهل جميع الأمور معها، من لقاءها بكرم، إلى لقاءها
بالوزير.

فكان من المفترض أن يأتي كرم لمرافقتها عند الساعة التاسعة
صباحاً، وليلى تُعرب، وتنبد، جميع ملابسها. ثم تُحرب ملابس صونيا،
ثم ملابس شريفة، لتعود إلى ملابسها الخاصة. وبعد أن يغادر الرجال

البيت، تستريح النسوة على الأرض، بينما ليلى تدخل عليهن وتخرج كل مرة في زي جديد.

"ضيق جداً".

"كثير الزركشة".

"كثير اللمعان".

"كثير الشفافية".

"متسخ".

كان هنالك شيء ما، سيئ في كل ثوب جرّته. وليلى لا تملك سوى القليل من الملابس تتدرّج بين القلم، والبالي، والمجعد؛ إن من الكنسزات، أو من السترات المزركشة بخيوط الذهب المقلّدة. فهي لا تملك أي ثياب ذات طبيعة مقبولة. ففي المرات النادرة التي تشتري فيها ثياباً لنفسها، يكون ذلك لمناسبة حفلة خطوبة أو عرس. وعندما تكون تلبس لإحدى المناسبات، فإنها تبدأ عادة بتحريب أكثر الملابس برقاً لينتهي بها الأمر إلى ارتداء قميص أبيض وتورة سوداء، من ثياب صونيا. ولا يؤثر ذلك في واقع الأمر كثيراً، لأنها ترمي فوقها شاها الطويل الذي يغطي رأسها والجزء الأعلى من جسدها إلى ما دون وركيها. لكنها تترك وجهها مكشوقاً. فليلى قد تركت عنها البوركا. فقد وعدت نفسها أنها لن تلبس الحجاب أبداً بعد عودة الملك؛ وأفغانستان يجب أن تصبح عندئذ بلداً حديثاً. ففي صباح يوم من أيام نيسان/أبريل عندما وضع الملك السابق زاهر شاه قدميه على تراب أفغانستان بعد ثلاثين سنة من المنفى، فإنها قامت بتعليق بوركتها لهاثياً، ووعدت نفسها بالآ تعود إلى ارتداء ذلك اللباس الدنيء المقرّف من جديد. أما صونيا وشريفة فقد تبعتا لبس ارتداء الأطقم. ولقد كان الأمر سهلاً بالنسبة إلى شريفة فهي قد عاشت معظم حياتها البالغة

كاشفة عن وجهها، لكن الأمر كان أصعب بالنسبة إلى صونيا. فهي قد عاشت طيلة حياتها تحت البوركا، لذلك فلما ترددت، وفي نهاية الأمر فإن سلطان هو الذي قام بمنعها من متابعة لبس البوركا. "لا أريد زوجة تكون من عصر ما قبل التاريخ؛ فأنتِ زوجة رجل ليبرالي، ولستِ زوجة رجل أصولي".

ففي وجوه عديدة كان سلطان ليبرالياً. فعندما كان في إيران فإنه اشترى لصونيا ملابس غريبة. وهو يشير عادة إلى البوركا بأنها قفص ظلامي، وقد كان مسروراً لأن الحكومة الجديدة قد أدخلت بين أعضائها وزيرات. وفي داخلته، كان يريد لأفغانستان أن تكون بلداً حديثاً مستمداً، وكان يتكلم بحماسة عن تحرير النساء، لكنه بقي في البيت أبوياً سلطوياً. فعندما يأتي الأمر إلى حكم عائلته يكون لسلطان نموذج واحد قديم: إنه والده.

وعندما يصل كريم في نهاية الأمر، فإن ليلي تكون واقفة أمام المرأة متلعة بشالها، مع بريق في عينيها لم يكن موجوداً من قبل. وتلمشي شريفة أمامها. وتكون ليلي متوترة حامية الرأس. تجلس شريفة في المقعد الأمامي وتجلس ليلي في الخلف. تلقي عليه تحية سريعة. وكل شيء يسير سراً حسناً؛ فهي قلقة ولكن بعض الاضطراب قد ذهب عنها. وهو يبدو رادعاً بالكامل، بل يبدو لطيفاً ومرحاً إلى حد ما.

ويتحدث كريم مع شريفة عن هذا وذاك من الشؤون: عن أبنائها، وعن الوظيفة، وعن الطقس؛ وهي تسأله عن عائلته وعن عمله. فشريفة ترغب أيضاً في استعادة وظيفتها القديمة كمدرسة. ومقارنة مع ليلي، فإن أوراق شريفة مرتبة، وهي لا تحتاج إلى إعادة تسجيل نفسها. أما ليلي فتملك مجموعة متعددة الألوان والأشكال من الأوراق، بعضها آت من مدارس باكستانية، وبعضها آت من دورات لتعليم اللغة

الإنكليزية كانت قد تاهتها في بعض الصفوف، وليس لها خبرة سابقة كمدرسة. حتى إنها لم تكمل دراستها الرسمية لنيل شهادة الثانوية العامة. لكن، لا توجد مرشحات أخريات ينافسها؛ فإذا لم تقم ليلى بالتعليم، فإن المدرسة ستبقى دون معلمة للغة الإنكليزية.

وعندما وصلوا إلى الوزارة كان عليهم الانتظار عدة ساعات لحلول لحظة لقائهم مع الوزير. أما من حولهم فكان هنالك عدد كبير من النساء. فهن يجلسن في الزوايا، وإلى جوانب الجدران، لابسات البوركات، وبدون بوركات، وهن يصطففن أمام العديد من الضد. فالاستمارات تلقى إليهن، فيعدن إلقاءها إلى الموظف بعد تعبثها بالبيانات. والموظفون يعاملونهن بخشونة عندما لا يتحركن بسرعة كافية. فهم يصرخون في وجوه النسوة من وراء المناضد، ويتلقون منهن صرعات مقابلة. ويسود المكان نوع من التكافؤ: الرجال يتجهمون على النساء، والنساء يصرخن في وجه الرجال. فبعض الرجال، وبدون من الواضح أنهم موظفون في الوزارة، يدورون حول أكدس من السورق. فيبدو الأمر كما لو أنهم يدورون في حلقات مفرغة، وكل واحد منهم لا ينفك عن الصراخ.

وتجول امرأة مسنة بدت عليها الحكمة والوقار؛ ومن الواضح أنها لم تجد أحداً يساعد أو يأخذ بيدها. وعندما تعبت، فإنها جلست على الأرض في إحدى الزوايا، وذهبت تغطّي في نوم عميق. ولما امرأة أخرى تباكى.

ويستغل كرم فترة الانتظار لمصلحته. فعند مرحلة معينة تغيب شريفة للتحري عن بعض الأمور إزاء منضدة ذات عطف انتظار طويل. وهنا استطاع الانفراد بليلى للمرة الأولى.

"ما هو جوابك لي؟" يسألها.

"أنت تعرف أنني لا أستطيع أن أجيبك"، تقول له.

"ولكن ماذا تريد أن تفعل؟"

"أنت تعلم أنه لا يمكن أن تكون لي إرادة".

"ولكن أترغبين في؟"

"أنت تعرف أنني لا أستطيع الإجابة عن سؤالك هذا".

"أقولين نعم إذا تقدمت لخطبتك؟"

"أنت تعلم من هو الذي يعطيك الجواب".

"هل توافقين على الالتقاء في ثانية؟"

"لا أستطيع ذلك".

"لَمْ لا تكونين أكثر لطفاً معي؟ ألا ترغبين في؟"

"إن عائلتي هي التي تقر ما إذا كنت أرغب بك أم لا".

وليلي تصبح حائقة. كيف يمرُّ على سؤالها عن مثل تلك

الأشياء. ففي كل حال، فإن سلطان هو من يقرُّ، أو أمها. ولكنها

بالطبع راغبة به. فهي تحبه لأنه سيكون متقدماً. لكنها لا تملك أي

مشاعر نحو كرم، فكيف تستطيع الإجابة عن أسئلته؟

وينتظرون مدة ساعات. وأخيراً يُنادى عليهم. يجلس الوزير خلف

ستارة، ويقوم بتحيتهم باقتضاب. يأخذ أوراق ليلي التي تسلمها إليه

ويضع توقيعها دون أن ينظر إليها نظرة واحدة. فهو يوقع سبعة

أوراق، ثم يخرجون بسرعة.

هكذا يعمل المجتمع الأفغاني. عليك معرفة شخص ما، كي تتحرك

أمورك في الحياة: إنه نظام يدعو إلى الشلل. لا شيء يحدث دون

التواقيع الصحيحة، ودون الأذن الخاصة. لقد وصلت ليلي إلى الوزير،

والبعض من سواها قد تيسر أمره بتوقيع شخص يكون أقل شأنًا من

الوزير. ولكن بما أن الوزراء يصرفون معظم أوقات نهارهم في توقيع

أوراق لأناس من الذين دفعوا رشوات قبل الوصول إليهم، فإن تواقع هؤلاء الوزراء تصبح أكثر فأكثر، أقل قيمة.

وليلي تعتقد أنها بسبب حصولها على توقيع وزير، فإن الطريق إلى عالم التعليم قد بات سهلاً عليها. لكن يتبين لاحقاً أنه ينبغي عليها القيام بطيف من الزيارات الأخرى إلى مكاتب جديدة وإلى كوتتورات وشبايك أخرى. وعلى وجه العموم، تقوم شريفة بالكلام بينما يجلس ليلي مُطَرِّقة إلى الأرض، لَمْ يجب أن يكون الأمر على هذه الدرجة من الصعوبة عندما تكون أفغانستان في حاجة ماسة إلى معلمات؟ "وفي أماكن كثيرة هنالك مبانٍ للمدارس، وكتب، ولكن لا يتوفر من يقوم بالتدريس"، قال الوزير. وعندما تصل ليلي إلى المكتب الذي يجري فيه امتحان المعلمات الجدييدات، فإن أوراقها تكون قد صارت مبعثرة وناقصة، فلقد تداولت بها أيدي كثيرة جداً.

والامتحان امتحان شفهي، امتحان لا اعتبار كفاءتها كمعلمة. وفي غرفة يجلس فيها رجلان وامرأتان خلف طاولة. وبعد الانتهاء من تسجيل العمر، والمستوى الثقافي، فإنه يبدأ طرح الأسئلة.

"هل أنت ضليعة في العقيدة الإسلامية؟"

"لا إله إلا الله، محمد رسول الله" تجيب ليلي.

"كم مرة في اليوم يتوجب على المسلم أن يصلي؟"

"خمس مرات".

"أليست ستاً؟" تسألها المرأة الجالسة وراء الطاولة. ولكن ليلي لا

تسمح لنفسها في الوقوع في فخ السؤال.

"قد يكون ذلك صحيحاً بالنسبة إليك، لكنها خمس صلوات بالنسبة إلي".

"وكم مرة تصلين في اليوم؟"

"لحسن مرات"، تكذب ليلي.

ثم يأتي دور الأسئلة الحسابية التي تقوم ليلي بحلها. ثم يكون هناك معادلة فيزيائية لم تكن قد سمعت ليلي بها من قبل.

"ألا تمتحنوني في اللغة الإنكليزية؟".

يهزّون رؤوسهم نفيّاً. "تستطيعين الإجابة مثل ما تشائين".
يضحكون على نحو ساخر. فليس أحد من اللجنة الفاحصة يستطيع أن يستكمل اللغة الإنكليزية. وتشعر ليلي أنه يجب ألا تعطى الوظيفة لها ولا لسواها من المرشحات الأخريات. وينتهي الاختبار بعد نقاش طويل بين أعضاء اللجنة، ثم يتفقون بأن إحدى أوراقها ناقصة. "عودي ثانية عندما نحصلين على تلك الورقة"، يقولون لها.

وبعد مرور ثمان ساعات في الوزارة، تعود شريفة ويلي إلى البيت بالستين، ففي مواجهة مثل هؤلاء الموظفين البيروقراطيين، فإن توقيع الوزير نفسه لا يكون كافياً.

"إنني أغتلى عن هذا المسمى، فإني في الحقيقة لا أريد أن أكون معلمة"، تقول ليلي.

"سوف أساعدك"، يقول كريم مبتسماً. "الآن، وبما أنني ابتدأت معك، فإني سوف أكمل المهمة"، يعلما. وهنا يلين قلب ليلي قليلاً.

* * *

وفي اليوم التالي، يذهب كريم إلى جلال أباد ليتشاور مع عائلته. وهناك يخبرهم عن ليلي، وعن نوع العائلة التي تنتمي إليها، وعن رغبته في التقدم لخطبتها. يوافقون، وكل ما يبقى الآن هو أن يقوم بإيفاد أخته للقيام بهذه المهمة. لكن المسألة تتحجر لوقت طويل. فكريم يخشى أن يُقابل طلبه بالرفض، وهو يحتاج إلى كثير من المال من أجل الزواج، والأثاث، كما أنه يحتاج إلى بيت يسكن فيه. بالإضافة إلى أن علاقته

مع منصور قد بدأت تصبح فاترة. لمنصور ما فتى يتعامله في الأيام القليلة الماضية، ويلقي عليه التحية باقتضاب أو بمجرد إيماءة من رأسه عندما يلتقيان. وفي أحد الأيام يسأله كرم إذا كان قد أساء إليه بشيء.

"عليّ أن أقول لك شيئاً بخصوص ليلي"، يجيب منصور.
 "ماذا؟" يسأله كرم.

"لا، إنني لا أستطيع أن أقول لك شيئاً في نهاية الأمر"، يقول منصور. "آسف".

"ولكن ما الأمر؟" يبقى كرم واقفاً وهو فاغر الفم. "أمي مريضة؟ هل من مكروه قد أصابها؟"

"لا أستطيع أن أفيدك عن هذا الأمر، ولكن لو أنك عرفته، فإنك لن ترغب بأن تتزوج منها بعد ذلك"، يقول منصور. "عليّ أن أنصرف الآن".

وفي كل يوم يحاصر كرم منصوراً بالأسئلة حول العيب الذي يشن ليلي. لكن منصوراً يكتفي بالتملص والانسحاب. فيترجاه كرم ويصبح غاضباً ومتألماً، لكن منصوراً يأنف دائماً عن الإجابة.

لقد كان إيمان قد أخبر منصوراً بشأن الرسائل. وفي الحقيقة فإنه لم يكن ليأبه لأمر قيام كرم بالتزوج من ليلي، بل على العكس. ولكن وكييل كان قد عرف أيضاً بأن كرم يريد التقدم لخطبة ليلي فقام الأخير بالطلب إلى منصور بأن يُعِد كرمياً عن ليلي. وعلى منصور أن يفعل ما يطلبه منه زوج عمته. فوكييل في نهاية الأمر رحيم العائلة، أما كرم فغريب عنها.

حتى إن وكيلاً لجأ إلى تهديد كرم. "لقد وقع اختياري عليها لولدي"، قال له. "وليلي ابنة عائلتنا، وزوجتي تريد تزويجها لابني. وأنا

أريد ذلك أيضاً، وسُلطان وأمها سيوافقان على طلبنا. لذلك ومن أجلك أنت بالذات، أطلب منك أن تبقى بعيداً عنها".

وكرم لا يستطيع أن يقول أشياء كثيرة إلى وكيل الأكبر منه سناً. وفرصته الوحيدة تبقى في أن تقاتل ليلى من أجل الحصول عليه. ولكن، هل هنالك شيء ما يعيب ليلى؟ وهل يكون ما ألمح إليه منصور صحيحاً؟

لقد بدأ كرم يشك في مشروع الخطوبة برمته. وفي الوقت نفسه، يقوم وكيل وشاكيلًا بزيارة مايكرورايون. وتختفي ليلى في المطبخ كي تُعدّ الطعام. وبعد أن يغادر الثنائي المنزل، تقول بيبي غول: "لقد طلبا منك من أجل سعيد". تبقى ليلى واقفة كالمشلولة.

"لقد قست إن لا مانع لديّ شخصياً، لكن عليّ أن أسألك"، تقول بيبي غول.

لقد اعتادت ليلى أن تفعل دائماً كل ما تريده والدتها. والآن فهذا لا تقول شيئاً. فحياتها مع ابن وكيل ستكون كما هي الآن بالضبط، والفارق الوحيد هو أنه سيكون لديها المزيد من الأشخاص الذين يتوجب عليها خدمتهم. وبالإضافة إلى ذلك، فإنها ستكتسب زوجاً له ثلاث أصابع. رجلاً لم يفتح كتاباً طيلة حياته.

وتغمس بيبي غول كسرة من الخبز في الدسم الذي هو في صحنها، وتلقي بها إلى فمها. ثم تتناول عظمة من صحن شاكيلًا، وتصرّح العظام الذي يدخلها، بينما هي ترمق ابتها.

تستشعر ليلى كيف أن حياتها، وشبابها، وأملها، تفلت منها جميعاً، فهي غير قادرة على استنقاذ نفسها. وتشعر أن قلبها ثقيل، وأنها وحيدة كحجر متروك، تشعر أنها مُدانة، ومتبوذة، ومسحوقة إلى الأبد.

تستدير ليلي، وتتخذ ثلاث خطوات إلى الباب، وتغلقه خلفها
مسلوء ومخرج. أما قلبها المسحوق فتتركه وراءها. فقريباً سوف يمتزج
بالغبار التي تهب إلى الداخل من خلال الشباك، الغبار التي تعيش في
السجاد. في تلك الليلة سوف تكتس قلبها مع جميع الغبار الأخرى،
وتلقي بكل ما تكتسبه في الباحة الخلفية للبيت.

خاتمة

كل العائلات السعيدة تشبه بعضها بعضاً. وكل عائلة سعيدة تكون سعيدة بأسلوبها الخاص.

نيو تولستوي، أنا كارنينا

بعد أسابيع قليلة من مغادرتي لمدينة كايول، انقسمت العائلة. فتمة جدال أدّى إلى شجار عنيف. والكلمات التي تمّ تبادلها بين سلطان وزوجته من جهة، وبين ليلى وبيبي غول من جهة ثانية، كانت كلمات قاسية قد تجاوزت إمكانية التسوية، بحيث بات من الصعب بعدها الاستمرار في الحياة تحت سقف واحد. ثم جاء يونس إلى البيت بعد انتهاء الخصام، فانتحى به سلطان جانباً، وقال له بأن عليه وعلى الأختين وأمهما واجب إظهار الاحترام والتوقير الذي يستحقه هو، لأن سلطان هو كبير البيت ولأنهم يأكلون على سفرته.

وفي اليوم التالي، وقبل بزوغ النهار، غادرت بيبي غول، ويونس، وليلى، وبليلة، الشقة مصطحبين معهم ما يلبسونه من ثياب فقط. ولم يعد أحد منهم إلى البيت منذ ذلك اليوم. انتقلوا للعيش مع فريد، شقيق سلطان المنبوذ من العائلة؛ ليعيشوا معه ومع زوجته التي هي حامل في شهرها التاسع؛ ومع أطفاله الثلاثة.

"الإخوان الأفغان ليسوا لطفاء بعضهم مع البعض الآخر"، يستجج سلطان في مكالمة هاتفية من كابول. "لقد آن الأوان لكي نعيش حيات مستقلة".

"عندما يكونون يعيشون في بيتي، فإن عليهم أن يحترموني، أليس كذلك؟" يسأل. "فإذا كانت العائلات لا تتقيد بالقواعد، فكيف يمكننا تكوين مجتمع يحترم القواعد والقوانين، ولا يحترم فقط البنادق والصواريخ؟ إن هذا مجتمع فوضوي؛ إنه مجتمع خارج عن القانون، بعد خروجه مباشرة من حرب أهلية. فإذا لم تكن العائلات ستقودها سلطة، فإننا نستطيع أن نتوقع المزيد من الفوضى القادمة إلينا".

لم تسمع ليلي بأي جديد من كريم. فبعدما فترت علاقته مع منصور، بات من الصعب عليه أن يقيم اتصالات مع العائلة. بالإضافة إلى ذلك، فإنه بات على غير يقين من أمره، ومن رغباته. ولقد قُدِّمَتْ له منحة دراسية من مصر كي يدرس عن الإسلام في جامعة الأزهر في القاهرة. "إنه سيصبح مُلّا"، يقول منصور مقهقهاً من كابول عبر خط هاتف مفرقع.

ذهب النجار إلى السجن لتنفيذ حكم لمدة ثلاث سنوات. وكان سلطان عديم الرحمة. "فالمجرمون لا ينبغي تركهم طلقاء في المجتمع. إنني متأكد من أنه قد سرق ما لا يقل عن سبعة آلاف بطاقة بريدية. وكل ما رواه عن عائلته الفقيرة هو مجرد أكاذيب. فوفقاً لحساباتي يجب أن يكون قد جمع أكواماً من المال، لكنه ما زال يخفيها".

أما عقد سلطان لطباعة الكتب المدرسية فقد فشل بكامله بعدما تسرب من بين الشقوق؛ إلا أن آخر التكرسات قد جاءت من جامعة أوكسفورد. وسلطان لم يبال بذلك حقاً. "كان يمكن لذلك أن يأتي على آخر رمق من طاقتي. فالطليبة هي بكل بساطة شديدة الضخامة".

عدا عن ذلك، فإن متاجر الكتب لدى سلطان بقيت مزدهرة، وجرى التعويض على سلطان بعقود مربحة عقدها مع إيران؛ وهو أيضاً يبيع الكتب إلى مكاتب السفارات الغربية. وهو الآن يحاول شراء إحدى دور السينما المهجورة في كابول، ليلبس فيها مركزاً يحتوي على مكتبة لبيع الكتب، وقاعة محاضرات، ومكتبة للقراءة، ومكان يستطيع فيه الباحثون الوصول إلى مجموعته الواسعة من الكتب. وهو في السنة القادمة يعدُّ بأن يرسل منصوراً في رحلة عمل إلى الهند. "إنه يحتاج إلى تعلُّم تحمُّل المسؤولية؛ وهذا سيكون ضرورياً لبناء شخصيته"، يقول. "وربما إنني سأرسل الولدين الآخرين إلى المدرسة". فبالإضافة إلى ذلك، فإن سلطان منح أولاده الثلاثة إجازات في أيام الجمعة من كل أسبوع. إجازات يستطيعون أن يفعلوا فيها ما يشاؤون.

أما للموقف السياسي فلا يزال يُقلق سلطان. "الوضع خطير. التحالف الشمالي قد أعطى كثيراً من النفوذ على يد المجلس التشريعي "لويجا جريغا"، وليس هناك توازن في السلطة. كارضاي ضعيف جداً، وهو غير قادر على حكم البلاد. وإن أفضل شيء ممكن هو أن تكون لنا حكومة تكنوقراط يقوم الأوروبيون بتنصيبها. فعندما نقوم نحن الأفغان بتعيين الحكام، فإن كل شيء يجري بطريقة غير صحيحة. فيلون التعاون، سيعاني الشعب. هذا بالإضافة إلى أن مفكرينا لم يعودوا بعد. وهناك ثغرة فارغة قد خلّفوها وراءهم".

وقد منع منصور والدته شريفة من أن تشتغل في التعليم. "شيء لا يليق"، هو كل ما يقوله. وسلطان ليس عنده مانع من عودتها إلى العمل من جديد، ولكن طالما أن ولدها الكبير منصور بمنعها، فلا شيء يمكن عمله. كما لم تنتج أي نتيجة إيجابية في ما يختص بمحاولة ليلي الثانية للتسجيل كمدرسة.

وبلبلة تزوجت من خطيبها رسول في نهاية الأمر. وبسبب انفصال أمه وأخوته عن بيته فإن سلطان قد اختار لنفسه مقاطعة حفل الزفاف، والبقاء في البيت، ومنع زوجته، وأولاده من الحضور.

ومريم التي كانت شديدة الخوف من أن تلد ابنة ثانية، ما لبثت أن اتكلت على الله، وأنجبت طفلاً ذكراً. ولم يبق في بيت سلطان من النساء سوى صونيا وشريفة. وعندما يكون سلطان وأبنائه في العمل، فإن الزوجتين مُتركان لوحدهما في الشقة، وهما تنصرفان في بعض الأحيان كأم وابنتها، وفي أحيان أخرى تنصرفان كعدوتين متنافستين. وبعد أشهر قليلة ستلد صونيا، وهي تدعو الله بأن يكون مولودها ذكراً. وقد طلبت مني أن أدعو من أجلها أيضاً.

"وماذا إذا جاء المولود طفلة؟"

ستحدث كارثة أخرى في عائلة آل خان.